جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

الشِّعر في كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي من القرن السادس حتى عصر المؤلف دراسة موضوعيّة وفنيّة

إعداد الطالب

مهنا هايل محمَّد الرجيلات

إشراف

الأستاذ الدكتور شفيق الرقب

رسالة مقدَّمة إلى عمادة الدِّراسات العليا
استكمالاً لمتطلَّبات الحصول على درجة الماجستير
في تخصُّص الأدب والنَّقد قسم اللُّغة العربيّة وآدابها

جامعة مؤتة، 2013

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تُعبر
بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب مهنا هايل الرجيلات الموسومة بـــ:

الشعر في كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي من القرن السادس حتى عصر المؤلف "دراسة موضوعية وفنية

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. شفيق محمد الرقب		2013/04/09	مشرفاً ورئيسا
أ.د. علي ارشيد المحاسنة		2013/04/09	عضواً
د. أحمد صالح الزعبي		2013/04/09	عضواً
د. سلامة هليل الغريب		2013/04/09	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. عبدالفتاح خليفات

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإهداء

إلى أغلى النَّاس، أُمِّي العزيزة.

إلى والدي الذي أختاره الله قبل أن يقطف أولى ثمرات ما زرع.

إلى سندي وعزوتي... إخواني وأخواتي.

إلى كل الأصدقاء والأقارب...

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل المتواضع.

مهنا هايل الرجيلات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشُّكر والتَّقدير

فلا يسعني بعد حمد الله وشُكره على عونِهِ ومدَدِهِ لإتمام هذه الدَّراســة، إلاَّ أن أتقدَّم إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور شفيق محمَّد الرقب؛ الذي تفــضَّل علــيَّ بقبولِ الإشراف على هذه الرِّسالة، بجزيل الشُّكر وعظيم العرفان، لِمَا قدَّمَهُ لي مــن جهدٍ متواصلٍ خطوةً بخطوة في جميع مراحل هذه الرِّسالة، ولِمَا قدَّمَهُ لي مــن آراءٍ حكيمةٍ، وتوجيهاتٍ مستمرَّة، ونصائح سديدة، امتازت ببساطة الأســلوب وغــزارة المعنى، فلهُ منِّي أجلُّ تقدير.

كما أشكر جميع أعضاء لجنة المناقشة؛ لتلطُّفهم بقراءة هذه الرِّســالة، وتقــديم الملحوظات التي ستُسهِم بكل تأكيد في إثراء هذا العمل المتواضع.

وأتوجَّه بجزيل الشُّكر والتقدير لجامعة مؤتة، وأعضاء هيئة التَّــدريس فيهــا، وبخاصّة قسم اللُّغة العربيّة وآدابها، والذين كانوا نبراساً يُهتدى به.

مهنا هايل الرجيلات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	أ
الشَّكر والتَّقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
الملخَّص باللُّغة العربيّة	و
الملخَّص باللُّغة الإنجليزيّة	ز
المقدِّمة	1
الفصل الأول: المؤلف والكتاب	3
1.1 مؤلِّف كتاب فوات الوفيات	3
2.1 اسم الكتبي ونسبه	3
3.1 مولد الكتبي ووفاته	4
4.1 شيوخ الكتبي	5
5.1 مؤلَّفات الكتبي	6
6.1 كتاب فوات الوفيات	10
7.1 سبب التأليف والتسمية	10
8.1 منهج المؤلِّف في التَّرجمة	11
1.8.1 مكان الولادة وتاريخها	18
2.8.1 ذكر تاريخ الوفاة ومكانها	20
3.8.1 الصِّفات الخُلقيّة والخَلقيّة	25
9.1 التكوين الثَّقافي للمترجم له	26
1.9.1 شيوخ المترجم له	27
2.9.1 آثار المترجم له ومصنَّفاته	28
3.9.1 تلاميذ المترجم له	30
4.9.1 رحلات المترجم له والبلاد التي زارها	31
5.9.1 الوظائف والمناصب التي تبوءها المترجم لهم	33

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

6.9.1 الاهتمام بالشعر 35
7.9.1 إبداء الرأي في الشِّعر 40
10.1 مصادر المؤلِّف في كتابه 42
الفصل الثاني: الاتجاهات الموضوعية للشِّعر في كتاب فوات الوفيات 52
1.2 الغزل 52
1.1.2 الغزل العفيف 52
2.1.2 الغزل الصَّريح 51
3.1.2 الغزل الغلماني 62
2.2 الشِّعر الاجتماعي 72
1.2.2 اللَّهو والمجون 72
2.2.2 حياة السوق 77
3.2.2 الفقر 80
4.2.2 النَّقد الاجتماعي 87
5.2.2 الإخوانيات 91
3.2 شعر المدح 101
1.3.2 مدح المعاصرين 101
2.3.2 المدائح النبويّة 111
5.2 الرِّثاء 123
6.2 شعر الوصف 137
7.2 الألغاز والأحاجي 144
الفصل الثالث: الدِّراسة الفنيّة 151
1.3 بناء القصيدة 151
2.3 الأسلوب واللُّغة 165
1.2.3 الأسلوب التقليدي 166
2.2.3 الأسلوب الشعبي 169

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

3.2.3 الأسلوب البديعي 173
3.3 الاستدعاء الأدبي 182
4.3 الاستدعاء الدِّيني 188
5.3 الصورة الشِّعريّة 198
الخاتمة 211
المراجع 214

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملخص

الشعر في كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي من القرن السادس حتى عصر المؤلف دراسة موضوعية وفنية

مهنا هايل الرجيلات

جامعة مؤتة، 2013

تناول هذا البحث دراسة كتاب فوات الوفيات لمؤلِّفه ابن شاكر الكتبي، من حيث المنهج الذي سار عليه مؤلِّفه في إيراد عناصر تراجمه المتعدِّدة، ودراسة الشِّعر الذي ضمَّنه المؤلف كتابه من مطلع القرن السادس حتى عصر المؤلِّف، دراسة موضوعية وفنيّة، من خلال تحليل نماذج من هذا الشِّعر.

وتتمثَّل أهميّة البحث في تحليل الشِّعر في مصدر من المصادر المهمَّة للشِّعر العربي من مطلع القرن السادس الهجري حتى عصر مؤلِّفه؛ فقد اشتمل على مادَّة شعريّة غزيرة تتَّصل بالشُّعراء الذين عاشوا في زمن الزنكيين والأيوبيين وصدر الدَّولة المملوكيّة، ولاسيما أنَّ معظم هؤلاء كانوا من الشُّعراء المغمورين الذين لم يُعتنَ بأشعارهم في الدِّراسات الحديثة التي تناولت الشِّعر في ذلك العصر، وتقويم السمات الفنيّة لهذا الشِّعر.

ولم أجد دراسة مستقلّة تتناول الشعر في كتاب (فوات الوفيات) من القرن السادس حتى عصر المؤلِّف، غير أنَّه توجد بعض الدِّراسات التي عرضت لجانبٍ أو لآخر من هذا الشِّعر بصورة عامّة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Abstract

The Poetry in the Fawat al-Wafayat Book for Ibn Shaker al-Tatbi in the Sixth Century until the Author's Age

Muhana Hayel Al-Rjailat

Mu'tah University, 2013

This paper deals with the study of Fawat al-Wafayat Book for Ibin Shaker al-Katbi, it investigates the approach followed by the author in reporting the multiple elements of its translation, studying the poetry included by the author in his book from the onset of the sixth century A.H until the author's days through a technical and objective study through the analysis models of this sort of poetry.

The research significance in represented in poetry analysis in one of the most important Arab Poetry resources in the above mentioned era, the research included a rich hypertext poetry linked to poets lived in the era of the Zangids, Ayyubids and the beginning of the Mamelukes state, in particular, most of these poets were famous but their poetry didn't find attention in the modern studies that dealt with poetry in that age, and the evaluation of technical features of the poetry.

I didn't find an independent study in the book (Fawat al-Wafayat) from the sixth century until the author's age, but some studies investigated one aspect or another of this poetry in general.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدِّمة:

كثرت كتب التَّراجم في العصرين الأيوبيّ والمملوكيّ التي ترجمت لأعلام من بيئاتٍ وعصورٍ مختلفة، ومن هذه الكتب كتاب (فوات الوفيات) لابن شاكر الكتبي، الذي ترجم لستمائة علم من عصور وبيئات متباينة، وقد كان الحظّ الأوفر لمن ترجم لهم في كتابه من فئة الشُّعراء، الذين أورد لهم أشعار كثيرة تستحق الدِّراسة، ولاسيما أنَّ معظم هؤلاء كانوا من الشُّعراء المغمورين الذين لم يعتنَ بأشعارهم في الدِّراسات الحديثة التي تناولت الشِّعر في ذلك العصر، من مثل: كمال الدِّين ابن الأعمى، وعين بصل، وإبراهيم المعمار، وظهير الدِّين البارزي، وأبي جلنك الحلبيّ، وشهاب الدِّين ابن غانم، وغيرهم كثير، لذا، جاءت هذه الدِّراسة لتكشف عن هذا الشِّعر الذي غفل عنه كثير من الباحثين ولم يتطرَّقوا له إلاَّ في إشارات عابرة في دراستهم، ولم أجد دراسة مستقلَّة تتناول منهج المؤلِّف في تأليف كتابه ودراسة الشِّعر الوارد فيه، لذا قمت بهذه الدِّراسة.

وتتمثَّل أهميّة هذه الدِّراسة في الكشف عن منهج أحد المؤلِّفين في عصر كثرت فيه الموسوعات الأدبيّة والتاريخيّة، إضافة لبيان الاتِّجاهات الموضوعيّة للشِّعر الذي ورد في كتاب (فوات الوفيات) من مطلع القرن السادس الهجري حتى عصر مؤلِّفه، وتحليل النماذج الشِّعريّة الواردة فيه، وبيان قيمتها الموضوعيّة والفنيّة، وكان من الطبيعي أن يكون كتاب (فوات الوفيات) هو المصدر الرئيس والمحوري في هذه الدِّراسة، لذا، اعتمدت عليه بشكلٍ كبيرٍ، إذْ التزمت إلى حدٍّ كبيرٍ بالشِّعر الوارد في الكتاب، عدا عن مقارنة ذلك الشِّعر بدووين الشُّعراء -إنْ أمكن ذلك- وضبطها بالشَّكل الصَّحيح، كما استعنت ببعض المصادر والمراجع التاريخيّة والنَّقديّة القديمة والحديثة في إبراز بعض الآراء والمواقف، وقد ذكرتها في أثناء الدِّراسة وفي قائمة المصادر والمراجع.

وجاءت الدِّراسة في مقدِّمة وثلاثة فصول وخاتمة، أمَّا الفصل الأول، فقد تحدَّثت فيه عن مؤلِّف الكتاب، اسمه ونسبه وشيوخه وتكوينه الثقافي وكتبه، كما تحدَّثت فيه عن منهجه في تأليف الكتاب، أمَّا الفصل الثاني، فتحدَّثت فيه عن أهمّ وأبرز الموضوعات الشِّعريّة، وقد قمت بترتيبها في الدِّراسة على النَّحو الآتي، شعر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغزل بأنواعه الثلاث، ثمَّ تلاه الشِّعر الاجتماعي، وبعده شعر المدح، ثم الرِّثاء، ثمَّ الوصف، والألغاز. وفي الفصل الثالث تناولت الأغراض الشِّعرية في الكتاب بالدِّراسة الفنيّة، من حيث بناء القصائد لدى الشُّعراء، ودراسة لغتهم وأساليبهم وأبرز الظَّواهر الفنيّة لديهم والصورة الشِّعريّة عند هؤلاء الشُّعراء، أمَّا الخاتمة، فقد تضمَّنت أبرز النتائج التي خرجت بها الدِّراسة.

واقتضت طبيعة الدِّراسة تطبيق المنهج الجمالي التحليلي في دراسة الاتِّجاهات الموضوعيّة والفنيّة للشِّعر، من خلال كتاب (فوات الوفيات)، مع الاستفادة من المنهج التاريخي، والمنهج الاجتماعي، والمنهج النَّفسي في تعليل بعض الظَّواهر وتفسيرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

المؤلف والكتاب

1.1 مؤلِّف كتاب (فوات الوفيات):

2.1 اسم الكتبي ونسبه:

تكاد تجمع أغلب المصادر على أنَّ اسم الكتبي ونسبه هو: محمَّد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرَّحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر صلاح الدِّين المؤرِّخ الكتبي، الداراني ثمَّ الدمشقي[1].

وأوردت بعض المصادر في بداية ترجمته أنَّه: الشَّيخ صلاح الدِّين أبو عبد الله[2]، وذكر ابن كثير"الليثي" بدل "الكتبي"، ولعلَّه تصحيف أو خطأ في النَّقل لتفرُّد ابن كثير به[3].

1: ابن حجر العسقلاني، شيخ الإسلام شهاب الدِّين أحمد (ت852هـ)، (1980م) **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: محمَّد سيد جاد الحق، دار الكتب العلمية، ط2، ج4، ص71،72، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: ابن حجر، الدرر)، البغدادي، إسماعيل باشا، (ت1399)، (1982م)، **هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، المجلد السادس، دار الفكر، ص162، 163، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: إسماعيل باشا، هدية العارفين)، الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، (ت189هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، ص203، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: ابن العماد، شذرات الذهب)، ابن قاضي شهبة، تقي الدِّين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي، (ت851هـ)، (1977م)، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق عدنان درويش، النَّاشر المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، ص238، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: ابن قاضي شهبه، تاريخه)، الزركلي، خير الدِّين الزركلي، (1984م)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ج6، ص156، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: الزركلي، الأعلام).

2: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت779هـ)، (1986م)، **تذكرة النبيه في أيَّام المنصور وبنيه**، تحقيق: محمَّد محمَّد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج3، ص266، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: الحسن، التذكرة)، ابن العراقي: ولي الدِّين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، (ت826هـ)، (1989م)، **الذيل على العبر في خبر من عبر**، القسم الأول تحقيق: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، ص128، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: ابن العراقي، الذيل)، ابن رافع السلامي، تقي الدِّين أبو المعالي محمَّد بن رافع السلامي، (ت774هـ)، (1982م)، **الوفيات**، المجلد الثاني، تحقيق صالح مهدي عبَّاس، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، ط1، ص263، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: ابن رافع، الوفيات).

3: ابن كثير، عماد الدِّين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ ابن كثير الدمشقي، (ت744هـ)، (1992م)، **البداية والنهاية**، دار الحديث، القاهرة، المجلد السابع، ج13، 14، ص317.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأضاف جرجي زيدان إلى سلسلة نسبه: فخر الدِّين الحلبي[1]، ونسبه عمر رضا كحالة إلى مذهبه الشافعي[2]، معتمدين في ذلك على ما ذكره حاجي خليفة في كشف الظُّنون[3].

ونخلص من ذلك إلى أنَّه يمكن القول إنَّ اسمه وما اشتهر به من تسميات كالآتي: الشِّيخ صلاح الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرَّحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر، الشَّافعي فخر الدِّين الحلبي، المؤرِّخ الكتبي، الداراني ثمَّ الدمشقي.

ولم تذكر المصادر أيّة معلومة عن أسرته ونشأته الأولى، غير أنَّه يستشف من المصادر أنَّه نشأ في كنف أسرة فقيرة جداً دعته إلى العمل في تجارة الكتب للحصول على المال، وساعده في ذلك حُسن خطِّه ومعاملته الحسنة للنَّاس، حيث تميَّز بالمروءة والأخلاق الحميدة[4].

3.1 مولد الكتبي ووفاته:

لم تحدِّد المصادر التي اطَّلعت عليها تاريخ ولادة الكتبي[5]، غير أنَّ محقِّق كتاب (الدُّرر الكامنة) ذكر في حاشية الكتاب أنَّه ورد في إحدى النُّسخ التي اعتمدها في تحقيق كتابه أنَّه ولد سنة 686هـ[6]، أمَّا بالنِّسبة لمكان ولادته، فقد ولد في داريا[7]، ونشأ فيها، نسبةً إلى ما ذكره ابن العراقي في سلسلة نسبه، حيث ذكر "محمَّد ابن شاكر بن أحمد الداراني الأصل، الدمشقي[8]".

1: زيدان، جرجي، (د.ت)، **تاريخ آداب اللغة العربية**،ج3، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص173، 174.

2: كحالة، عمر رضا، (1993م)، **معجم المؤلفين**، ج3، مؤسسة الرِّسالة، ط1، ص 339.

3: حاجي خليفة، (المتوفى 1067هـ)، (1994م)، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر، بيروت، 2: 1185.

4: ابن حجر، **الدرر**، ص71، 72.

5: الحسن، **التذكرة**، ص266، ابن العماد، **شذرات الذهب**، ص203، ابن العراقي، **الذيل**، ص128، ابن رافع السلامي، **الوفيات**، ص 263، الزركلي:، **الأعلام**، ص156، ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

6: ابن حجر، **الدرر**، ص71.

7: داريا: قرية مشهورة من قرى الشام بالغوطة، انظر: الحموي، ياقوت شهاب الدِّين أبو عبدالله (ت625)، (1993م)، **معجم البلدان**، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج،2، ص492.

8: ابن العراقي، **الذيل**، ص128.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمَّا فيما يتعلَّق بمكان وفاته وسنتها، فقد اتَّفقت معظم المصادر على أنَّه توفي في دمشق سنة 764هـ، إلاَّ أنَّ هناك بعض المؤرِّخين قد حدَّدوا اليوم والشهر والسنة[1]، فقد ذكروا أنَّه توفي يوم السَّبت الحادي عشر من شهر رمضان لسنة 764هـ، ودفن بمقبرة باب الصغير[2].

4.1 **شيوخ الكتبي**:

ولا نكاد نظفر بشيءٍ عن نشأته، أو حديثٍ تفصيليّ عن تعليمه وتكوينه الثقافي، وكلّ ما نجده عن ذلك أنَّه تتلمذ على أيدي عددٍ من علماء عصره مثل ابن الشحنة [3]، والمزي[4]، والبرزالي[5]، والحافظ شمس الدِّين الذَّهبي[6]، وغيرهم.

1: ابن رافع السلامي، **الوفيات**، ص 263، ابن العراقي، **الذيل**، ص128.

2: ابن العراقي، **الذيل**، ص128، ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

3: هو أحمد بن أبي طالب بن نعمه أبو العبَّاس، سمع من ابن الزبيدي وأجاز له ابن روزبه وابن القطيعي، توفي بصالحية دمشق سنة (730)، انظر: ابن حجر، الدرر39/1؛ ابن كثير، **البداية** 150/14؛ ابن العماد،شذرات 93/6.

4: هو يوسف بن عبدالرَّحمن بن يوسف بن عبدالملك أبو الحجاج جمال الدِّين بن الزكي أبي محمَّد القضاعي الكلبي المعروف بالمزي، محدث الديار الشامية في عصره، من أشهر كتبه: تهذيب الكمال في أسماء الرجال توفي سنة (742هـ)، انظر: ابن كثير، **البداية** 191/14؛ابن العماد، شذرات 136/6؛ ابن حجر 399/1.

5: القاسم بن محمَّد بن يوسف علم الدِّين البرزالي الاشبيلي الشافعي، ولد سنة (665هـ)، محدث الشام ومؤرخه، كان عارفا بالرجال، من مؤلَّفاته: المقتفي في التاريخ، وهو ذيل على تاريخ أبي شامة، والمعجم الكبير، توفي سنة (739هـ)، انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، 185/14، ابن رافع السلامي، **الوفيات**، 289/1، ابن حجر، **الدرر**، 237/3.

6: محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الدمشقي، مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين، برع في علم الجرح والتعديل، من مؤلفاته: سير أعلام النبلاء، تاريخ الإسلام، توفي في دمشق سنة (748)انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، 225/14، ابن رافع السلامي، **الوفيات**، ص55، ابن العماد، **شذرات الذهب** 200/6.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعلَّ أسماء هؤلاء الشُّيوخ الذين تتلمذ على أيديهم يفيدنا في استنتاج أنــواع العلوم التي تلقاها، وهي في مجملها لا تكاد تخرج علــى علــوم القــرآن الكــريم، والحديث النَّبوي الشَّريف والتاريخ والأدب واللُّغة، يضاف إلى ذلك أنَّ عملــه فــي تجارة الكتب قد وفَّر له فرصة كبيرة للمذاكرة والتحصيل؛ لما أهَّله للبحث والتأليف، وقد نوَّهت المصادر بذلك، فقال عنه ابن كثير: "تفرَّد في صناعته، وجمــع تــاريخ مفيداً نحواً من عشرة مجلَّدات، وكان يحفظ ويذاكر ويفيد"[1]. وقال عنه ابــن ســند: "وجمع تواريخ وغيرها، وخلف جملة كثيرة، وكان أوَّل أمره فقيراً مدقعاً"[2].

ويظهر كذلك أنَّ عمله في نسخ الكتب قد هيَّأ له فرصة للاطِّلاع على الكثيــر من الكتب وامتلاكها؛ فقد قال في ترجمة الرَّقيق الكاتب في سياق ذكره لمــصنفاته: "كتاب (قطب السُّرور في أوصاف الخمور) مجلَّدان، فضح العالمين فيه وعندي منه نسخة"[3]، وفي ترجمته لابن حواري الحنفي ذكر أنَّه ملك العديد من المجلَّــدات مــن كتبه[4]، وفي ترجمة ابن فضل العمري يعرض رأيه في مؤلَّــف العمــري "مــسالك الأبصار وممالك الأمصار" بشكل يبيِّن اطِّلاع الكتبي على الكتاب وغيره الكثير من الكتب، فقد قال عنه: "وكتاب مسالك الأبصار وممالك الأمصار في عــشرين مجلَّــد كبار، وهو كتاب حافل ما أعلم أنَّ لأحد مثله"[5].

5.1 مؤلَّفات الكتبي:

لعلَّ من أهمِّ كتبه وأشهرها كتابه الموسوم بـــ "عيون التواريخ" الذي يقع فــي أربعة وعشرين مجلداً لطافاً[6]، وهذا الكتاب يجمع بين الحــوادث والوفيــات، وهــو

1: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج13، 14، ص317.

2: ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

3: الكتبي، محمَّد بن شاكر بن أحمد الكتبي، (ت764هـ)، (1973م)، **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، ج1، ص41، (وسيشار له لاحقاً، هكذا: الكتبي، فوات الوفيات).

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص160.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص160.

6: ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مرتَّب على السِّنين، فإذا انتهى المؤلِّف من أهم حوادث سنة ما، أفرد عنواناً لمن توفى في هذه السنة من الأعيان، وفيه فوائد وغرائب وتراجم غزيرة وأشعار كثيرة[1]، وقد ابتدأه بسيرة الرَّسول r ، ثمَّ الخلفاء الرَّاشدين والصَّحابة والتَّابعين وتراجم رجال الحديث، والصَّالحين والزهَّاد، والأعيان والكرماء والأدباء والشُّعراء والمغنِّين، وغيرهم[2].

وقد أثنى غير واحد على هذا الكتاب وبيَّن قيمته، فقد قال عنه صاحب تذكرة النبيه القريب العهد بالكتبي في سياق حديثه عن الكتبي: "جمع كتاباً في التَّاريخ يشتمل على فوائد جمة"[3]، والمقصود هنا هو كتاب (عيون التواريخ). وقال ابن كثير في نفس السياق: "جمع تاريخاً مفيداً"[4].

أمَّا بالنِّسبة لحجم هذا الكتاب، فقد تضاربت الروايات، فقد وجد الباحث في هذا الجانب أربع روايات، أضعفها رواية كل من: حاجي خليفة، الزركلي، جرجي زيدان، القائلة إنَّ عدد أجزاء كتاب (عيون التواريخ) هي ستة أجزاء، ولعلَّ هذا الرأي كما أسلفت ضعيف؛ نظراً للفترة الزمانيّة الطويلة التي يغطيها ذلك الكتاب، وهذه الفترة تحتاج لمساحة ليست بالقليلة تتجاوز العدد المذكور بكثير، خاصّة إذا ما علمنا أنَّ صاحب الكتاب بدأ بالتأريخ منذ عهد الرَّسول r إلى قبل وفاته بأربع سنين (760هـ)، وبنظري، فإنَّ هذا التاريخ الطويل مهما اشتمل على اختصارات لا يمكن كتابته بستة أجزاء، ويدحض هذا القول الأدلَّة التي سأسوقها لاحقاً لترجيح أحدى هذه الرِّوايات.

أمَّا الرِّواية الثانية، فهي لابن كثير حيث يقول: جمع تاريخاً مفيداً نحواً من عشر مجلَّدات"[5]. والباحث يرى هذا الأمر غير دقيق؛ لأسبابٍ منها: ذكر ابن كثير

1: ابن قاضي شهبة، **تاريخه**: ص238.

2: إحسان سعيد خلوصي، (1994م)، **أعلام الفكر في دمشق**، دار يعرب، الطبعة الأولى، دمشق، ص321.

3: الحسن، **التذكرة**، ص266.

4: ابن كثير، **البداية والنهاية**،ج13، 14، ص317.

5: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج13، 14، ص317.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنَّ هذا التاريخ "نحواً" من عشر مجلَّدات، وهذا يعني أنَّ العدد الذي ذكره غير مؤكَّد وحاسم، أو لعلَّ المجلَّدات التي وصلت لابن كثير كانت مجموعة مع بعضها بعض، فكانت قرابة عشر مجلَّدات، أو لعلَّ ابن كثير لم يطَّلع إلاَّ على العدد المذكور، ولو أنني استبعد ذلك الأمر، ومن غير المستبعد ونظراً للتنافس الأدبي والعلمي بين العلماء وحتى لا يظهر الكتبي بمرتبة عالية تتجاوز معاصريه أراد ابن كثير التقليل من شأن الكتبي المعاصر له، فقام بتقليل عدد أجزاء كتابه الكبير.

وإذا ما نظرنا إلى الرِّواية الثالثة، وهي لصاحب هدية العارفين، وهي أنَّ عدد أجزاء الكتاب المذكور ثمانٍ وعشرون مجلَّداً، فهي قريبة نوعاً ما من الرِّواية الرابعة لابن قاضي شهبة، الذي ذكر أنَّ كتاب (عيون التواريخ) يقع في أربعة وعشرين مجلَّداً، ولعلَّ هذا الرأي أدقها؛ فيبدو أنَّ ابن قاضي شهبة قد اطَّلع على أجزاء هذا الكتاب بدليل تقديمه وانفراده من بين المصادر بذكر وصف - ولو بسيط - لما يحويه هذا الكتاب، حيث قال عنه: "وفيه فوائد وغرائب وتراجم غزيرة وإشعار كثيرة"[1]، لا بل أنَّ ابن قاضي شهبة يعرض نقداً لاذعاً لكتاب الكتبي عندما اتَّهمه بالنَّقل عن ابن كثير والصفدي، حيث يقول: "ويتبع ابن كثير في تاريخه ينقل منه صفحة وأكثر بحروفها لاسيما بالحوادث، وينقل من تاريخ الصفدي الترجمة بحروفها"[2].

وامتدح هذا الكتاب الصدر أبو الحسن علي بن العلاء علي بن محمَّد بن محمَّد بن أبي العزّ الحنفي قاضي دمشق ومصر، إذْ قال[3]:

عُيونُ التَّوارِيخِ الشَّريفةِ قَدْ حَوَى ... عُيُونَ المَعَانِي والفَوَائِدِ والفَضْلا

فَمَا مِنْ سَوَادٍ فِي بَيَاضٍ رَأَيْتُهُ ... بِأَحْسَنَ مِنْ هَذِيَّ العُيُوْنِ وَلا أَحْلَى

1: ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

2: ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

3: السَّخاوي، الحافظ المؤرِّخ الحجة شمس الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحمن، (ت902 هـ)، (1349هـ)، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ**، مطبعة الترقِّي، دمشق، الطبعة الأولى، ص150.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كتاب (عيون التواريخ) لم يذكر باسمه صراحةً، وإنَّما اكتفى بعض المؤرِّخين بالقول بأنَّ الكتبي جمع كتاباً في التاريخ[1].

وعند الحديث عن المدّة الزمنيّة التي استغرقها الكتبي في إنشاء كتابه، يظهر أنَّ الكتبي استغرق قرابة أربع، أو خمس سنوات على أبعد تقدير، وقد خلصت إلى ذلك الأمر من خلال اعتقادي بأنَّ (كتاب عيون التواريخ) أربعة وعشرون جزءاً، والكتبي انتهى من هذا الكتاب سنة (760هـ)، وقد وردت إشارة تاريخية عند العلاَّمة الكبير أسطفان الدويهي، تشير إلى أنَّ الكتبي أنهى الجزء العاشر من عيون التواريخ في سنة (758هـ/1357م) [2]؛ أي أنَّه استغرق قرابة السنتين في وضع نصف الكتاب، وبذلك نستخلص إلى أنَّه احتاج إلى خمس سنوات على أقصى تقدير للانتهاء من الكتاب، وبمعنى آخر بدأ به تقريباً في سنة (755هـ)، وانتهى سنة (760هـ).

ومن هذه الكتب فوات الوفيات "في أربعة أجزاء لطاف"[3]، وهو الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، ومن كتبه أيضاً كتابه الموسوم بـ "روضة الأزهار وحديقة الأشعار[4]"، وهذا الكتاب ما زال مخطوطاً، وقد جمع فيه صاحبه ما اختاره من الغزل، وافتتح كله بغزل من: نظم الصرصري في مدح النَّبيّ – عليه الصَّلاة والسَّلام[5].

1: ابن رافع السلامي، **الوفيات**، ص 263، ابن العراقي، **الذيل على العبر في خبر من عبر**، ص128.

2: الدويهي، أسطفان، (1976م)، **تاريخ الأزمنة**، مطابع الكريم الحديثة، جونية، (د.ط)، ص320، 321.

3: ابن قاضي شهبة، **تاريخه**، ص238.

4: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج13، 14، ص317.

5: حاجي خليفه، **كشف الظنون**، 1185/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

6.1 كتاب فوات الوفيات:

7.1 سبب التأليف والتَّسمية:

إنَّ السَّبب الرَّئيسي لتأليف كتاب (فوات الوفيات) هو تدارك ما فات ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان"؛ وذلك استناداً إلى مقدِّمة كتاب فوات الوفيات، حيث ورد فيها: "... إنَّ علم التاريخ مرآة الزَّمان لمن تدبَّر، ومشكاة أنوار يطَّلع بها على تجارب الأمم من أمعن النَّظر وتفكَّر، وكنت ممَّا أكثر لكتبه المطالعة، واستحلى من فوائده المراجعة، فلمَّا وقفت على كتاب "وفيات الأعيان" لقاضي القضاة ابن خلكان، قدَّس الله روحه ! وجدته من أحسنها وضعاً لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة، والمحاسن الكثيرة، غير أنَّه لم يذكر أحداً من الخلفاء، ورأيته قد أخلَّ بتراجم فضلاء زمانه، وجماعة ممَّن تقدَّم على أوانه، ولم أعلم أذلك ذهول عنهم، أو لم يقع له ترجمة أحد منهم؟!

فأحببت أن أجمع كتاباً يتضمَّن ذكر من لم يذكرهم من الأئمَّة الخلفاء، والسَّادة الفضلاء، من وفاته إلى الآن، فاستخرت الله تعالى، فانشرح لذلك صدري وتوكَّلت عليه، وفوضت إليه أمري. وسميته بـ "فوات الوفيات".

والله تعالى المسؤول أن يوفّق في القول والعمل، وأن يتجاوز عن هفوات الخطأ والزَّلل..."[1].

وهذا ما يراه صاحب هدية العارفين، حين ذكر أنَّ فوات الوفيات ذيل على وفيات الأعيان لابن خلكان[2]، وكذلك السَّخاوي، فقد قال: "له ذيل على تاريخ ابن خلكان سمَّاه فوات الوفيات"[3]، وأيضاً حنَّا الفاخوري، إذْ قال عن وفيات الأعيان لابن خلكان: "وقد ذيَّله ابن شاكر الكتبي وسمَّى ذيله فوات الوفيات"[4]، وكذلك جرجي زيدان، حيث يقول: " فوات الوفيات، اشتهر به، وقد جعله ذيلاً لوفيات الأعيان، لابن

1: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص9، 10.

2: إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين**، ص162، 163.

3: السَّخاوي، **الإعلان بالتوبيخ**، ص150.

4: الفاخوري، حنَّا، (1953م)، **تاريخ الأدب العربي**، بيروت، الطبعة الثانية، ص877.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خلكان"[1]، ونجد هذا الرأي أيضاً لدى عبَّاس العزاوي، فقد ذكر من بين الذيول على وفيات الأعيان كتاب ابن شاكر فوات الوفيات[2]، وذهب إلى مثل هذا الرأي أيضاً محمَّد الفقي؛ إذْ ذكر أنَّ ابن شاكر الكتبي في كتابه فوات الوفيات، قد ذكر ما فات ابن خلكان، غير أنَّ الفقي قد ذكر أن الكتبي كرَّر تراجم قليلة ذكرها ابن خلكان[3]. وإلى ذلك ذهب أيضاً عمر الدقاق حين قال: "فقد تصدَّى ابن شاكر الكتبي، وهو من رجال القرن الثامن – أي بعد نحو قرن من حياة سلفه – إلى تدارك ما فات ابن خلكان في وفياته من ذكر التراجم، وهو غير قليل، فكان من ذلك كتابه "فوات الوفيات" الذي يُعدُّ بمثابة ذيل متمِّم لوفيات الأعيان"[4]. ويبدو أنَّ من الأسباب التي دفعت الكتبي لتأليف كتابه اطِّلاعه على الذَّيل الذي قام بتأليفه تاج الدِّين اليمني (ت743هـ) على تاريخ ابن خلكان، فوجده لا يتجاوز ثلاثين رجلاً [5].

8.1 منهج المؤلف في الترجمة:

اعتمد الكتبي الترتيب الهجائي في ترتيب التراجم في كتابه (فوات الوفيات)؛ حيث بدأ كتابه بالترجمة لإبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر[6]، وانتهى بالترجمة للملك الجواد، يونس بن مودود بن محمَّد بن أيوب[7].

1: جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ص174.

2: العزاوي، عباس، (1957م)، **التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان**، بغداد، ص100.

3: الفقي، محمَّد كامل، (1984م)، **الأدب العربي في العصر المملوكي**، دار الموقف العربي- جمهورية مصر العربيّة، الطبعة الثالثة، ص74، 75.

4: الدقاق، عمر، (1995م)، **من أعلام الشعر والأدب العربي**، الطبعة الثالثة، دار العلوم الجديدة، بيروت – لبنان، ص290.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، 2: 245.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص13.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص396.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعتمد الكتبي الاسم الأول للمترجم له، وليس اللَّقب، أو الكنية في ترتيبه للتراجم، وإذا كان الاسم معرَّفاً فإنَّه يعتمد الحرف الذي يلي اللام كما في ترجمة المؤمل المحاربي[1]، والمختار الثقفي [2]، وغيرهما.

وإذا تشابه الاسم الأول، فإنَّه ينتقل إلى الاسم الثاني، وإذا تشابه الاسم الثاني ينتقل إلى الاسم الذي يليه، وهكذا كما في تراجم: محمَّد بن على بن عمر المازني[3]، ومحمَّد بن علي بن عبد الواحد ابن الزملكاني وغيرهما. ومن بين عناصر الترجمة العديدة حافظ الكتبي على ذكر الاسم فقط في بداية كل ترجمة، أمَّا باقي عناصر التَّرجمة، فقد وضعها في أماكن عديدة ومختلفة داخل التَّراجم.

وقد تنوَّعت أساليب الكتبي في ذكر اسم المترجم له ونسبه:

1- ذِكرُ اسم المترجم له كاملاً، ذاكراً كنيته ولقبه ونسبه، كما في ترجمة عز الدِّين السويدي الطبيب، فذكر أنَّه: إبراهيم بن محمَّد بن طرفان عز الدِّين أبو إسحاق النصاري[4]، وكذلك حين ترجم للشيخ تقي الدِّين بن تيمية: "أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن عبدالله بن أبي القاسم الحراني[5]، وكذلك في ترجمة شمس الدِّين الكوفي: محمود بن أحمد بن عبدالله بن داود بن محمَّد بن علي الهاشمي الحنفي، شمس الدِّين الكوفي[6].

2- ذكر الاسم الأول والثاني فقط والكنية واللَّقب كما في ترجمة ابن وهبون المرسي، فقد ذكر أنَّه عبد الجليل بن وهبون، أبو محمَّد الملقَّب بالدَّمعة المرسي[7].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص176.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص123.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص40.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص48.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج2، ص158.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص102.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص349.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

3- ذكر الاسم الأول فقط والكنية واللقب، كما في ترجمة زياد الأعجم، فقد ذكر أنَّه أبو أمامة زياد الأعجم، مولى عبد قيس[1].

4- ذكر الاسم بإيجاز مع الكنية واللقب، كما في ترجمة ظاهر الجزري، فقد ذكر أنَّه سداد بن إبراهيم، أبو النجيم الجزري الملقَّب بالظاهر[2].

5- ذكر الاسم دون الكنية واللقب، كما في ترجمة سعد الدِّين الفارقي، فذكر أنَّه سعد الدِّين بن مروان بن عبد الله بن خير، الصدر الأديب سعد الدِّين الفارقي الموقع[3].

وإذا اختلف في الاسم، فإنَّه يذكر الأسماء المتعدِّدة دون مناقشة، كما في ترجمة عمرو بن العلاء، فقد ذكر أنَّه اختلف في اسمه على عشرين قولاً: الزبان، العريان، يحيى، محبوب، جنيد، عُيَيْهْ، عثمان، غنار، جبر، خير، جزء، حميد، حماد، عقبة، عمار، فايد، محمَّد، أبو عمرو، قبيصة[4]. ثمَّ يذكر ما يراه صواباً، فذكر أنَّ الصَّواب في اسم عمر بن العلاء هو "زبان".

وأحياناً يبدي شكّه في اسم المترجم له من خلال صيغة الفعل المبني للمجهول "يقال"، كما في ترجمة سعد المجنون، فقد أورد أنَّه سعد المجنون؛ يقال إنَّ اسمه سعيد، وكنيته أبو عطاء، ولقبه سعدون من أهل البصرة[5].

ويعلِّل في بعض التَّراجم سبب الكنية أو اللقب، كما في ترجمة المنصور قلاوون، فقال في ترجمته: قلاوون السُّلطان المنصور سيف الدُّنيا والدِّين، أبو المعالي وأبو الفتوح الصَّالحي النجمي؛ أشتري بألف دينار، ولهذا كان يقال له "الألفي"[6]. وكذلك في ترجمة الشمس الدهان، فذكر أنَّه: محمَّد بن علي بن عمر

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص29.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص45.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص47.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص28.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص84.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص203.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المازني الدهان، الشيخ شمس الدِّين الدمشقي الشَّاعر، كان يعمل في صناعة الدهان[1].

وكما في ترجمة محمود بن الحسين، أبو الفتح الكاتب المعروف بكشاجم، هو من أهل الرَّملة من نواحي فلسطين، هو لقب نفسه "كشاجم"، فسئل عن ذلك فقال: الكاف من كاتب، والشين من شاعر، والألف من أديب، والجيم من جواد، والميم من منجم[2]، وترجمة أبي الوحش بن أبي الخير بن داود بن أبي المنى، الحكيم الرشيد أبو حليقة؛ سمّي "أبو حليقة"؛ لحلقة كانت في أذنه[3]، وعلَّل في ترجمة المنصور سبب لقبه "أبي الدوانيق"، حيث ذكر أنَّه بسبب محاسبته الكتاب والعمال على الدوانيق[4]، وترجمة الجليس الحباب، فذكر أنَّه لقب بالجليس؛ لأنَّه كان يعلِّم الظَّافر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم والأدب، وكان عادتهم يسمُّون مؤدِّبهم الجليس[5]، وحافي رأسه النَّحوي، فعلَّل لقبه لأنَّه كانت حفرة في رأسه[6]، والحطيئة الشَّاعر، فذكر أنَّه لقب بالحطيئة لقربه من الأرض، فإنَّه كان قصيراً[7]، وفي ترجمة ثابت بن كعب بني أسد ابن الحارث بن العتيك، ويعرف بثابت قطنة، فذكر لأنَّه أصابه سهم في عينه في بعض حروب الترك فذهبت، فجعل موضعها قطنة[8]، وأيضاً في ترجمة موفَّق الدِّين عبد اللطيف، فذكر أنَّ " لقبه تاج الدِّين الكندي بالجدي المطجن لرقّة وجهه وتجعُّده ويبسه"[9].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص5.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص99.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص 248، 249.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص216.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص332.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص410.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص276.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص269.

9: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص385.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان الكتبي يضبط ويوضّح القليل من الأسماء والألقاب التي كان يخشى أن توقع قارئها في اللّبس والخطأ، وإنْ كنت أعزو قلّة هذه الضوابط والتوضيحات إلى ما يحدثه النسَّاخ الذين يرغبون بإنجاز النَّسخ بسرعة، فيستثنون مثل هذه الأمور التي يظنُّون أنَّ لا قيمة ولا تأثير لها في النُّصوص، ومن هذا قوله في ترجمة سيف الدِّين السامري، حيث يقول: "السَّامَرِّي - بفتح الميم وتشديد الراء - نسبة إلى سامرا"[1]، ونجد مثل هذا الضبط في ترجمة أبي حكيمة الكاتب، فقد قال: "يلقب أبا حُكيمة - بضم الحاء –"[2]، وكذلك في ترجمة عبادة المخنث: "عَبّادة - بتشديد الباء وفتح العين – المخنث"[3]، وترجمة ابن الزويتينة، حيث يقول: "عبد الرحيم بن علي، جمال الدِّين ابن الزويتينة - تصغير زيتونة – الرحبي"[4]، وفي ترجمة ابن الجباب، ولغرابة ذلك الاسم يقدِّم توضيحاً لحروفه على النَّحو الآتي: "الجليس ابن الجباب عبد العزيز بن الحسين بن الجباب - بالجيم والباء الواحدة المشددة وبعد الألف باء"[5]، ونجد مثل هذا التوضيح في ترجمة مهمندار العرب، حيث يقول: "يوسف بن سيف الدولة بن زماخ بالزاي والميم المشددة والخاء المعجمة بعد الألف الحمداني المهمندار"[6].

وإذا كان هناك قريب للمترجم له كأب، أو أخ، أو غيره، ويودُّ ذكره لاحقاً، فإنَّ الكتبي يشير لذلك والى موقعه من التراجم، كما في ترجمة الشيخ برهان الدِّين الفزاري، حيث قال: "وسيأتي ذكر والده الشيخ تاج الدِّين إن شاء الله تعالى في حرف العين"[7].

وفي ترجمة أبي عثمان الخالدي، أشار إلى أنَّه سيترجم لأخيه في حرف الميم على النَّحو الآتي "أبو عثمان الخالدي أحد الخالديين، وستأتي ترجمة أخيه أبي بكر

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص134.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص15.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص153.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص318.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص332.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص349.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص32.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محمَّد في حرف الميم إن شاء الله تعالى"[1]، وفي بعض التراجم لا يحدِّد الموقع الذي سيرد فيه الشَّخص المشار إليه، كما في ترجمة تقي الدِّين الحنبلي، فقد ذكر مجيء أخيه لاحقاً، ولكن لم يحدِّد في أي حرف سيأتي، وذلك على النَّحو التَّالي: "أخو الشيخ القدوة محمَّد بن تمام الآتي ذكره إن شاء الله تعالى"[2]، وترجمة أبي علي القرمطي، حيث قال: "وسيأتي ذكر جده الحسن بن بهرام القرمطي أصل القرامطة إن شاء الله تعالى"[3].

على أنَّ الكتبي لم يلتزم بما يذكره دائماً، فقد ذكر أنَّه سيقدِّم ترجمة لبعض الأشخاص، ويذكر حادثة ما سيكشف عنها لاحقاً، ولكن لم يحدث شيئاً من هذا؛ ففي ترجمة زيد بن زين العابدين ذكر أنَّه سيترجم لسليمان بن جرير، وكثير الأبتر[4]، ولكنه لم يفِ بما وعد به. وفي ترجمة عبد الله بن علي ذكر قال: "ولعبدالله بن علي ذكر في ترجمة ابن المقفع"[5]، ولكن لم ترد ترجمة ابن المقفع في كتابه. وفي ترجمة صاحب الموصل قرواش بن مقلد قال: "وسيأتي ذكر والده المقلّد في مكانه من حرف الميم إن شاء الله تعالى"[6]، ولكن لم يترجم له في حرف الميم. وفي ترجمة ابن السنينيرة، ذكر أنَّ هناك قضية سيذكرها في ترجمة ابن خروف علي بن محمَّد بن يوسف[7]، وعند الرُّجوع إلى الترجمة المذكورة لم أجد ذكراً لهذه القضية.

و يذكر السّمة المميّزة للمترجم له، سواء أكان حاكماً، أم شاعراً، أم ناثراً، أم فقيهاً، أم متصوّفا، أم طبيباً، أم غير ذلك، فعندما ترجم للمتقي لله ذكر انه إبراهيم بن جعفر، أمير المؤمنين المتقي لله ابن المقتدر ابن المعتضد[8]، وأيضاً عندما ترجم

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص53.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص161.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص219.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص38.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص193.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص201.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص298.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص17.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للشيخ إبراهيم الأرموي، فقد ذكر أنَّه إبراهيم بن عبدالله بن يوسف بن إبـــراهيم بـــن سليمان أبو إسحاق الارمني، ويقال الأرموي، الشيخ الزاهد العابد[1]، وكـــذلك حـــين ترجم للأقطع أمير العرب، فذكر أنَّه رافع بن الحسين بن حماد بن مقـــن - بالقـــاف المفتوحة- أبو المسيب، الأقطع المعروف بظاهر الدولة أمير العرب بنواحي بغداد؛ كان فيه فروسية وأدب ويقول الشعر[2]، وكذلك حين ترجم لأبي الربيع الاربلي، فذكر أنَّه سليمان بن بنيمان بن أبي الجيش بن عبد الجبار الأديب شرف الدِّين أبو الربيع الهمذاني ثمَّ الاربلي، شاعر محسن سائر القول، له شعر ونوادر وزوائـــد ومـــزاح حلو[3]، وكذلك حين ترجم لعون الدِّين ابن العجمي، فذكر أنَّه سليمان بن عبد المجيـــد ابن حسن بن عبدالله بن الحسن، الأديب البارع عون الدِّين ابـــن العجمـــي الحلبـــي الكاتب[4]. وأيضاً حين ترجم للشيخ تاج الدِّين الفركاح، فذكر أنَّه عبد الـــرَّحمن بـــن إبراهيم بن سباع بن ضيا، العلامة الإمام المفتي فقيه الشَّام، تـــاج الـــدِّين الفـــزاري البدري المصري الأصل، الدمشقي الشافعي[5].

وفي ترجمة ابن عطية المفسِّر، فذكر أنَّه عبد الحق بن غالب بن عبـــدالملك بن غالب بن تمام بن عطية، الإمام الكبير قدوة المفسرين، أبو محمَّد ابن الحـــافظ الناقد الحجة أبي بكر المحاربي الغرناطي القاضي، حدَّث عن أبيه وغيره، وكـــان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير بارعاً في الأدب، ذا ضبط وتقييـــد وتجويـــد وذهن سيَّال، ولو لم يكن له إلاَّ التفسير لكفى[6]، وكذلك حين ترجم لقاضي القضاة ابن بنت الأعز، فذكر أنَّه عبد الرَّحمن بن عبد الوهاب بن خليفة بن بدر، قاضي القضاة تقي الدِّين أبو القاسم[7]، وأيضا في ترجمة ابن المسجف، فذكر أنَّه عبد الرَّحمن بـــن

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص31.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص19.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص57.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج2، ص66.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص263.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج2، ص256.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص279.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبي القاسم بن غنائم بن يوسف الأديب بدر الدِّين الكتاني العسقلاني ابن المسجق الشَّاعر[1]، وكذلك في ترجمة ابن أبي حاتم فأورد انه عبد الرَّحمن بن محمَّد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران، أبو محمَّد ابن أبي حاتم التميمي الحنبلي الإمام ابن الإمام الحافظ ابن الحافظ [2]، وكذلك أورد في ترجمة ملك الأندلس الداخل، فذكر أنَّه عبد الرَّحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي الداخل إلى الأندلس، وهو أوَّل من ملك الأندلس من بني أميه[3]، وكذلك في ترجمة الشيخ إبراهيم الأرموي، فذكر أنَّه إبراهيم بن عبدالله بن يوسف إبراهيم بن سليمان أبو إسحاق الارمني، الشيخ الزاهد العابد[4]، وكذلك في ترجمة صاعد الطبيب، فذكر أنَّه: صاعد بن هبة الله بن توما النصراني، من أهل بغداد، كان من الأطبَّاء المتميِّزين، وكان طبيب نجاح الشرابي[5]، وأيضاً في ترجمة البديع الدمشقي، فذكر أنَّه الكاتب المعروف بالبديع، وأنَّه آية في النّظم والنّثر[6]، وترجمة المستعصم بالله، فذكر أنَّه آخر خلفاء بني العبَّاس ببغداد[7].

1.8.1 مكان الولادة وتاريخها:

والعنصر الرئيسي الثاني من عناصر الترجمة في كتاب (فوات الوفيات)، ذكر مكان ولادة المترجم له وتاريخها، ولم يسر على نهج مطَّرد، بل راوح بين الحالات الآتية:

1-كان يذكر في بعض التراجم تاريخ الولادة باليوم والشهر والسنة، كما في ترجمة الرَّاشد بالله، فذكر أنَّه ولد ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رمضان سنة

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص282.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص287.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص302.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص31.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص115.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص206.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص231.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اثنتين وخمسمائة[1]، وترجمة المستنصر بالله، فذكر أنَّه ولد في ثالث عشر صفر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة [2]، وكذلك ترجمة الواثق بالله، فذكر أنَّ مولده يوم الاثنين لعشر بقين من شعبان سنة تسعين ومائة[3]، وأيضاً ترجمة النَّاصر لدين، فذكر أنَّه ولد يوم الاثنين عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة[4].

2- وأحياناً يذكر تاريخ الولادة بالشَّهر والسَّنة كما في ترجمة الحافظ ابن النجار، فذكر أنَّه ولد في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[5]، وأيضاً ترجمة مظفر الذَّهبي، فذكر أنَّ مولده في العشر الأول من الحجة سنة سبع وستمائة[6].

3- وفي تراجم أخرى يذكر سنة الولادة ومكانها، كما في ترجمة ابن الصفار المارديني، فذكر أنَّ: مولده بماردين سنة خمس وسبعين وخمسمائة [7]، وكذلك حين ترجم لعلاء الدِّين الشَّاعر المنجم، فذكر أنَّه: البصري المولد الشَّاعر المنجم ولد سنة خمس وتسعين وخمسمائة[8]، وكذلك حين ترجم لكل من: نجم الدِّين بن إسرائيل، فذكر أنَّه ولد بدمشق سنة ثلاث وستمائة[9]، وترجمة شمس الدِّين الأصفهاني، فذكر أنَّ مولده بأصبهان سنة ست عشرة[10].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص168.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص169.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص228.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص66.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص36
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص150.
7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص 119.
8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص 95.
9: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص383.
10: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص38.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد يذكر سنة الولادة دون مكانها، كما فعل حين ترجم للمتقي لله، فأورد أنَّه: ولد سنة سبع وتسعين ومائتين[1]، وحين ترجم لتقي الدِّين بن أبي اليسر، فذكر أنَّه ولد سنة تسع وثمانين وخمسمائة[2]، وكذلك حين ترجم للمكتفي بالله، فذكر أنَّه ولد سنة أربع وستين ومائتين.

وفي بعض التراجم لا يذكر مكان الولادة ولا تاريخها نهائياً، كما في ترجمة الرقيق الكاتب[3]، وترجمة شرف الدِّين القدسي[4]، وكذلك ترجمة فخر الدِّين بن لقمان[5]، وترجمة ابن لكنك[6].

وفي بعض التراجم يقرن تاريخ ولادة المترجم بحدث معيَّن، كما في ترجمة هشام بن عبد الملك، فذكر أنَّ مولده سنة قتل ابن الزبير - سنة اثنتين وسبعين للهجرة.

2.8.1 ذكر تاريخ الوفاة ومكانها:

أمَّا بالنِّسبة لتاريخ الوفاة ومكانها، فيبدو اهتمام الكتبي بهما - خاصّةً التاريخ - أكثر من مكان الولادة وتاريخها، وقد يكون مردّ ذلك؛ لتوفر المعلومة عن مكان وتاريخ الوفاة أكثر؛ فالأيسر تحديد ما يتعلَّق بالوفاة؛ لأنَّ الأعلام المترجم لهم اشتهروا بعد الولادة حين أصبح لكل واحدٍ منهم شأن، ومن الطبيعي أن تتوفَّر المعلومة عن تاريخ الوفاة بشكل أكثر من تاريخ الولادة، على أنَّه أحياناً لا يعطي تاريخاً محدَّداً ودقيقاً لبعض المترجم لهم - كما سأذكر لاحقا-.

ويمكن أن نجمل الأساليب التي اتَّبعها الكتبي في ذكر تاريخ الوفاة ومكانها على النَّحو التَّالي:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص17.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص170.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص41.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص42، 43.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص43، 44.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص47، 48.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

1- يذكر التاريخ باليوم والشهر والسنة بالإضافة إلى المكان، كما في ترجمة المعتمد على الله، فذكر أنَّه توفي ليلة الاثنين تاسع عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ببغداد[1]، وأيضاً ترجمة علاء الدِّين الجاولي، فذكر أنَّه توفي بدمشق في ثامن ربيع الأول سنة أربع وأربعين وسبعمائة بعلّة الاستسقاء[2]، وأيضاً ترجمة القائم بأمر الله، فذكر أنَّه توفي ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة في مدينة السَّلام[3]، وكذلك ترجمة المنصور، فذكر أنَّه توفي مُحْرِماً على باب مكّة في سادس ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ودفن ما بين الحجون وبئر ميمون[4]، وكذلك ترجمة ابن النَّبيه الشَّاعر، فذكر أنَّه توفي بنصيبين في الحادي والعشرين جمادى الأولى سنة تسع عشرة وستمائة[5]، وترجمة الملك النَّاصر، فذكر أنَّه توفي يوم الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ودفن بالمدرسة المنصورية بين القصرين[6]، وكذلك ترجمة الخليفة الهادي، فذكر تاريخ وفاته بأنَّه ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة[7]، وترجمة الواثق بالله، فذكر أنَّه توفي بسامرا يوم الثلاثاء لخمس بقين من الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين[8].

2- وفي بعض التراجم يذكر السنة والشهر واليوم فقط، كما في ترجمة القادر بالله، فذكر أنَّه توفي ليلة الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة سنة اثنتين

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص65.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص207.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص157.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص216.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص66.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص35.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص173.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص228.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعشرين وأربعمائة[1]، وترجمة الملك النَّاصر صاحب الشَّام، فذكر أنَّه قتل في الخامس وعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وستمائة[2].

3- وفي بعض التراجم يذكر السنة والشهر والمكان، كما في ترجمة المهذب ابن الزبير الملَّقب بالقاضي المهذب، فذكر أنَّه توفي في ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة بمصر[3]، وترجمة ابن برهان النَّحوي، والذي ذكر أنَّه توفي في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وأربعمائة، ببغداد[4].

4- وقد يذكر السنة والشهر فقط، كما في ترجمة الجعبري، فقد ذكر أنَّه توفي في رمضان سنة اثنتين وسبعمائة[5]، وأيضاً ترجمة ابن أيدمر السناني، فأورد أنَّه توفي في ربيع الآخر سنة سبع وسبعمائة[6]، وترجمة المعتضد عبَّاد، فذكر أنَّه توفي في شهر رجب سنة أربع وستين وأربعمائة[7]، وترجمة (دبيران)، فذكر أنَّ وفاته في شهر رمضان سنة خمس وسبعين وستمائة[8]، وكذلك ترجمة مروان بن الحكم، فذكر أنَّ وفاته في رمضان سنة خمس وستين للهجرة[9].

5- وأحياناً نجد الكتبي يورد السنة والمكان فقط، فعندما ترجم لفخر الدِّين ابن لقمان، ذكر أنَّه توفي بمصر سنة ثلاث وتسعين وستمائة[10]، وترجمة شرف الدِّين ابن منقذ، فذكر أنَّه مات بدمشق سنة إحدى وستين وخمسمائة[11]، وكذلك

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص58.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص364.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص337.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص414، 415.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص40.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص214.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص147.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص57.

9: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص126.

10: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص43.

11: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص 178.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حين ترجم لأبي الوليد الباجي، فقد ذكر أنَّه توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة بالمرية بالأندلس[1]، وترجمة موفق الدِّين عبد اللطيف، فذكر أنَّه توفي ببغداد سنة تسع وعشرين وستمائة[2]، وترجمة ابن اللبانة، فذكر أنَّه توفي بميورقة في سنة سبع وخمسمائة[3]، وكذلك ترجمة ابن المصلي الأرمتي، فذكر أنَّه توفي بأرمنت سنة ثلاث وسبعمائة[4].

6- وقد يكتفي بذكر سنة الوفاة فقط كما في ترجمة الشيخ برهان الدِّين الفزاري أنَّ وفاته كانت في سنة تسع وعشرين وسبعمائة[5]؛ فيلاحظ أنَّه ذكر سنة الوفاة فقط، وأيضاً ترجمة ابن هرمة، فذكر أنَّ وفاته كانت سنة خمسين ومائة[6]، وترجمة السفاح عبد الله بن محمَّد بن عبد المطلب، فذكر أنَّه توفي في سنة ست وثلاثين ومائة بالجدري[7]، وكذلك ترجمة النقاش البغدادي، فأورد أنَّه توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة[8]، وترجمة شمس الدِّين الأصفهاني، فذكر أنَّه توفي سنة ثمان وثمانين وستمائة.

وقد يكتفي بذكر مكان الوفاة ولا يشير إلى التاريخ بشكل دقيق كما في ترجمة الحسن بن وهب، فذكر أنَّه مات بدمشق آخر أيَّام المتوكل[9]، أو يكتفي بالقول "توفي في حدود المائة الرابعة أو الخامسة...الخ"[10].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص64، 65.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص385.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص27.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، 231.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص33.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص35.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص215.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص165.

9: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص367.

10: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص39، 164، 392، 402؛ ج2، ص23، 277، 451؛ ج3، ص 104، 352؛ ج4، ص 79، 99، 136، 248.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي بعض التراجم لا يذكر مكان الوفاة ولا تاريخها كما في ترجمة المتيم الإفريقي، فلم يذكر مكاناً، أو أي تاريخ يتعلَّق بوفاته[1]، وترجمة أبي القاسم الدِّينوري الكاتب[2].

ويذكر الكتبي سبب الوفاة أحياناً وكيفيتها، ففي ترجمة أبي جلنك الشَّاعر قال: "نزل من قلعة حلب للإغارة على التتار، فوقع في فرسه سهم، فوقع وبقي راجلاً، فأسروه وأحضر بين يدي مقدم التتار، فسأله عن عسكر المسلمين، فكثرهم وعظم شأنهم، فضرب عنقه"[3]، وفي ترجمة ابن البقي يقول الكتبي:" ولكن أداه إلى الاستخفاف بالقرآن والشَّرع، فضرب القاضي المالكي عنقه بين القصرين"[4]، وكما في ترجمة جمال الدِّين بن غانم، حيث قال: "مرض في مدة عمره مرضاً حاداً مرَّة ونجَّاه الله تعالى منه، ثمَّ إنَّه حصلت له سعلة قرَّحت منها قصبة الرِّئة، وبقي متمرِّضاً من ذلك، يصحّ آونةً ويعتلّ أخرى، إلى أن قضى نحبه"[5]، وذكر أنَّ سبب موت السفاح هو الجدري[6]، والخفاجي عبد الله بن محمَّد بن سعيد بن سنان مات مسموماً[7]، وإذا تعدَّدت الرِّوايات حول كيفية الوفاة يذكرها دون أن يرجِّح أحدها، ففي ترجمة المستعصم بالله قال مخبراً عن كيفيّة موته بأكثر من طريقة: "واختلفوا كيف كان قتله، قيل إنَّ هولاكو لمَّا ملك بغداد أمر بخنقه، وقيل رفس إلى أن مات، وقيل غرق، وقيل لفَّ في بساطٍ وخنق، والله أعلم بحقيقة الحال"[8]. وفي ترجمة الخليفة

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص150، 151.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص178.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص60.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص152.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص206.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص215.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص220.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص231.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهادي يشكِّك في كيفية مقتله، حيث يقول: "يقال إنَّ أمّه الخيزران سمَّته لأنَّه طالب أخاه الرَّشيد أن يخلع نفسه من العهد ويقدِّم ولده"[1].

ويذكر الكتبي في مواضع عديدة مكان دفن المترجم له وأثر وفاته في الناس؛ فيقول عن ابن هرمة موضِّحاً مكانته في مجتمعه من خلال ذكر عدد من شيعه: "لقد مات وما يحمل جنازته إلا أربعة نفر لا يتبعهم أحد، حتى دُفن بالبقيع"[2]، بينما يقول عن الشَّيخ تاج الدِّين الفركاح: "دفن بمقابر باب الصغير، وشيَّعه الخلق وتأسَّفوا عليه"[3]، ويذكر في ترجمة أبي صالح الجيلي كيف كانت جنازته وكيف دفن أكثر من مرة؟: "وكانت جنازته عظيمة، ودفن إلى جانب قبر الإمام أحمد بن حنبل، وقيل بل دفن معه، تولَّى ذلك الرعاع والعوام، وقبض على من فعل ذلك وعوقب وحبس، ونبش بعد ثلاثة أيَّام ونقل وعفي قبره ولم يعلم أين دفن"[4].

3.8.1 الصِّفات الخُلقية والخَلقية:

تحدَّث الكتبي كثيراً عن الصِّفات الخَلقيّة والخُلقيّة للذين ترجم لهم، سواء أكانت هذه الصِّفات تسجَّل للمترجم له، أم تسجَّل عليه، على أنَّنا نجد في ثنايا تراجمه الحديث عن الصِّفات الايجابية أكثر من الحديث عن الصِّفات السلبيّة؛ فعندما ترجم للأمير تنكز نائب الشَّام ذكر أنَّه: "كان أبيض إلى السمرة، رشيق القدّ، مليح الشَّعر، خفيف اللِّحية، قليل الشَّيب، حسن الشَّكل"[5]، ويقول الكتبي عن الشِّيخ برهان الدِّين الفزاري في إطار حديثه عن صفاته الخَلقية: "نحيف الجسم أبيض حلو الصورة رقيق البشرة معتدل القامة"، ثمَّ يتبع ذلك ببعض صفاته الخُلقية فيقول: "كان فيه رفق ورحمة، يكره الفتن ولا يدخل فيها، وله جلالة ووقع في النُّفوس"[6]، ويسرد في أثناء

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص174.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص35.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص264.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص193.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص215.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص33.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ترجمته للمنصور بعض صفاته الخَلقية: "كان أسمر طويلاً نحيفاً خفيف العارضين، مفرق الوجه رحب الجبهة، يخضب بالسَّواد كأنَّ عينيه لسانان ناطقان، يخلط أبهة الملك بزي النسَّاك، تقبله القلوب وتتبعه العيون، وكان من أفراد الدَّهر حزماً ودهاءً وجبروتاً حريصاً على جمع المال"[1]، وذكر في ترجمة ابن أسد المصري: "أنَّه شيخ ماجن متهتّك ظريف خليع، ويشبب في المجالس على القيان"[2]، كما ذكر عن أبي سعيد المستنجدي، أنَّه كان "سمحاً كريماً حسن السيرة وافر الحشمة شجاعاً حليماً"[3].

9.1 **التكوين الثَّقافي للمترجم له**:

ليس من السَّهل الحديث بإسهابٍ عن البناء الثقافي للأعلام الذين ترجم لهم الكتبي، فهم ينتمون إلى عصور مختلفة، كما ينتمون إلى أقطار إسلامية متعدِّدة، بالإضافة إلى تعدُّد الوظائف والمهام التي كان يقوم بها هؤلاء الأعلام، فبعضهم خليفة، وبعضهم وزير، وآخر والٍ، ورابع فقيه أو محدث أو قاضٍ...، لذا، فإنَّ الحديث هنا سينصبُّ على الأعلام بشكلٍ عام، ولن أتحدَّث عن الأعلام منفردين، وإنَّما سأحاول أن أقف عند الأطر العامّة المشتركة بينهم، والمكوّنات العامّة لثقافتهم، وهي في المجمل لا تكاد تخرج عن الركائز الآتية إلاَّ في حالات نادرة.

يكشف لنا الكتبي عن الجانب العلمي والثقافي والاجتماعي وحتى السياسي للمترجم له من خلال حديثه عن عدة محاور، لعل أهمها وأكثرها تكرارا في التراجم: ذكر شيوخ المترجم له، ذكر مصنفاته، و ذكر تلاميذه و الوظائف والمناصب التي شغلها، والحديث عن رحلاته التي قام بها لبلدان مختلفة طلبا للعلم أو للقيام بوظيفة تسند إليه.

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص216.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص100.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص129.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

1.9.1 شيوخ المترجم له:

يتحدَّث الكتبي عن شيوخ المترجم له في أغلب التراجم ممَّا يقدِّم لنا صورة عن العلوم التي تلقَّاها المترجم له، خاصَّة إذا ما علمنا منزلة الشَّيخ العلميّة الذي تلقَّى المترجم له علومه عنده، وبالتَّالي يفصح لنا عن المخزون العلمي والثقافي لتلك الشخصية، والكتبي في هذا الإطار لم يسر على نهجٍ واحدٍ، فقد يسهب في ذكر شيوخ المترجم له، كما في ترجمة البلاذري، حيث قال: "سمع بدمشق هشام بن عمار وأبا حفص ابن عمر بن سعيد، وبحمص محمَّد بن مصفى، وبالعراق عفَّان بن مسلم، وعبد الأعلى، وعبدالله بن صالح العجلي، ومصعباً الزبيري، والقاسم بن سلام، وعثمان بن أبي شيبة"[1]، وكما في ترجمة أبي الوليد الباجي، فقد قال الكتبي مبيِّناً العلوم التي درسها والشيوخ الذين تتلمذ عليهم: "أخذ الفقه عن أبي الطيِّب الطبري، وأبي إسحاق الشيرازي، وأقام بالموصل سنة يأخذ علم الكلام عن أبي جعفر السمناني"[2]، وفي ترجمته لشيخ تاج الدِّين الفركاح، أورد له الكثير من الشيوخ، فقد قال: "سمع من ابن الزبيدي، وابن المنجا، وابن اللتي، ومكرم بن أبي الصقر، وابن الصلاح، والسَّخاوي، وتاج الدِّين ابن حموية"[3]، وفي ترجمة الشيخ مجد الدِّين ابن الظهير الإربلي، ذكر عدداً من الشيوخ مشكِّكاً في سماعه لأحدهم فيقول: "وسمع ببغداد في الكهولة من أبي بكر ابن الخازن والكاشغري، وبدمشق من السخاوي وكريمة وتاج الدِّين ابن حمويه وتاج الدِّين ابن أبي جعفر، وقيل إنَّه سمع من ابن اللتي"[4].

وفي بعض التراجم يختصر الكتبي شيوخ المترجم له ولا يذكر منهم إلاَّ القليل، كما في ترجمة الملك النَّاصر داود، حيث قال الكتبي: "سمع ببغداد من القطيعي وغيره، وبالكرك من ابن اللتي"[5]، ونجده يختصر شيوخ القاضي نجم الدِّين

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص155.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص64.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص263.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص301.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص429.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن البارزي، حيث قال: "سمع من القاسم بن رواحة وغيره"[1]، ونجد مثالاً على الدُّرة في ذكر شيوخ المترجم له في ترجمة رشيد الدِّين الفارقي، حيث قال: "سمع من الزبيدي وابن باقا وغيرهما"[2]، وكما في ترجمة الحافظ ابن بكار، حيث قال: "سمع من ابن البن وغيره"[3].

وفي القليل من التراجم يذكر الكتبي أنَّ المترجم له قد سمع دون أن يعرض لاسم شيخ من الشيوخ الذين سمع منهم المترجم له، كما جاء في ترجمة ابن الشقيشقة الصَّفَّار، فقد اكتفى الكتبي بالقول: "سمع وعني بالحديث"[4].

2.9.1 آثار المترجم له ومصنفاته:

وهذا الجانب لا يقلُّ شأناً عند الكتبي عن جانب ذكر شيوخ المترجم لهم، فقد عني الكتبي بذكر كتب المترجم لهم في مواطن عديدة، وقد نهج الكتبي في ذلك أكثر من نهج، حيث كان أحياناً يذكر الكثير من مصنَّفات المترجم له معلِّقاً على بعضها تعليقات بسيطة، مثل بيان حجم المصنف، أو بيان ما يحويه هذا المصنف، أو الأخبار بعدم الانتهاء من تأليفه...الخ، أو يذكر القليل منها ويهمل الأخرى، وأحياناً نجده لا يذكر من هذه المصنَّفات شيئاً مكتفياً بالقول: "وله التصانيف".

ونجد الكتبي في ترجمة الشيخ تقي الدِّين ابن تيمية ذكر الكثير من آثاره، بل أسهب في ذلك واستغرق تعداد المصنَّفات ست ورقات[5]، وكذلك في ترجمة إبراهيم الحربي، فقد ذكر الكثير من المصنفات[6]، ونجد الكتبي أكثر من ذكر التَّصانيف في

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص306.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص130.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص340.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص185.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص76-80.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص 16.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ترجمة أبي الفضائل الصَّاغاني، فقد ذكر له الكثير من مصنَّفاته[1]، وأورد الكثير من المصنَّفات في تراجم كل من: الحافظ ابن النجار[2]، وأثير الدِّين أبي حيان[3].

وفي بعض التراجم يكتفي بذكر بعض هذه المصنَّفات، كما في ترجمة سهل ابن هارون، حيث قال: "وله مصنَّفات كثيرة تدلُّ على بلاغته وحكمته، مثل كتاب ثعلة وعفرة على مثال كليلة ودمنة، وغير ذلك من الكتب"[4]، وكذلك ترجمة المنشئ الإربلي، حيث قال: "ولبهاء الدِّين مصنَّفات أدبيّة مثل "المقامات الأربع"، و "رسالة الطيف" المشهورة، وغير ذلك"[5]. وكذلك في ترجمة زين الدِّين ابن الوردي، حيث قال ذاكراً بعض كتبه: "ومن مصنَّفاته (البهجة الورديّة في نظم الحاوي) فوائد فقيه منظومة، و(شرح ألفية ابن مالك)، و (ضوء الدرة على ألفية ابن مطي) قصيدة (اللباب في علم الإعراب) وشرحها، اختصار (ملحة الإعراب) نظماً، و (ذكرة الغريب) نظماً وشرحاً، و (المسائل المذهبة في المسائل الملقبة)، و (أبكار الأفكار)، و (تتمة تاريخ صاحب حماة)، و (أرجوزة في تعبير المنامات)، و (أرجوزة في خواص الأحجار)، و (منطق الطير) نظماً"[6]. وفي ترجمة الجعبري، ذكر بعض المصنَّفات على الرّغم أنّه ذكر في نهاية حديثه عن مصنَّفاته أنها تقارب المائة[7]. وفي ترجمة ابن اللبانة يقول الكتبي ذاكراً بعض كتبه: "وله كتاب (مناقل الفتنة) و (نظم السلوك في وعظ الملوك) و (سقيط الدُّرر ولقيط الزَّهر) في شعر بني عباد"[8].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص359 و360.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص37

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص 78.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص84.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص57.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 3، ص160.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 1، ص40.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص27.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد يهمل ذكر أي من هذه المصنَّفات كما في ترجمة ابن المنير مكتفياً بالقول: "وله مصنَّفات مفيدة"[1]، وكذلك ترجمة جعفر بن قدامة، فقد قال: "وله مصنَّفات في الكتابة وغيرها"[2]، ونجد مثل ذلك في ترجمة أبي القاسم الدِّينوري الكاتب، حيث قال: "له مصنَّفات وشعر رائق"[3]، ومثل ذلك في ترجمة فخر الدِّين ابن عساكر، فقد قال: "وصنف في الفقه والحديث مصنَّفات"[4]، وفي ترجمة ابن مواهب البغدادي، حيث قال: "وله مصنَّفات أدبية " [5]، وفي ترجمة ابن الجرَّاح الكاتب، حيث قال: "كان كاتباً عارفاً بأيَّام الناس وأخبارهم ودول الملك، له في ذلك مصنَّفات" [6]، وكما في ترجمة مهذب الدِّين ابن الخيمي، فقد قال الكتبي: "وله مصنَّفات كثيرة "[7].

3.9.1 تلاميذ المترجم له:

يذكر الكتبي تلاميذ المترجم له في كثير من التراجم – إنْ كان ممَّن له تلاميذ -، وقد راوح الكتبي في هذا الأمر بين الإكثار من ذكر التلاميذ والإقلال، ويتعدَّى الكتبي أحياناً ذكر التلاميذ إلى بيان تأثير المترجم له في التلاميذ وأهل العلم عامّة، مقدِّماً بذلك صورة للمكانة العلميّة للمترجم له.

ومن الشَّواهد على إكثاره من ذكر تلاميذ المترجم له ما نعثر عليه في ترجمة محيي الدِّين بن عبد الظاهر، حيث قال: "وكتب عنه البرزالي وابن سيد الناس وأثير الدِّين والجماعة"[8]، وفي موقعٍ آخر يعدِّد تلاميذ صفي الدِّين بن شكر مبيِّناً أخلاقه

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص149.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص289.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص178.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص290.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص238.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص353.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص441.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص179.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معهم ومع عموم أهل العلم، حيث قال: "وروى عنه الزكي المنذري والشّهاب القوصي، وكان مؤثراً لأهل العلم والصالحين كثير البرّ لهم، لا يشغله ما هو فيه من كثرة الأشغال عن مجالستهم ومباحثتهم"[1]. وكذلك نجده يذكر الكثير من تلاميذ الشيخ تاج الدِّين الفركاح، عندما قال: "وسمع منه ولده الشيخ برهان الدِّين وابن تيمية والمزي والقاضي ابن صصرى وكمال الدِّين ابن الزملكاني وابن العطار وكمال الدِّين ابن قاضي شهبة وعلاء الدِّين المقدسي وزكي الدِّين زكرى وغيرهم، وخرج من تحت يده جماعة من القضاة والمدرسين والمفتين"[2]. ونجده أيضاً في ترجمة ابن حواري الحنفي يعدِّد من روى عنه، فقد قال: "وروى عنه الدمياطي وابن الجناز والدواداري وقاضي القضاة ابن صصرى وآخرون"[3].

وفي سياق إقلاله من تلاميذ المترجم له، نجده يقول في ترجمة علوان الأسدي: "سمع منه سلمان الشحام"[4]، وكما في ترجمة علاء الدِّين الشَّاعر المنجم، فقد قال: "أخذ عنه الدمياطي وغيره، وسمع منه البرزالي"[5]، وفي ترجمة أبي العرب الصقلي، يذكر القليل ممَّن روى وأخذ عنه، حيث قال: "روى عن ابن عبد البرّ، أخذ عنه أبو علي ابن غريب (أدب الكاتب) لابن قتيبة"[6].

4.9.1 رحلات المترجم له، والبلاد التي زارها:

من المعروف أنَّه لا بُدَّ لمن أراد العلم والتَّعلُّم الارتحال والتِّجوال في البلدان والأمصار المختلفة؛ للحصول على ما يبتغي من علوم ومعارف، خاصّةً إذا ما اشتهرت بعض هذه البلدان بشيوخ ذاع صيتهم في أرجاء المعمورة قاطبة، وهذا ما كان حينذاك، فقد كان من الطبيعي أن يقصد طلبة العلم هذه البلدان وشيوخها، ويذكر

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص193.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص263.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص186.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص458.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص95.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص144.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كذلك الكتبي رحلات المترجم لهم العملية التي كانت بقصد تسلُّم منصبٍ أو عملٍ ما، ومن هذا المنطلق، دأب الكتبي على الحديث عن الرِّحلات التي قام بهـا أصـحاب التراجم (المترجم لهم)، والبلدان التي دخلوها محاولاً في ذلك إضاءة جانبٍ من البعد الثقافي والسياسي والاجتماعي عن صاحب الترجمة، وتسليط الضوء علـى مكانتـه الاجتماعيّة والعلميّة ودوره الذي اضطلع به وقتذاك.

ومن التراجم التي ذكر فيها رحلات المترجم له ترجمة جمـال الـدِّين ابـن النجار، حيث قال عنه: "وسافر إلى حلب وبغداد، وكتب للأمجـد صـاحب بعلبـك، وسافر إلى الإسكندرية، وتولَّى نقابة الأشراف بها، وسمع بدمشق من التاج الكنـدي وغيره"[1]، وكذلك في ترجمة مجد الدِّين النشابي؛ حيث قال: "ثمَّ تنقَّل فـي الجزيـرة والشَّام"[2]، وكذلك في ترجمة أبي البدر الإسكافي، حيث قال الكتبي عنه: "وتنقَّل فـي الولايات، وصحب أبا محمَّد ابن الخشَّاب النَّحوي مدّة، وقرأ عليـه، وعلَّـق عنـه تعاليق، وحجَّ وجاور بمكّة، ثمَّ صار إلى الشَّام، وأقام بحلب مدّة، ثمَّ انتقل إلى مصر وسكنها إلى أن مات"[3]. ونجد مثل هذا الحديث عن الرِّحلات في ترجمـة الجليـاني، حيث ذكر من والى أين رحل؛ حيث قال: "رحل من الأندلس ودخل بغداد"[4]. وكمـا في ترجمة علم الدِّين البرزالي، حيث قال: " وذهب إلى بعلبك، وارتحل إلى حلـب

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص18.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص165.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص342.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص407.
5 : الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص196.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص248.
7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص347.
8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص14.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سنة خمس وثمانين، وفيها ارتحل إلى مصر"[1]. وكذلك في ترجمة ابن الصَّابوني الإشبيلي، فقد قال عنه: "ذهب إلى المشرق فتوفي بالإسكندرية وهو طالب مصر سنة أربع وثلاثين"[2]. وكذلك ترجمة السَّابق، حيث قال: "ودخل الريّ وأصفهان ولقي ابن الهبارية الشَّاعر"[3]. وكما في ترجمة الشيخ صدر الدِّين ابن الوكيل؛ حيث قال: "ولِّي مشيخة دار الحديث الأشرفية سبع سنين، وجرت له أمور وتنقلات، وكان مع اشتغاله يتنزَّه ويعاشر، ونادم الأفرم نائب دمشق، ثمَّ توجَّه إلى مصر وأقام بها إلى أن عاد السلطان من الكرك سنة تسع وسبعمائة، فجاء بعد ما خلص من واقعة الجاشنكير، فإنَّه نسب إليه منها أشياء، وعزم الصَّاحب فخر الدِّين ابن الخليلي على القبض عليه تقرُّباً إلى خاطر السُّلطان، فلمَّا أحسَّ بذلك فرَّ إلى السُّلطان على طريق البدرية، ودخل على السُّلطان وهو بالرّمل، فعفا عنه، وجاء إلى دمشق وتوجَّه إلى حلب وأقرأ بها ودرس وأقبل عليه الحلبيون إقبالاً زائداً"[4]، وكذلك في ترجمة الحافظ ابن النجار، حيث قال: "وله الرحلة الواسعة إلى الشَّام ومصر والحجاز وأصبهان وخراسان ومرو وهراة ونيسابور"[5]. وفي ترجمة الخازن الشافعي، يقول: "سافر" إلى العراق والشام وسكن بغداد"[6].

5.9.1 الوظائف والمناصب التي تبوَّءها المترجم لهم:

أشار الكتبي في مواطن عديدة إلى الوظائف والمناصب التي تبوَّءها المترجم لهم، والى الإعمال الكبيرة التي قاموا بها؛ وذلك للكشف عن مكنون الشخصية أكثر والدور الذي لعبته في حينه؛ ففي ترجمة شرف الدِّين المقدسي يقول عنه: "درس بالشامية الكبرى، وناب في الحكم عن الخويي، وكان من طبقته، وولِّي دار الحديث

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص14.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص284.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص347.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص14.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص36.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص335.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النورية، ثم ولي خطابة الجامع الأموي"[1]، وكذلك في ترجمة عون الدِّين ابن العجمي، يقول عنه الكتبي: "ولي الأوقاف بحلب وتقدَّم عند الملك النَّاصر وحظي عنده وولي نظر الجيوش بدمشق، وكان متأهِّلاً للوزارة كامل الرياسة لطيف الشمائل[2]". وفي ترجمة أبي الفضل الحوراني يشير الكتبي إلى منصبه، حيث يقول "وناب في القضاء لابن صصرى مدة"[3]، وقال عن سبط ابن عبد الظهر:" كان يباشر الإنشاء بمصر زماناً إلى أن أضر"[4]، وفي ترجمة قاضي القضاة ابن صصرى يقول الكتبي عنه: "تولى قضاء العسكر ومشيخة الشيوخ، ثمَّ ولي قضاء القضاة سنة اثنتين وسبعمائة إلى أن مات رحمه الله[5]"، وفي ترجمة ابن الشريشي قال عنه الكتبي: "وكيل بيت المال بدمشق، وشيخ دار الحديث الاشرفية ومدرس الناصرية، ترشَّح لقضاء القضاة بالشام[6]"، وفي ترجمة عون الدِّين ابن العجمي، قال عنه: "ولِّي الأوقاف بحلب وتقدَّم عند الملك الناصر وحظي عنده وولي نظر الجيوش بدمشق، وكان متأهِّلاً للوزارة كامل الرياسة لطيف الشمائل"[7]، وقال عن جمال الدِّين ابن شيث في ترجمته: "صاحب ديوان الإنشاء للملك المعظم عيسى، ولي الديوان بقوص ثمَّ بالإسكندرية ثمَّ بالقدس، ثمَّ ولي كتابة الإنشاء للمعظم" [8]. ونجده في ترجمة البدر ابن جماعة يذكر وظائفه على النَّحو التَّالي: "ولِّي خطابة القدس، ثمَّ طلبه الوزير ابن السلعوس فولاه قضاء مصر، ورفع شأنه، ثمَّ حضر إلى الشام قاضياً وولِّي خطابة الجامع الأموي مع القضاء، ثمَّ طلب لقضاء مصر بعد ابن دقيق العيد"[9]. وقال عن

1: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص57.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص66.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص82.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص93.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص126.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص120، 121.

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص67.

8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص312.

9: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص297.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كمال الدِّين ابن الزملكاني معدِّداً وظائفه التي باشـــرها: "ودرس بالـــشَّامية البرانيـــة والظاهرية والرواحية، وولِّي نظر ديوان الأفرم، ونظر الخزانة ووكالة بيت المـــال، وكتب في ديوان الإنشاء ووقَّع في الدست، وله الإنشاء الجيد والتواقيع المليحة. نقـــل إلى قضاء القضاة بحلب ومدارسها، فأقام بها أكثر مـــن ســـنتين واشـــتغلوا عليـــه الحلبيون، ثمَّ إنَّ السُّلطان طلبه من حلب ليوليه قضاء دمشق لمَّا نقل قاضي القـــضاة جلال الدِّين القزويني إلى مصر"[1].

6.9.1 **الاهتمام بالشِّعر**:

كان الكتبي في سياق تراجمه للأعلام معنيَّاً بإيراد نماذج من أشعارهم، ويأتي في مقدِّمة الأغراض الشِّعرية "الغزل"؛ فلا تكاد تخلو ترجمة من هذا الغرض، ولعلَّ الكتبي قد جرى في ذلك أرضاء للذَّوق العام - خاصة-، أو لعلَّـــه قـــد وجـــد فـــي مصادره المختلفة أنَّ غالبية الشِّعر هو شعر الغزل، علاوة على أنَّ أكثـــر الـــشُّعراء يتَّجهون صوب هذا الغرض إذا ما أرادوا شهرة وذيوعاً لصيتهم، وبالتالي كان مـــن الطبيعي أن يجد الكتبي أكثر هذا الشِّعر شعر غزل. كما أنَّني لا اســـتبعد أن يكـــون الكتبي قد عاش في فترة صباه قصة غراميّة لم يصل إلينا أخبار عنها، فكـــان ذلـــك مدعاة لكثرة هذا الغرض في كتابه.

والشِّعر الذي اختاره الكتبي في تراجمه يأخذ في الأغلب شكل المقطوعـــات، وهذه المقطوعات إمَّا إن تكون قد اختيرت من قصائد طويلة، أو أنَّهـــا مقطوعـــات أصليّة، وقد تراوحت كميّة الأشعار التي كان يوردها الكتبي في سياق تراجمه، فتارةً يورد مقطوعات وقصائد متعدِّدة للمترجم له، كما في ترجمة ابن نفادة[2]، والـــشّهاب العزازي[3]، والحمدوني[4]، ومجير الدِّين ابن تميم[5]، والنـــصير الحمـــامي[6]، وراجـــح

1: الكتبي، **فوات الوفيات**،، ج4، ص8.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص84.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص95.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص173.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص54.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص205.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحلي[1]، فقد أورد لهم أشعاراً في الغـزل والمـدح والرثـاء والوصـف والـشعر الاجتماعي وغيره.

وأحياناً يورد نماذج قليلة من شعر المترجم له، مع أنَّه يشير في ترجمته إلـى أنَّه كان شاعراً مكثراً، أو محـسناً، كمـا فـي ترجمـة جمـال الـدِّين الاربلـي (ت679هـ)[2]، الذي لم يورد له سوى مقطوعة تتكوَّن من أربعةِ أبياتٍ من الـشِّعر، على الرّغم من أنَّه ذكر في ترجمته أنَّ له شعراً كثيراً، فلا يعقل أن يقتصر شـعره على أربعة أبيات، بالإضافة إلى أنَّ جمال الدِّين الأربلي (ت679هـ)، قريب العهـد بالكتبي، وكان جدير به أن يذكر له أكثر ممَّا ذكر بكثير.

وكذلك يورد لأبي المعالي الواعظ[3] بيتين من الشِّعر، مع أنَّه ذكر في ترجمته أنَّ له معرفة بالأدب، أضف إلى ذلك أنَّه عندما أورد البيتين أوردهما بصيغة "ومـن شعره" دلالة على أنَّ له شعراً.

وقد لا يذكر الكتبي أي بيت من الشِّعر لصاحب الترجمة كما في ترجمة أبـي اليسر كاتب نور الدِّين، الذي قال عنه في ترجمته: "كان أديباً فاضلاً جلـيلاً ذكيـاً شاعراً"[4]، كما نلاحظ بالرّغم من حديثه عن المترجم له بأنَّه شاعرٌ، إلاَّ أنَّه لم يـأتِ ولو ببيتٍ واحدٍ من الشِّعر. وكما في ترجمة ابن الفوطي، والذي لم يذكر له أي بيت على الرّغم من قوله عنه: "وله شعر كثير بالعربي والعجمي"[5]، وحديثه عنه في بداية الترجمة أنَّه اشتغل بالنَّظم والآداب.

وقد سلك الكتبي اتِّجاهين في إيراد الشِّعر في كتابه (فوات الوفيات):

الاتجاه الأول: إيراد الشِّعر دون مناسبة أو إشارة إلى الجو العام الذي قيل فيه وهـو الأكثر وروداً وتكراراً في الكتاب؛ وكان يورده بعدّة أساليب، ومن هـذه الأسـاليب على سبيل المثال لا الحصر: استخدام الفعل "**وقال**"... **ثم يورد الـشعر**، كمـا فـي

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص7.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص130، 131.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص133.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص 96.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص320.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ترجمة الماهر الحلبي، فذكر له عدّة أبيات، ثمَّ أردف له بيتين على النَّحـــو الآتـــي: "وقال:

أمُوجِبَةُ الدَّعْوَى عَلَيهَا وَلا تَفِـــي وَسَامِعَةُ الشَّكْوَى إِلَيْهَا وَلا تَشْكِي
أظنّ الأسى والدمع لا يبقيان لي فؤاداً به أهوى وعيناً بها أبكـــي[1]

ومن الأساليب التي استخدمها الكتبي في إيراد الـشِّعر دون مناسـبةٍ تـذكر الصيِّغة الآتية " **وقال أيضا... ثمَّ يورد الشِّعر**"، كما في ترجمة المعمار، فأورد لـــه أبيات كالآتي: "وقال أيضاً:

لَمَّا جَلُوا لِي عَرُوساً لَسْتُ أَطْلُبُهَا قَالُوا لَيْهَنَك هَذَا العُرْسُ وَالزِّينَهْ
فَقُلْتُ لَمَّا رَأَيْـتُ النَّهْـدَ مُنْتَفِـشَاً رُمَّانَةٌ كَتَبتْ يَا لَيْتَهَـا تِيْنَـهْ[2]".

ونجدُ أيضاً الأسلوب التَّالي في (فوات الوفيات) لدى الكتبي في سياق إيـراد الشِّعر دون مناسبة "**وله... ثم يورد الشعر**"، كما في ترجمة ابن ورقـاء الـشيباني، فبعد أن ذكر له بعض الأبيات قال "وله:

هَزَزْتُكَ لا أَنِّـي عَلَمْتُـكَ نَاسِـياً لِحقِّـي وَلا أَنِّـيْ أَرَدْتُ التَّقَاضِـيَا
وَلَكِنْ رَأَيْتُ السَّيْفَ مِنْ بَعْدِ سَـلِّهِ إِلى الهَزِّ مُحْتَاجاً وَإِنْ كَانَ مَاضِيَاً[3]".

واستخدم الكتبي الأسلوب الآتي في إيراد الشعر "**ومن شـعره... ثـمَّ يـورد الشِّعر**"، ونجد هذا الأسلوب في الكثير من التراجم كما في ترجمة: الجعبـري، فقـد أورد له الشِّعر على النَّحو الآتي:

"ومن شعره:

أَضَاءَ لَهَا دُجَى اللَّيْـلِ البَهِـيْمِ وَجَدَّدَ وَجْـدَهَا مَـرُّ النَّـسِيْمِ
فَرَاحَتْ تَقْطَعُ الفَلَـوَاتِ شَـوْقَاً مُكَلَّفَـةً بِكُـلّ فَتَـىً كَـرِيمِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص108، وللاستزادة، انظر: ج2، ص94.

2 : الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 1، ص51، وللاستزادة، انظر: ج2، ص212، ج4، ص390.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص295، وللاستزادة، انظر: ج2، ص429 و430.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَقَـــالُوا لا نَـــرَى فِيهـــا أَنِيـــسَاً سِوَى نَجْمٍ وغُصْنِ نَقاً وَرِيـــمِ
نِيَـــاقٌ كالحَنَايَـــا ضَـــامِرَاتٌ يُحَاكِي لَيْلُها لَيْـــلَ الـــسَّلِيمِ[1].

ويعتمد الكتبي من هذه الأساليب الأسلوب التالي: "**ومنه... ثمَّ يورد الـــشعر**" كما في ترجمة ابي الفضل الدمشقي، حيث ذكر له مقطوعة من الـــشِّعر ثـــمَّ قـــال: "ومنه:

للهِ يَـــوْمُ سُـــرُورٍ قَـــدْ نَعِمْـــتُ بِـــهِ فِيهِ عَلى الـــرَّاحِ والرَّيْحَـــانِ مُعْتَكِـــفٌ
وَالكأْسُ كَالبَدْرِ فِي لَيلِ الكُسُوفِ إذن قَدِ انْجَلَى بَعضهُ والبَعْضُ مُنْكَـــشِفُ"[2].

ويأتي الكتبي أيضاً بالشِّعر بالاعتماد على الأسلوب الآتي: "**وله أيضاً... ثـــمَّ يورد الشعر**"، كالذي نجده في ترجمة المعمار، فقال الكتبي قبل أن يورد له بعـــض الشِّعر: "وله أيضاً:

عَاتَبْتُ أَيْرِي إِذْ جَاءَ مُلْتَثِمَـــاً بِالخَرْءِ مِنْ علقِهِ فَمَا اكْتَرَثَا
بَلْ قَالَ لِي حِينَ لِمْتُهُ: قَسَماً مَا جِزْتُ حَمامَ قَعْرِهِ عَبَثَـــا
كَيفَ وفِيهَا طَهَارَتِي وَبِهَـــا أَقْلِبُ مَاءً وَأَرْفَعُ الحَـــدَثَا[3]".

ولا بُدَّ من القول إنَّ الكتبي لم يلزم نفسه استخدام أسلوب واحد من الأســـاليب المذكورة سابقاً لكل شاعر، لا بل على العكس، فقد نجده يذكر الشِّعر للمتـــرجم لـــه بواسطة بعض هذه الأساليب مجتمعة، والأساليب المذكورة سابقاً هي الأكثر تكـــراراً في التراجم، علماً بأنَّ هنالك أساليب أخرى ولكنها لم تستخدم كثيراً مثل: الأســـلوب "وقال من قصيدة"[4]، ثمَّ يذكر بعد ذلك الأبيات الشِّعرية والأسلوب "وقال من أبيات"[5]، ثمَّ يأتي بالأبيات الشِّعرية وغيرها.

الاتجاه الثاني: وهو إيراد الشِّعر مرتبطاً بمناسبة، أو أمرٍ ما، وهذا الاتجاه أقل مـــن الاتجاه الأول، وقد تنوَّعت المناسبات التي جاء بها هذا النَّوع من الشِّعر:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص40، وللاستزادة، انظر: ج3، ص345.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص287، وللاستزادة، انظر: ج2، ص245.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص 51، وللاستزادة، انظر: ج3، ص325.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص،؛ ج4، ص290.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص12.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

1- قد يورد الشعر في سياق المراسلات التي تتمُّ بين الشُّعراء، كما في ترجمة الشّهاب العزازي؛ فعندما كتب شهاب الدِّين العزازي إلى ناصر الدِّين ابن النقيب ملغزاً في شبابه وأحسن[1]:

وَمَا صَفْرَاءُ شَاحِبَةٌ وَلَكِنْ ... يَزِينُها النَّضَارَةُ والشَّبَابُ
مُكَتَّبَةٌ وَلَيْسَ لَهَا بَنَانٌ ... مُنَقَّبَةٌ وَلَيْسَ لَهَا نِقَابُ
تُصَيِّخُ لَهَا إِذَا قَبَّلْتَ فَاهَا ... أَحَادِيثًا تَلَذُّ وتُسْتَطَابُ
وَيَحلُو المَدحُ والتَّشْبِيبُ فِيهَا ... وَمَا هِيَ لا سُعادٌ وَلا رَبَابُ

فأجابه ناصر الدِّين ابن النَّقيب:

أَتَتْ عَجَمِيَّةٌ أعرَبِتْ عَنهَا ... لِسَلمانَ يَكونُ لَهَا انْتِسَابُ
وَيُفْهَمُ مَا تَقُولُ وَلا سُؤَالُ ... إِذَا حَقَّقْتَ ذَاكَ وَلا جَوَابُ
يَكَادُ لَهَا الجَمَادُ يَهِزُّ عَطْفَاً ... وَيَرْقُصُ فِي زُجَاجَتِهِ الحُبَابُ

وكما في ترجمة الملك الأمجد، فذكر أن الشيخ تاج الدِّين الكندي كتب للأمجد الأبيات التالية[2]:

لا تَضَجِرَنَّكُمْ كُتُبِي وَإِنْ كَثُرَتْ ... فَإِنَّ شَوْقِي أَضْعَافُ الذِي فِيهَا
واللهُ لَوْ مَلَكَتْ كَفِّي مُسَالَمَةً ... مِن اللَّيَالِي التِي حَظِّيَ يُحَاكِيهَا
لَمَا تَصَرّمُ لِي فِي غَيرِ دَارِكُمْ ... عُمْراً وَلا مُتُّ إِلاَّ فِي نَوَاحِيْهَا

فأجابه الأمجد:

إِنَّا لَتَتْحُفُنَا بِالأُنْسِ كُتْبُكُمُ ... وَإِنْ بَعِدْتُمْ فَإِنَّ الشَّوْقَ يُدْنِيهَا
وَكيفَ نَضْجُرُ مِنْهَا وَهِيَ مُذْهَبَةٌ ... مِنْ وَحْشَةِ البَيْنِ لَوْعَاتٌ نُعَانِيهَا
فَإِنْ وَصَفْتُمْ لَنَا فِيهَا اشْتِيَاقَكُمْ ... فَعِنْدَنَا مِنْكُمُ أَضْعَافُ مَا فِيْهَا
سَلُوا نَسِيمَ الصَّبَا يَهْدِي تَحِيَّتَنَا ... إِلَيْكُمْ فَهُوَ يَدْرِي كَيْفَ يَهْدِيْهَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص97.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص227، وللاستزادة، انظر: ج4، ص338.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الشِّعر المذكور المرتبط بمناسبة ما، عدّة أبيات في ترجمة أبـــي جلنـــك الشَّاعر، حيث ذكر أنَّه نظمها لغز في مسعود:[1]

اسمُ الذي أهـــوَاهُ فـــي حُروفِـــهِ مَسألَةٌ فـــي طيِّهـــا مَـــسائِلُ
خُمسَاهُ فِعلٌ وَهوَ فِـــي تَـــصْحِيفِهِ مبينٌ والعكـــسُ سِـــمٌّ قَاتِـــلُ
تُضيءُ بَعْدَ العَصْرِ أنْ جِئتَ بِـــهِ مُكرّراً مِن عَكْسِكَ المَنَـــازِلُ

ومن الأمثلة على الشِّعر المرتبط بمناسبة ما، ما ورد في ترجمة جمال الدِّين الشَّاعر، حيث يقول الكتبي: "وله وقد وقع مطر كثير يوم عاشوراء:

يَومَ عَاشُورَاءِ جَادَتْ بالحَيَا سُـــحُبٌ تَهطِـــلُ بالـــدَّمْعِ الهَمُـــوْلِ
عَجَباً حَتَّى السَّمواتُ بَكَـــتْ رُزْءَ مَولايَ الحُسينِ ابنِ البَتُـــولِ[2]"

2- وقد يروي الشِّعر سماعاً من خلال مناسبة تتعلَّق به شخصياً، كما فـــي ترجمـــة السروجي، حيث أورد[3]: "أنشدني القاضي علم الدِّين ابن إبراهيم مستوفي الـــشَّام رحمه الله تعالى، بسوق الكتب في شهور سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة في معنى أبيات السروجي[4]:

قِصَّةُ الشَّوْقِ سِرْ بِهَا يَا رَسُوْلِي نَحْوَ مِنْ قُرْبِهِ مُنَـــايَ وَسُـــولِي
عِنْدَ بَابِ الفُتُوحِ حَارَةُ بَهَاء الْـــ دِّينِ تَحْتَ السَابَاطِ قِفْ يَا خَلِيْلِي
فَإِذَا مَا حَلَلْـــتُ تِلْـــكَ المَغَـــانِي قِفْ بِتِلْكَ الطّلولِ غَيْـــرَ مُطيـــلْ

ونجد أنَّ الكتبي لم يلزم نفسه بذكر الشِّعر لصاحب الترجمة فقط، إنَّما تعـــدَّى ذلك إلى إيراد أشعار لشعراء آخرين في سياق الترجمة، فعلـــى ســـبيل المثـــال لا الحصر، في ترجمة ابن خلكان وردت أسماء أربعة شعراء، وذكر لكل واحد مـــنهم

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص60

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، 1، ص71، وللاستزادة، انظر، ج2، ص334.

3: الكتبي، **فوات الوفيـــات**، ج2، ص199، وللاســـتزادة، انظـــر: ج2، ص464-466، ج4، ص343-344.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص68.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بيتاً على الأقلِّ أو أكثر قليلاً[1]، وكذلك في ترجمة الملك الظَّاهر؛ حيث وردت عـدّة مقطعات لأكثر من تسعة شعراء[2].

7.9.1 **إبداء الرَّأي في الشِّعر**:

كان الكتبي يبدي رأيه بالشِّعر وصاحبه أحياناً، وكانت جلّ هـذه الآراء آراء عامة، لكنَّها قد تضيء جانباً بسيطاً من النتاج الشِّعري للشَّاعر المترجم لـه؛ ففـي ترجمة ناصر الدِّين بن النَّقيب، يقول الكتبي عن شعره: "وشعره جيِّد عذب منـسجم فيه التورية الرَّائقة اللائقة المتمكِّنة، وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كـانوا مـن شعراء مصر في ذلك العصر، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية"[3]، وفـي ترجمـة راجـح الحلّي يقول عن الحلي: "شعره جيد النظم، عذب الألفاظ، حسن المعـاني"[4]، ويـدلي برأيه في الصفي الحلي وشعره بشيء لا يكاد يخلو من مبالغة، حيـث يقـول: "... النَّاظم النَّاثر، شاعر عصرنا على الإطلاق... شاعر أصبح به الحلي ناقصاً، وكـان سابقاً فعاد على كعبه ناكصاً، أجاد القصائد المطوَّلة والمقاطيع، وأتى بما أخجل زهر النُّجوم في السَّماء فما قدر زهر الأرض في الرَّبيع، تطربـك ألفاظـه المـصقولة، ومعانيه المعسولة، ومقاصده التي كأنَّها سهام راشقة وسيوف مسلولة[5]". ويعطي رأياً مختصراً لشعر "عين بصل"، فيقول: "وشعره مقبول، غير أنَّه لا يخلو من اللحـن[6]"، وفي ترجمة الملك المؤيد (ت732هـ)، وبعد أن ذكر موشحتين لكـل مـن الملـك المؤيَّد وابن سناء الملك. قال: إن خرجة ابن سناء الملك أحسن من خرجة السلطان[7]. ويعرض رأيه بالشّهاب العزازي وشعره، حيث يقول: "الشَّاعر المشهور؛ كان كيّـساً

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص110-113.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص235-246.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص 324.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص،7.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص335.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص38

7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص188.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشهور؛ كان كيّساً ظريفاً، جيّد النّظم في الشِّعر والموشّحات"[1]. وقد يقدِّم الكتبي رأيه النَّقدي معزِّزا ذلك بمثالٍ من شعر المترجم له، كما جاء في ترجمة ياقوت المستعصمي، حيث قال: "كان ينظم شعراً رقيقاً، فمنه قوله:

يَا خَلِيلِي والمُنَى كَاذِبَةٌ ... وَاللَّيَالِي شَأْنَها أنْ تَسْلِبَا

قُمْ بِنَا مَا قَعَدَتْ حَادِثَةٌ ... نَقَضِ مِنْ حَقِّ الصِّبَا مَا وَجَبَا

نَعْصِ مَنْ لاَمَ عَلَى دِيْنِ الهَوَى ... هَذِهِ سُنَّةُ أيَّامِ الصِّبَا"[2].

ويبدي رأيه في شعر بدر الدِّين الذَّهبي مظهراً الإعجاب بهذا الشِّعر؛ فقال: "له نظم يروق الأسماع، ويعقد على فضله الإجماع"[3].

10.1 مصادر المؤلِّف في كتابه:

تنوَّعت المصادر التي استقى منها الكتبي مادّة كتابه (فوات الوفيات)، ويمكن أن نقسِّم هذه المصادر لغايات الدِّراسة إلى قسمين:

1- مصادر الترجمة للأعلام القدماء، وتحوي هذه المصادر الأعلام الذين توفوا قبل عام (520هـ)، على اختلاف بيئاتهم.

2- ومصادر الترجمة للأعلام موضوع الدِّراسة، وتحوي الأعلام الذين توفوا بعد عام (520هـ)، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه المصادر قد حوت أعلاماً من خارج بيئة الدِّراسة (مصر، وبلاد الشَّام)، وقد أشير لذلك في موضعه.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الكتبي سلك أكثر من نهج في إبراز هذه المصادر داخل التراجم، فقد يشير للكتاب وصاحبه، وقد يذكر الكتاب ويهمل المؤلف، وقد يشير للكتاب من خلال مؤلّفه فقط، علماً بأنَّه يعتمد علاوة على الاسم، اللَّقب أو الكنية للدلالة على اسم المؤلِّف، وقد يختصر من اسم المؤلف أو الكتاب أحياناً، كما أنَّه قد يشير أحياناً للمصدر الواحد أكثر من مرَّة في الترجمة الواحدة.

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص95.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص363.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص368

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعتمد الكتبي كذلك على مصادر أخرى غير مكتوبة، كالاعتماد على المقابلة الشَّخصيّة، والاعتماد على المشاهدة، والسّماع، وسيشار لذلك لاحقاً.

أولاً: مصادر الترجمة للقدماء:

1- **كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني** (ت 356هـ): أشار إلى هذا المصدر إحدى عشرة مرة، وذلك في ترجمته لكل من[1]: الحسين بن مطير الأسدي، والحكم بن عبدل الأسدي، الأحوص، عثمان الطفيلي، والفضل بن عبد الصَّمد الرقاشي البصري، وقيس بن ذريح، فضل الشَّاعرة، وقيس بن الملوّح، ومالك ابن نويره، ومحمَّد بن القاسم، والوليد بن يزيد.

2- **كتاب معجم الشُّعراء للمرزباني** (ت384هـ): اعتمد الكتبي هذا المصدر ثماني مرات، والتراجم التي اعتمد الكتبي فيها على المرزباني هي[2]: ترجمة أحمد بن جعفر أمير المؤمنين، وأحمد بن محمَّد بن هارون، والحمدوني، وإسماعيل بن محمَّد بن وداع الحميري، والحسن بن وهب، وترجمة السَّائب أبي العبَّاس الأعمى الشَّاعر المكيّ، وأبي العبَّاس الشَّاعر الأعمى، وصالح بن عبد القدوس، وأمير المؤمنين المعتصم.

3- **كتاب الأنموذج: ابن رشيق القيرواني** (ت456هـ): واعتمد هذا المصدر سبع مرَّات، وذلك في التراجم الآتية[3]: ترجمة الرَّقيق الكاتب، الصَّابوني، والعطَّار، وابن البغدادي المغربي، وأبي حبيب المغربي، والمثقال، والورَّاق التَّميميّ.

1: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص388،390؛ ج2، ص218، 439؛ ج3، ص183، 204، 186، 208، 233؛ ج4، ص33، 258.

2: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص65، 141، 173، 189، 367؛ ج2، ص41، 116؛ ج4، ص49.

3: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص41، 221؛ ج2، ص225، 227، 266، 425، 436.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4- **كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي** (ت 492هـ): اعتمد على هذا المصدر في خمس تراجم هي[1]: ترجمة إبراهيم الحربي، جعفر بن قدامة، وابن حنزابة، وأبو الجوائز الواسطي، والقاضي عبد الوهاب.

5- **كتاب المرآة لسبط ابن الجوزي** (ت 654هـ): اعتمد هذا المصدر خمس مرَّات في التراجم الآتية[2]: ترجمة المستعين، واسبهدوست، وابن الجصَّاص، والمنتصر بالله، والمعتز بالله.

6- **كتاب التتمة للثعالبي** (ت 429هـ): اعتمد هذا المصدر في ثلاث تراجم هي[3]: ترجمة المتيّم الأفريقي، وابن فروجه، وأبو سعد الدِّينوري.

7- **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم** (ت 456هـ): اعتمد هذا المصدر في ثلاث تراجم هي[4]: زياد بن أبيه، وملك الأندلس الداخل، وهارون الرَّشيد.

8- **كتاب الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسَّام** (ت 542هـ): اعتمد هذا المصدر في ثلاث تراجم هي[5]: عبادة ابن ماء السَّماء، وابن وهبون المرسي، وأبو الوليد ابن حزم.

9- **كتاب الفرق الإسلاميّة لابن أبي الدم** (ت642هـ): اعتمد على هذا المصدر مرَّتين، وذلك في ترجمته لكل من[6]: زيد بن زين العابدين، سليمان القرمطي.

1: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص4، 289، 292، 349؛ ج2، ص419.

2: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج ا، ص141، 162، 372؛ ج3، ص318، 320.

3: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص151؛ج3، ص344؛ ج4، ص196.

4: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص32، 302؛ ج4، ص227.

5: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص 149، 249؛ ج4، ص53.

6: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص37، 61.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

10- **كتاب الإشعار بما للملوك من النَّوادر والأشعار للقاشي**[1]: اعتمد هذا المصدر مرَّتين في ترجمة[2]: أبي علي القرمطي، والوليد بن يزيد.

11- **كتاب الحديقة لأمية بن أبي الصّلت** (529هـ): اعتمد على هذا المصدر مرَّة واحدة في ترجمته لابن مكنسة الشَّاعر[3].

ثانياً: المصادر التي اعتمدها للأعلام الذين توفوا بعد (520هـ):

1- **كتاب تاريخ الإسلام، لشمس الدِّين الذَّهبي** (ت 748هـ): أشار إلى هذا الكتاب في اثنتين وثلاثين ترجمة، منها اثنتان وعشرون ترجمة من بيئة الدِّراسة (مصر والشَّام)، وعشر تراجم من خارج بيئة الدِّراسة. والتراجم التي أشار إلى هذا المصدر فيها من بيئة الدِّراسة هي[4]: ترجمة فخر الدِّين ابن لقمان، عماد الدِّين الواسطي، الشيخ تقي الدِّين ابن تيمية، الحنبلي معبر المنامات، الماهر الحلبي، العز الاربلي الضرير، رتن الهندي، سلار الصالحي المنصوري، عبد الحق ابن سبعين، مجد الدِّين ابن تيمية، الرفيع الجيلي، جمال الدِّين التبريزي، معين الدِّين بن تولوا، الحريري شيخ الطائفة، علم الدِّين البرزالي، فتح الدِّين بن سيد الناس، قاضي القضاة الخويي، الحافظ ضياء الدِّين المقدسي، ابن الشقيشقة الصفَّار، الشيخ جمال الدِّين المزي، سبط ابن الجوزي.

1: ذكر الصفدي أن هذا الكتاب للصاحب كمال الدِّين ابن العديم، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص130.

2: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص319؛ ج4، ص257.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص194.

4: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص43، 57، 74، 86، 107، 362؛ ج2، ص23، 87، 253، 324، 353، 367، 440؛ ج3، ص197، 288، 313، 427؛ ج4، ص185، 299، 354، 456.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأشار إلى هذا الكتاب عشر مرَّات في تراجم من خارج بيئة الدِّراسة وهي[1]: ترجمة شيخ الأكراد، بدر الدِّين بن هود، أبو الفضائل الصاغاني، أبي عمرو ابن العلاء، المستعصم بالله، الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي، المسعودي صاحب التاريخ، الوليد بن يزيد، يزيد بن معاوية، محي الدِّين ابن الجوزي.

2- **كتاب الكمال في معرفة الرِّجال لمحبّ الدِّين بن النَّجَّار** (ت 643هـ): أشار إلى هذا الكتاب سبع عشرة مرَّة، منها خمس تراجم من بيئة الدِّراسة، هي[2]: ابن الخل الشَّاعر، السَّابق المعرِّي، ابن كيغلغ، ابن الدبيثي، المستظهر بالله. واثنتي عشر ترجمة من خارج بيئة الدِّراسة، وهي[3]: طلحة النعماني، ابن الإخوة، ابن الفقيه الموصلي، ابن خمارتاش الهيتي، أبو طاهر البغدادي، أبو طاهر الحليّ الشَّاعر، المقتدي بأمر الله، أبو سعد ابن خلف، ابن مواهب البغداديّ، السنبسي الشَّاعر، أبو سعد الكرماني، مهذّب الدِّين ابن الخيمي.

3- **كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدِّين الصَّفدي** (ت 764هـ): اعتمد الكتبي في كتابه (فوات الوفيات) على كتاب معاصره صلاح الدِّين الصفدي[4] (الوافي بالوفيات) بشكلٍ واضحٍ وملموس، الذي أهمل الإشارة إليه كما ينبغي، مكتفيا بالإشارة إليه كباقي المصادر الأخرى التي اعتمدها، ويظهر اعتماد الكتبي على

1: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص335، 345، 359؛ ج2، ص29، 233، 373؛ ج3، ص13؛ ج4، ص257، 345، 352.

2: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص42، 63، 89، 352؛ ج3، ص348.

3: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص136، 219، 309، 413، 438؛ ج3، ص76، 238، 346، 350، 434، 441؛ ج4، ص194.

4: صلاح الدِّين الصفدي: (696- 764هـ)، خليل بن أيبك عبد الله العلامة الأديب البليغ البارع المفنن، أكثر جداً من النظم والنَّثر والترسُّل والتَّواقيع وأخذ عن الشهاب محمود وابن سيد الناس وابن نباته وأبي حيان ونحوهم وسمع بمصر من يونس الدبوسي ومن معه وبدمشق من المزي وجماعة، جمع تاريخه الكبير الذي سمَّاه الوافي بالوفيات في نحو ثلاثين مجلدة على حروف المعجم، وأفرد منه أهل عصره في كتاب سمَّاه (أعوان النَّصر في أعيان العصر) في ستة مجلَّدات، وغيرها من المؤلَّفات، وأوَّل ما ولِّي كتابة الدرج بصفد ثم بالقاهرة وباشر كتابة السر بحلب وقتاً وبالرحبة وقتاً والتوقيع بدمشق ووكالة بيت المال، وكان محبباً إلى النَّاس حسن المعاشرة جميل المودة، وكان في الآخر قد ثقل سمعه وكان قد تصدَّى للإفادة بالجامع، وقد سمع منه من أشياخه الذَّهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم. (انظر: ابن حجر العسقلاني، **الدُّرر الكامنة**، 2: 207. السبكي ، الإمام تاج الدِّين بن علي بن عبد الكافي، (ت 771هـ)، (د.ت)، **طبقات الشافعية الكبرى**، دار النشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود محمَّد الطناحي، عبد الفتاح محمَّد الحلو، ج10، ص5).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصفدي بعرض بعض التراجم لدى الكتبي ومقارنتها بالتي عند الصفدي، لنجد أنَّ هذه التراجم تُعدُّ إجمالاً – تلخيصاً- لما هو عند الصفدي، وقد أشار إلى هذا الكتاب في خمس عشرة ترجمة، منها تسع تراجم من بيئة الدِّراسة، هي[1]: شهاب الدِّين ابن فضل الله، الامير تنكز نائب الشَّام، العفيف التلمساني، جمال الدِّين التبريزي، كريم الدِّين الكبير، تاج الدِّين ابن حنَّا، النور الأسعردي، شمس الدِّين ابن دانيال الحكيم، ابن أسد المصري، وست تراجم من خارج بيئة الدِّراسة، وهي[2]: توبة بن الحمير، جابر بن حيان، بدر بن هود، سليمان القرمطي، ابن الطراوة المالقي، ابن الجنان الشَّاطبي.

3- **كتاب المعجم لشهاب الدِّين القوصي** (ت 653هـ): أشار إلى هذا الكتاب في ثلاث عشرة ترجمة جميعها من بيئة الدِّراسة، وهي[(3)]: الملك الأمجد، أبو البقاء التفليسي، جعفر العلوي، جلدك والي دمياط، ضياء الدِّين القناوي، الرشيد النابلسي، ابن المسجف، الزكي القوصي، ابن النبيه الشَّاعر، ابن خروف النَّحوي، نجم الدِّين الحلي، رشيد الدِّين الفهري، المنصور صاحب حماه.

4- **كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي** (ت 622هـ): أشار إلى هذا الكتاب في تسع تراجم، منها أربع تراجم من بيئة الدِّراسة، وهي[(4)]: توفيق الطرابلسي، المهذب بن الزبير، كمال الدِّين ابن العديم، ابن أبي طي،

1: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص157، 251؛ ج2، ص72، 100، 368، 378؛ ج3، ص272، 330، 356.

2: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص260، 275، 347؛ ج2، ص61، 80؛ ج3، ص263.

3: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص227، 271، 285، 300؛ ج2، ص108، 275، 282، 305؛ ج3، ص66، 86، 154؛ ج4، ص12.

4: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص266، 337؛ ج3، ص127؛ ج4، ص269.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخمس تراجم من خارج بيئة الدِّراسة، هي[1]: أبو الفضائل الصَّاغاني، طلحة النُّعماني، ظهير الدِّين البارزي، الحافظ ابن النجَّار، المطرزي شارح المقامات.

5- **كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب** (ت 597هـ): أشار إلى هذا الكتاب في سبع تراجم، واحدة منها داخل بيئة الدِّراسة، وهي ترجمة سعد الدِّين الطيبي، وست تراجم من خارج بيئة الدِّراسة، وهي تراجم[2]: ابن جكينا البغدادي، الهمام العبدي، ابن مكي الحنبلي المؤدب، طوي المغني، الجليس ابن الحباب، ابن مواهب البغدادي.

6- **تاريخ شمس الدِّين الجزري** (ت 630هـ): أشار إلى هذا الكتاب في ست تراجم، جميعها من بيئة الدِّراسة، والتراجم هي[3]: جوبان القواس، الأشرف خليل، العفيف التلمساني، سلار الصالحي المنصوري، المظفر قطز، نصير الدِّين الطوسي.

7- **كتاب تحفة القادم لابن الآبار** (ت 658هـ): واعتمد هذا المصدر سبع مرَّات، جميعها من خارج بيئة الدِّراسة، وذلك في التراجم الآتية[4]: ابن سهل الإسلامي، ابن كسرى المالقي، حمدة الوادياشية، ابن أبي خالد الكاتب الاشبيلي، يزيد بن عبد الملك، ابن صقلاب، ابن طملوس المغربي.

1: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص358؛ ج2، ص135،/ج3، ص217؛ ج4، ص37، 183.

2: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص319، 336؛ ج2، ص50، 137، 332؛ ج3، ص238.

3: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص303، 408؛ ج2، ص72، 87؛ج3، ص201، 250.

4: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص20، 357، 394؛ ج4، ص319، 322، 324، 357.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

8- **كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة** (ت 668هـ): أشار إليه في أربع تراجم جميعها من بيئة الدِّراسة، وهي[1]: عز الدِّين السويدي الطبيب، الزين الحافظي، ابن البيطار، الرفيع الجيلي.

9- **كتاب الذيل على المرآة لقطب الدِّين اليونيني** (ت 726هـ): أشار إليه في أربع تراجم جميعها من بيئة الدِّراسة، وهي تراجم[2]: ترجمة السنبلي، العفيف التلمساني، الشَّريف النَّاسخ، ابن أبي الرَّبيع الهواري.

10- **كتاب الطَّالع السَّعيد الجامع أسماء نجباء الصَّعيد لكمال الدِّين جعفر**(748هـ): أشار إليه في ثلاث تراجم من بيئة الدِّراسة، وهي تراجم[3]: تقي الدِّين الاسنائي، النَّصير الاذفوي، ابن المصلي الارمنتي.

المصادر غير المكتوبة:

ومن المصادر التي اعتمدها الكتبي في التراجم الاعتماد على المقابلة الشَّخصيّة كما في ترجمة ابن الثردة الواعظ (ت 750هـ) يقول الكتبي: "سألته عن مولده، فقال: بكرة الاثنين ثاني عشرين شعبان سنة سبع وتسعين وستمائة[4]". فالكتبي هنا هو من سأل ابن الثردة، وبذلك يكون قد قابله، ويعزِّز هذا إذا علمنا أنَّ تاريخ وفاة ابن الثردة هذا عام (750هـ)، بالإضافة إلى قدومه دمشق ووعظه بها في

1: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص49؛ ج2، ص77، 160، 353.

2): انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص71؛ ج2، ص72؛ ج3، ص355، 371.

3: انظر هذه التراجم على التَّوالي: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص396؛ ج4، ص220، 231.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص463.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجامع الأموي على حدِّ قول الكتبي[1]. ويذكر الكتبي أنَّه أنشده شخصيَّاً بعض الأبيات[2].

وفي ترجمة ابن الحسام الذَّهبي يقول الكتبي:" سألته عن مولده، فقال: سنة أربع وثمانين وستمائة، اجتمعت به غير مرة، وأنشدني كثيراً من شعره، وفيه تودّد كثير وحسن صحبة وطهارة لسان"[3]. ويذكر له بعض الأبيات التي قالها له مباشرة.

ومن المصادر التي اعتمدها "السماع"، يقول في ترجمته لنجم الدِّين القحفازي: "سمعته يوماً يقول لمنصور الكتبي رحمه الله تعالى: يا شيخ منصور، هذا أوان الحجّاج، اشترِ لك منهم مئتي جراب وارمها خلف ظهرك إلى وقت موسمها تكسب فيها جملة، فقال: والله الذي يشتغل عليك في العلم يحفظ حراف قدره عشر مرَّات"[4].

وقد اعتمد على السماع في إيراد العديد من الأبيات الشِّعريّة، ففي ترجمة تقي الدِّين السروجي أورد له عدّة أبيات معتمداً في ذلك على ما سمعه من شيخه علم الدِّين إبراهيم، فقد ورد لديه الآتي: "أنشدني القاضي علم الدِّين بن إبراهيم مستوفي الشَّام رحمه الله تعالى، بسوق الكتب في شهور سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة في معنى أبيات السروجي:

قِصَّةُ الشَّوْقِ سِرْ بِهَا يَا رَسُولِي ... نَحْوَ مِنْ قُرْبِهِ مُنَايَ وَسُولِي
عِنْدَ بَابِ الفُتُوحِ حَارَةُ بَهَاءَ الْـ ... ـدِّينِ تَحْتَ السَّبَاط قِفْ يَا خَلِيْلِي
فَإِذَا مَا حَلَلْتَ تِلْكَ المَغَانِي ... قِفْ بِتِلْكَ الطُّولِ غَيْرِ مُطِيْلِ
وتَأَمَّل هُنَاكَ تَلْقَ غَرِيْرَ الْـ ... ـطَّرْفِ يَرْمِي بالنَّبْلِ كُلَّ نَبِيْلِ
ألفي القوام قَدْ أَلِفَ الهَجْـ ... ـرَ دَلالاً عَلَى المُحِبِّ الذَّلِيلِ
فَإِذَا مَا رَأَيْتُهُ مِنْ بَعِيْدٍ ... يَتَثَنَّى عُجْبَاً بِتِلْكَ الطُّاولِ
قَبِّلَ الأَرْضَ ثُمَّ قُدِّم إِلَيهِ ... قِصَّةٌ تُرْجِمَتْ بِشَرْحٍ طَوِيلِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص463.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص464.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص131.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص24.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَإِذَا قَالَ أَوْزِمِي بَختكِ دُرَّ سَلام بر كَيْفَ حَالُ المُضْنَى الكَئِيبِ العَلِيْلِ"[1]

ونجده أيضاً يورد بيتين معتمداً على السماع من صاحبهما ابن الثردة الواعظ، فيقول: "أنشدني لنفسه:

أضْحَى جِمَالُك لِلْوَرَى أُعْجُوبَةً كُلُّ الوَرَى قَدْ قَيَّدُوا بِقِيَادِه
فَوَحَقِّ مَنْ سِوَاكَ يَا بَدْرَ الدُّجَى مَا أَنْتَ إلاَّ فِتْنَةٌ لِعِبَـــادِه"[2]

وقد أورد شعراً معتمداً على السماع في التراجم التالية: ابن الحسام الذَّهبي[3]، وترجمة زين الدِّين ابن الوردي[4]، وجمال الدِّين الشَّاعر[5].

وقد يعتمد في ترجمته على المشاهدة كما في ترجمة علاء الدِّين ابن الكـــلاَّس يقول الكتبي: "رأيته بسوق الكتب غير مرَّة؛ كان فاضلاً أديباً ناظماً ناثراً"[6]. ويظهـــر اعتماده على مصدر المشاهدة جليَّاً في حديثه عن شيوخه لاسيما المزيّ، حيث يذكر الكتبي وصفاً شاملاً لأبرز ما تميَّز به المزيّ، فممَّا ذكره عنه قوله: "وكان فيه حياء وسكينة وحلم واحتمال وقناعة واطراح تكلُّف وترك التجمُّل والتودُّد والانجماع عـــن النَّاس وقلّة الكلام، إلاَّ أنَّه يسأل فيجيب ويجيد، وكلَّما طالت مجالسة الطالب له ظهر له فضله. وكان لا يتكثر بفضائله، كثير السُّكوت لا يغتاب أحداً. وكان معتدل القامة مشرّباً بحمرة، قوي التركيب متَّع بحواسه وذهنه. وكان قنوعاً غير متأنِّق في ملبس أو مأكل، يصعد إلى الصالحية وغيرها ماشياً وهو في عشر التسعين. وكان يـــستحمّ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص199.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص464.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص132.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص159.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص343.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص93.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالماء البارد في الشِّتاء. وكان قد امتحن بالمطالب وتتبَّعها فيعثر به مـــن الـــشياطين جماعة فيأكلون ما معه، ولا يزال في فقر لأجل ذلك"[1].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص354.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

الاتِّجاهات الموضوعيّة في كتاب فوات الوفيات

1.2 الغزل:

حوى كتاب (فوات الوفيات) كثيراً من شعر الغزل، والذي جاء في قصائد ومقطوعات ونتف مستقلّة، أو في مقدِّمات قصائد المدح، وبمجمل القول، فإنَّ هذا الغرض في كتاب الفوات ما هو إلاَّ صورة مشابهة للغزل الذي قيل في ذلك العصر، وهو في جميع مناحيه لا يقلُّ في جملته عن أسلوب الغزل في أرقى عصور العربيّة شأناً[1]، وبذلك يكون الكتبي قد رفد وعزَّز الأدب العربي بمصدر مهمٌّ عن ذلك العصر.

ويمكن أن نقسِّم هذا الغرض في الكتاب إلى ثلاثة أقسام هي: الغزل العفيف، والغزل الصَّريح، والغزل الغلماني.

1.1.2 الغزل العفيف:

لم تظهر في بلاد الشَّام ومصر منذ القرن السادس وحتى منتصف القرن الثامن قصص غراميّة انبثق عنها غزل عفيف، مثل القصص التي عهدناها في العصر الأموي، ولم يدر غزل شاعر من الشُّعراء حول امرأة معيَّنة معروفة، وكانت معظم أسماء النِّساء اللاتي ذكرن في هذا الغزل العفيف ممَّا دأب الشُّعراء على ذكرها مثل: هند، وليلى، وبثينة.

وغلب على هذا الغزل صفة البداوة والجزالة، حيث يردِّد الشَّاعر معاني الشُّعراء السَّابقين؛ مثل تنّسم ريح الصّبا التي تهبُّ من ديار الحبيبة فتثير الأشواق المستكنة في قلبه، كما في قول سعد الدِّين الطيبي[2]:

سَرَى والدُّجَى تصبي غَدَائرَهَ الجونَ ... نَسِيمٌ عَلى سرِّ الأحَبَّةِ مَأمُونُ

فَراحَتْ قُدُودُ البانِ من سُكْرِ رَاحِهِ ... نَشَاوَى فَقَدْ كَادَتْ تَميدُ المَيادِينُ

وَشَقَّ لَهُ وَرْدُ الشَّقَائِقِ جيبَهُ ... مِنَ الوَجْدِ وارْتَاحَتْ إليهِ الرَّيَاحِينُ

1: بدوي، أحمد، (د.ت)، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشَّام**، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص91.

2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج1، ص378.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَغَنَّتْ لَــهُ الوَرْقَــاءُ بَــيْنَ مُــورّقٍ تُجاوبُها مِنْ جَانِبَيْــهِ الوَراشِــينُ

ويجعل راجح الحلي النفحة التي هبَّت عليه من ديار محبوبتــه علاجــاً لــه، وسبباً في عودة النَّوم لعينه، التي جاءت خفية واختلاساً[1]:

أمــنكمُ خطــرتْ مــسكيةُ الــنَّفْسِ صباً تلقيت منها بــرءَ مُنــتكسِ
نَمتْ بِمَا اسْتَوْدَعْتَ والفَجْرُ جَمْرَته مَا دَبَّ إيقَادهَا فِي فَحْمَةِ الغَلَسِ
رَدَّتْ عَلَى مُقلتِي طِيبَ الرّقَادِ فَهَــا إنسانها بِلَذِيذِ النَّومِ فِــي أُنْــسِ
فَيَا لَهــا نَفحــةً خَالَــستُ نــسمتَها لما تيقنتُ أنَّ العَيْشَ فِي الخلسِ
وللنَّــسيمِ إشَــاراتٌ إذَا التبــست فَسِرُّها عِنْدَ مِثْلِي غير مُلتــبسِ

ويرتاح التلعفري الشَّاعر للنَّسيم الآتي من ديار محبوبته، بل أنَّ هذا النَّــسيم يحمل من الرَّوائح الزكيّة ما يملأ ديار المحبوبة[2]:

ويرتاحُ قَلْبِــي للنَّــسيمِ إذَا سَــرَى وَيطربُنِي ذَاكَ الحَمَامُ المطُوقُ
سَقَى بَانةَ الجرعاءِ إنْ أخلفَ الحَيَا وَضَنَّ حَيا من عِبْرَتِي يَتَــدَفَّقُ
مَنَــازِلُ تُــصبُينِي إليهــا نَــسيمةٌ لَهَا أَرَجٌ أرْجَاؤُهَا منْهُ تَعْبَــقُ

ويجعل الحافظ ابن بكار النَّسمة شاهداً على حبِّه ووفائه لمحبوبته، جاعلاً منها مستودعاً لأخبار كل العاشقين[3]:

سَلُوا عَذبَاتِ الرَّنْدِ أو نَسْمَةَ الــصِّبَا إلى غَيْرِكُمْ هَلْ مَالَ قَلبِي أو صَــبَا
فَعنــدَهُمَا أخْبَــارُ كُــلِّ مُتَــيَّمٍ مُحِبٍّ لَكُمْ مَا حَالَ من زَمَنِ الــصِّبَا
يَحِــنُّ إلــيكُمْ كلَّمَــا لاحَ بَــارِقٌ ويشتاقُكُمْ يَا سَــاكِنِي ذلــكَ الخبــا

ويشكو الشَّاعر بعد الحبيبة وصدّها، وما يقاسيه من الشَّوق والحنين إليها، وما يعانيه من الوجد والألم في حبِّهِ لها وتعلُّقه بها، كما في قول السراج المحار، الــذي

1: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج1، ص 8. شرف الــدِّين الحلــي: أبــو الوفــاء راجــح الحلــي (ت627هــ)، (1994م)، **ديوان راجح الحلي**، تحقيق ودراسة: الدكتور الــدوكالي محمَّــد نصر، منشورات كلية الدعوة الإسلامية- طرابلس، ليبيا، ص580.

2: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج4، ص66.

3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج4، ص341.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعاني بُعد محبوبته عنه، وشوقه إليها، والذي فقد الصَّبر والتجلُّـد بعـد أن أصـابه المرض نتيجة بُعده عن محبوبته، مصوِّراً حزنه وبكائه بشيءٍ لا يخلو من المبالغة[1]:

مَا بَثَّ شَكْوَاهُ لَوْلا مَـسَّهُ الأَلَـمُ ... وَلا تَـأَوَّهَ لَـوْلا شَـفَّهُ الـسَّقَمُ
وَلا تَـوَهَّمَ أنَّ الـدَّمْع مُهجَتُـهُ ... أذَابَها الشَّوْقُ حتَّى سَالَ وَهْـوَ دَمُ
صَبٌّ لُهُ مَـدْمَعٌ صَـبٌّ يُكَفْكِفُـهُ ... فَتَـسْتَهِلُّ غوَادِيْـه وتنـسَجِمُ
فَطَرْفُهُ بِمِيَاهِ الدَّمْعِ فِـي غَـرِقٍ ... وَقَلْبه بِلهيبِ الـشَّوقِ يَـضطَرِمُ
أرادَ إخْفاءَ ما يَلقَـاهُ مِـنْ كَمَـدٍ ... حَتَّى لَقَدْ عَـادَ بِالـسلوانِ يَـتْهَمُّ
يُبْدِي التَّجَلُّد والأجْفَـانُ تَفْـضَحُهُ ... كالبرقِ تَبكِي الغَوَادِي وَهْوَ يَبْتَسِمُ
سَقَتْهُ أيْدِي النَّوَى كَأساً مُدَعْدَعَـة ... فَمَا نَـدَامَاه إلاَّ الحُـزْنُ والنَّـدَمُ

ومن السّمات لهذا الشِّعر وصف ظعائن المحبوبة وتصوير مشاهد ارتحالها، كما قول ابن خلكان[2]:

أيُّ لَيلٍ عَلَـى المُحِـبِّ أطَالَـهُ ... سَائِقُ الظَّعْنِ يَوْمَ زَمَّ جَمالَـهْ
يَزجِرُ العِيْسَ طَاوِياً يَقْطَـعُ أَلَـ ... ـمَهُ عَـسفاً سُـهولَهُ ورِمَالُـهْ
أيُّهَـا الـسَّائِقُ المجِـدُّ تَرَفَّـقْ ... بالمَطَايَا فَقَدْ سَـئِمْنَ الرّحَالَـهْ
وأنَخْهَـا هُنيهَـةً وأرِحْهَـا ... قَدْ بَرَاها فَرطُ السَّرَى والكَلالَهْ
لا تَطِل سَيْرَها العَنِيف فَقَـدْ بَـرَّ ... ح بالصَّبِّ فِي سَرَاها الإطَالَهْ
قَدْ تَرَكْتُمْ ورَاءَكمْ حلَـفَ وَجْـدٍ ... بَادِياً فِـي محلّكـم إطلالَـهْ

ويعمد الشَّاعر إلى أساليب فنيّة متعدِّدة مثل، سؤال الربع، والوقـوف علـى الأطلال، والبكاء عليها، في محاولة منه لتحقيق جوٍّ من الحزن، على الرّغم من عدم وجود محبوبة حقيقة وإنَّما غزله يرتبط بالحديث المعمَّم المبهم عن حبيبة حُرِمَ منها[3]:

يَسْأَلُ الربعُ عن ظباءِ المـصلّى ... ما على الربعِ لَوْ أجَابَ سُؤالَهْ
وَمُحَـالٌ مِـن المحيـلِ جَـوَابٌ ... غَيْرَ أنَّ الوُقُوفَ فِيها عَلالَـهْ

1: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج3، ص148.

2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج1، ص115.

3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج1، ص115.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هـــذهِ سُـــنَّةُ المُحِبِّـــينَ يَبْكُـــو نَ على كلِّ مَنزلٍ لا مَحَالُـــهْ
يَا دِيَارُ الأحْبَـــابِ لا زَالـــتْ الأدْ مُعُ في تربِ سَاحَتيكِ مُذالَـــهْ

والشَّاعر حريص كل الحرص على هذه المحبوبة وسمعتها، فهو يُبدي جهلـــه عن بيتها صوناً لها، ويتجنَّب أرضها حتَّى لا يجلب لها السُّوء مـــن عـــدو، مكتفيـــاً بطيف المحبوبة[1]:

وبأعلى الكثيـــبِ بيـــتٌ أغـــضُّ الطَّرْفِ عنهُ مَهابَـــةً وجلالـــهْ
كلُّ مَـــنْ جِئْتَـــهُ لأســـألَ عَنْـــهُ أظْهَـــرَ العـــيُّ غيـــرةً وتبالَـــهْ
أنَـــا أدْرِي بِـــهِ ولكـــنَّ صَـــوْنَاً أتَعَامى عَنْـــهُ وأُبْـــدِي جَهَالـــهْ
منـــزلٌ حبّـــهُ علـــيَّ قَـــديمٌ فِي زَمَانِ الصِّبَا وعَصْرِ البَطالهْ
يا عُريبَ الحِمَى اعذرُونِي فـــإنِّي ما تَجَنَّبتُ أرضَكم عِن مَلاَلَـــهْ
حـــاشَ للهِ غيـــرَ أنِّـــيَ أخْـــشَى من عدوٍّ يَسِيءُ فِينَـــا المَقَالـــهْ
فتـــأخرتُ عـــنكم قانعـــاً مِـــنْ طَيفكمْ فِي المَنامِ يَهـــدِي خَيالُـــهْ
أتمنّى فـــي النّـــوم زورَ خيـــالٍ والأمَـــانِي أطماعُهَـــا قتَّالَـــهْ

وأشار الشُّعراء إلى أعلام الحب العذري في العصر الأموي، محاولين فـــي ذلـــك استعادة تجاربهم، وقرن أنفسهم بهم، كما في قول سعد الدِّين الفارقي، مطالباً بالديـــة من خدّ محبوبته التي شبهها بليلى العمرية[2]:

قِفْ بِي عَلى نَجْدٍ فإنَّ قَبَضَ الهَوَى رُوحِي فَطالِبْ خَدَّ لَيْلَى بِالدَّمِ
وإذَا دَجَـــا لَيْـــلُ الوِصَـــالِ فَنَـــادِهِ يَا كَافِرَاً حَلَّلْتَ قَتْلَ المُـــسْلِمِ

وربط أبو الهيجاء بن أبي الفوارس محبوبته بسلمى، فهي التي رغَّبته بالحب[3]:

وأنْتِ التي زَيَّنْتِ فِي عَيْنِي الهَوَى وَحَبَّبْتِ يَا سَلْمَى إلى نَفْسِي الحَبَـــا
ولولاكِ لَمْ يَخطرْ على قَلْبِي الجَوَى ولَمْ أدعُ ما بينَ الورَى الهائِمَ الصَّبَا

1: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج1، ص116.
2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص47.
3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص207.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصوِّر تقي الدِّين السروجي محبوبته وأهلها بليلى العمرية وربعها، فهم أهل الكرم والجود، وأصحاب قوَّة وبأس وحُماة للدَّخيل[1]:

وَرَأى لِلَيْلَـــى العَامِرِيَّـــةِ مَنْـــزِلاً بالجُودِ يُعْرَفُ والنَّدَى أصْحَابُهُ
فِيهِ الأَمَانُ لِمَنْ يَخافُ مِنَ الرَّدَى والخيرُ قَد ظفرتْ بِهِ طُلابُـــهُ
قَد أشرعَتْ بِيضُ الصَّوَارِمِ والقَنَا مِن حَوْلَهُ فَهوَ المَنِيعُ حِجَابُـــهُ

ويتمنَّى تاج الدِّين اليمني أن يهبَّ عليه نسيم من تلقاء محبوبته التـــي يقرنهـــا مرة بـــ "سعاد"، ومرّة بـــ "سلمى" [2]:

لعـــلَّ رَســـولاً مـــن سُـــعادٍ يَـــزُورُ فَيشفِي وَلَوْ أنَّ الرَّسَـــائِلَ زورَ
يُخبِرُنَا عن غَـــادةِ الحَـــيِّ هَـــلْ ثَـــوَتْ وَهَلْ ضَرَبتْ بالرقمتين خدورَ
وَهَلْ سَنَحتْ فِي الرَّوضِ غُزْلانُ عَالجٍ وَهَلْ أتْلُهُ بالسَّارِيَات مَطِيـــرُ
دِيارٌ لِـــسَلْمَى حَاكَهَـــا وَاكِـــفُ الحَيَـــا إذَا ذُكِرت خِلْتَ الفؤادَ يَطِيـــرُ

ويشبِّه نجم الدِّين ابن إسرائيل محبوبته بليلى واصفاً جمالها الذي حار العقـــلُ فيه فكثر عشَّاقها من الرِّجال وحاسداتها من النِّساء[3]:

هَلْ عَهدُ لَيْلَى بالكَثِيـــبِ عائِـــدٌ أمْ طَيْفُهَا لِسُقْمِ جِسْمِي عَائِـــدُ
حَوْرَاء حَارَ العَقْلُ فِي صِـــفَاتِهَا لَهَا الجَمَالُ عاشقٌ وَحاسِـــدُ
فكُلُّ عضوٍ فِيـــه بَـــدْرٌ طَـــالِعٌ وَكُلُّ عطفٍ فِيه غُصْنٌ مَائِدُ
فعطفُها وحسنُ صَبرِي نَـــاقِصٌ وحسنُها وفَرْطُ وَجْدِي زَائِدُ

ويرفض ابن عزّ القضاة ترك محبوبته التي يشبهها ببثينة، جانحاً لمبالغة فـــي الوصف، حيث إنَّ كل شيء جميل ما هو إلا طيف لمحبوبته، ويعـــود مـــرَّة ثانيـــة ليصوِّرها بليلى العامريّة:[4]

يَقُولُونَ دَعْ ذِكْرَى بُثينةَ كَيْفَ لِـــي وَقَدْ مَلَكتْ قَلْبِي بِحُسنِ اعتِـــدَالِهَا

1: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص198.
2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص249.
3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج3، ص388.
4: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج1، ص181.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكِنَّ إنْ أسطعتُمْ تردّون نَــاظِرِي إلى غَيْرِهَا فالعَيْنُ نصبُ جَمالِهَــا
وأُقسمُ ما عاينتُ في الكونِ صُورَةً لَها الحُسنُ إلاّ قُلتُ طَيْفَ خَيالِهَــا
ومَنْ لِــي بِلَيْلَــى العامِريّــةِ إنَّمــا عَظِيمُ الغِنَى مَنْ نَالَ وَهْمَ وصَالِهَا

ونجد الشِّعر العفيف التزم بما أوجده الشُّعراء الأمويون من حيث المعــشوقات "فهنَّ دائماً حييات صواد، ممتنِّعات لا يزرن العاشقين إلا بأطيافهن"[1]، حيث إنَّ هــذا الطيف "لقاء واجتماع لا يشعر الرُّقباء بهما، ولا يخشى منــع منهمــا، ولا اطــلاع عليهما. والتُّهمة بهما زائلة، والرِّيبة عنهما عادلة"[2]، كما في قول محيي الــدِّين بــن عبد الظاهر، وقد زاره طيف خيال محبوبته، مصوِّراً هذا الطَّيف بالرِّزق الذي ساقته الأقدار[3]:

لَئِنْ جَادَ لَي بالوَصْلِ طَيفُ خَيالِهِ وأصبحَ مَحْرُوماً رَقيبٌ ولائِمُ
ألا إنَّها الأقدارُ تَحْــرِمُ سَــاهِرَاً وآخرٌ يَأْتِي رِزْقُهُ وَهْوَ نَــائِمُ

وكما في قول نجم الدِّين ابن إسرائيل، الذي يتمنَّى زيارة طيف محبوبته حين ينام عنه الحاسدون، لكنه يستدرك أنَّ الطَّيف لا يزور من لا ينام فهو رفيق النُّجوم، ساهر معها منذ رحيلها عنه[4]:

عَسَى الطَّيفُ بالزَّوْرَاءِ مِنْكَ يَــزُورُ فَقَدْ نَامَ عَنهُ كاشِحُ وغَيُــورُ
وكيفَ يَزورُ الطَّيفُ صَــباً مُــسهدَاً لُهُ النَّجمُ بَعْدَ الظَّاعِنينَ سَمِيرُ
سَرُوا فِي ضِياءٍ من شُمُوسِ خُدُورهم كَأَنَّ سَرَاهُمْ فِي الظَّلامِ مُنيرُ

ويذكر الشُّعراء في سياق حديثهم عن معاناتهم مع المعشوقات بعض العناصر التي تقف حائلاً دون هذا الحب مثل: العاذل، والرقيب، والواشي، كما في قول تقــي

1: خليل، ياسين عايش، **الشعر في بلاد الشام والجزيرة منذ قيام الدولة العباسية حتى نهايــة القرن الثالث الهجري**، ص249.

2: الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى (ت436هــ)، **طيف الخيال**، تحقيق: محمَّــد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمــصر، الطبعــة الأولــى، 1955، ص15.

3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص185.

4: **الكتبي،فوات الوفيات**، ج،3، ص385.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدِّين السروجي، الذي سرَّ من ردِّ محبوبته على الوشاة، طالباً منها أن تــردّ علــيهم بأنَّه عبد لها ولن تعتقه[1]:

قَالَ الوُشَاةُ قَد ادَّعَى بك نسبةً فسررتُ لمَّا قُلْتَ قَدْ صَدَّقْتَهُ
باللهِ إنْ سَأَلُوكَ عَنِّي قلْ لَهــمْ عَبْدِي ومُلكَ يَدي وَما أعتقتَهُ
أو قيلَ مشتاقٌ إليكَ فقلْ لَهُــم أدْرِي بِذَا وأنَا الذِي شــوَّقْتَهُ

ويتذكَّر الصفي الحلي زيارة الحبيب التي تحقَّقت بعد أن غفل الوشاة واللــوَّام عنهما، ولكنه حين سلم منهم لم يسلم من وشاة أحد الرَّياحين[2]:

ولم أنسَ إذ زارَ الحبيــبُ بروضــةٍ، وقد غَفَلَتْ عنّــا وُشــاةٌ ولُــوّامُ
وقد فرشَ الــوردُ الخــدودَ ونــشرت لمقدمهِ للسوسنِ الغضّ أعــلامُ
أقولُ وطرفُ النرجسِ الغض شاخصٌ إلينا، وللنمــامِ حــوليَ إلمــامُ
أيا ربّ ! حتَّى فــي الحَــدائقِ أعــيُنٌ عَلَيْنَا، وحتَّى فِي الرَّيَاحِينِ نمامُ

ويتذَّمر السرَّاج المحار من الوشاة الذين يطلبون منه البعد عن محبوبته واصفاً هؤلاء الوشاة بالجهل، وعدم العلم والمعرفة بما بينه وبين محبوبته التي قضى عصر الشَّباب بحبّها، فكيف يبتعد عنها حين كبر وهرم؟، يقول[3]:

قالَ الوشاةُ تسلى عَــن مَحَبَّــتِهمْ يَا وَيْحَهُم جَهِلُوا فَوْقَ الذي عَلِمُوا
أنى يَميلُ إلى الــسِّلْوَانِ مُكتئــبٌ باقٍ على الوُدِّ والأيَّــامُ تَنْــصَرِمُ
قَضَى بِحبّهم عَصْرُ الشَّبَابِ وَمَــا خَانَ الوِدَادُ وهذا الشَّيْبُ والهَــرَمُ

ويتمنَّى أبو البحر صفوان أنَّ رقيبه يدوم في غفلاته بعد أن حاز نظــرة مــن محبوبه على أثر غفلة هذا الرَّقيب[4]:

غَفِلَ الرَّقِيبُ فَنِلْتُ مِنْهُ نَظْرَةً يَا لَيْتَهُ لَوْ دَامَ فِي غَفَلاتِهِ

1: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج2، ص197.

(2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص349. الصفي الحلي، (2000م)، **الديوان**، تحقيق الدكتور محمَّد حوّر، دار الفارس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ج1، ص877.

3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج3، ص149.

4: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص117.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2.1.2 **الغزل الصَّريح**:

وهو الغزل الذي يصف المرأة وصفاً حسيَّاً مادِّيا، ويصوِّر مفاتنها، وقد جاء في كتاب (فوات الوفيات) غير قليل من هذا الشِّعر.

وقد نهج الشُّعراء نهج عمر بن أبي ربيعة في بناء الحكاية الغزليّة، أو القصة الغراميّة، وهو أن يبني الشَّاعر قصصاً وأساطيراً عمَّا يدور بينه وبين محبوبته، يكون نصيب الخيال فيها أكثر من الحقيقة والواقع[1]، ووصف المغامرات الليلية والتعلُّق بأكثر من واحدة من النِّساء، كما في قول أبي الهيجاء بن أبي الفوارس واصفاً ما جرى بينه ومحبوبته في إحدى الليالي، مصوِّراً مواطن الإثارة فيها[2]:

وليلةٍ بِتْنَا والسَّواعدُ بَيْنَنَا	وَسَادٌ وَمِنْ خَمْرِ الثُّغُورِ لَنَا عَلُ
وَقَدْ نَمَّ فِي جُنْحِ الدُّجَى جَرسُ حلْيِهَا	وَنَادَى بِأَعْلَى صَوتِهِ القَلْبُ والحَجْلُ
فَضَضْتُ خِتَامَاً عَنْ عَقِيقٍ كَأَنَّه	عَلى اللُّؤْلُؤِ المَنْظُومِ مِنْ فَمِهَا قُفْلُ
فللنَّظمِ مَا يَجْلو مِنَ الدُّرِ ثَغرُهَا	وللظّلْمِ مَا يَجْنِي مِنَ العَسَلِ النَّحْلُ

ويصف أبو البحر صفوان ما جرى بينه وبين صاحبته في إحدى الليالي، وكيف أمسك بها خوفاً من هروبها، وضمّها إلى صدره، وحنوّه عليها[3]:

بِتْنَا نُشَعْشِعُ والعَفَافُ نَدِيمنَا	خَمرين مِن غَزلي ومِن كَلماتِهِ
حتَّى إذا ولعَ الكَرَى بِجُفُونِهِ	وامتدَّ في عَضُدِي طَوْع سناتِهِ
أوثقتَهُ فِي سَاعِدي لأنَّه	ظبيٌ خَشيْتُ عَليهِ من فَلتاتِهِ
فَضَمَمْتُهُ ضَمَّ البَخيلِ لِمالِهِ	يَحْنُو عَليهِ من جَميعِ جِهاتِهِ
عَزَمَ الغَرَامُ عليَّ فِي تَقْبيلِهِ	فنَفَضْتَ أيْدِي الطَّوْعِ فِي عَزَمَاتِهِ
وأبى عفافِي أن يُقَبِّلَ ثَغْرَهُ	والقَلْبُ مَطْوِيٌ عَلَى جَمَراتِهِ
فاعْجَبْ لملتهبِ الجَوانِحِ غلةً	يَشْكُو الظَّمَا والمَاءُ فِي لهواتِهِ

1: الشايب، أحمد، (د.ت)، **الغزل في تاريخ الأدب العربي**، الطبعة الأولى، دار المعارف للطباعة والنشر بسوسة- الجمهورية التونسية، ص67.

2: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج2، ص107.

3: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج2، ص118.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأثَّر الشُّعراء ببشار بن برد وأبي نواس وغيرهما من شعراء العصر العباسي في مجاهرتهم بتمتُّعهم بالنِّساء والتلذُّذ بهنَّ، ويرتبط هذا الغزل إلى حدٍّ بعيدٍ بمجالس اللَّهو، وما كان يجري فيها من عبثٍ ومجون، وما تقدِّمه المرأة من صنوف الإثارة والإغواء. كما في قول راجح الحلي يصف مجلس ساقية في أحد مجالس اللَّهو[1]:

فَمَا قُعُودُكَ بِي عَنْ بِنْتِ دسكرةٍ ... يُغْنِيكَ لألاؤُهَا فِي اللَّيْلِ عَن قَبَسِ
يُدِيرهَا ثَمِلُ الأعْطَافِ قَامتُهُ ... لَوْ مثلتْ لغصونِ البَانِ لَمْ تمسِ
سَعَى بِهَا والدُّجَى مِن حلي أنجُمِهِ ... عَارٍ ولكن بِأنْوَارِ الكُؤوسِ كُسي
والسُّحُبُ تَضحَكُ ثَغْرُ النُّورِ أدْمُعُهَا ... والجوُ فِي مَأْتَمٍ والأرْضُ فِي عُرِسُ
ظَبيُ وقائِعِ طَرفِي فِي مَحَبَّتِهَ ... بَيْنَ اللمى وفتورِ الجفنِ واللَّعْسِ
نَبَّهْتُهُ وَنُجُومُ اللَّيْلِ تَسْبَحُ فِي ... بَحْرِ الظَّلامِ فَمن طافٍ ومُنْغمسِ
فقامَ يمسحُ ما فِي الجِّفْنِ مِن سنةٍ ... وقد تمشى الكَرَى فِي الأعْينِ النُعُسِ
فَسكَّنتْ سورةُ الصَّهْباءِ شرته ... واستودَعَتْ بَعْضُ ما في الخَلْقِ من شَرسِ
فَمَا ضَمَمْتُ الذي فِي العَطْفِ مِن هيفٍ ... حتَّى استكنَ الذي فِي الوَطْفِ مِن شوسِ

ويطلب عين بصل من صاحبه الإسراع إلى إحدى الحانات لشرب الخمر، والتمتُّع برؤية جمال السَّاقيات اللَّواتي يتمتَّعن بجمالٍ طاغٍ[2]:

قُمْ يَا نَدِيمِي إلى شُرْبِ المُدَامِ بِهَا ... مِن قَبلُ يُدْرَكُ بَدرُ السَّعْدِ نُقْصَانُ
فَأَنْتَ فِي جَنّةٍ مِنْهَا مُزَخْرَفَةٍ ... وَقَدْ تَلَقَّاكَ بالرِّضْوَانِ رَضْوَانُ
كأنَّ مَنْثُورَهَا إذْ لاحَ مُبْتَسِماً ... جَيْشٌ مِنَ الرُّومِ بَانَتْ فِيه صُلْبَانُ
كأنَّمَا البانُ أهْدَى المسْكَ حِيْنَ بَدَا ... فَعَطَّر الكونَ لَمَّا أوْرَقَّ البانُ
كَأَنَّ رِيْحُ الصّبَا طَافَتْ بخمرِ هوىً ... من الرِّيَاضِ فَكُلُّ الكَوْنِ نَشْوَانُ
كأنَّمَا حُمْرَةُ التُّفَّاحِ خَدُّ رَشَاً ... لِي فِي هَوَاهُ عَن السلوانِ سلوانُ
كَأَنَّ نَارِنْجهَا نَارٌ وبَاطِنُهُ ... ثَلْجٌ وَفِيْهِ لجينٌ وَهْوَ عقيانُ

1: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص8؛ راجح الحلي، **الديوان**، ص420

2: **الكتبي، فوات الوفيات**،ج1، ص35.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصف صدر الدِّين ابن الوكيل مواطن جمال إحدى السَّاقيات، مفصِّلاً القول فيها، فهي رقيقة الخصر، تخشى الأهلة وجهها، والأغصان تثنيها، والأشجار الطويلة قامتها، مصوِّراً امتلاء أردافها، وجمال قامتها، وسواد شعرها، وحمـــرة وجنتيهـــا، وعذوبة ريقها[1]:

هَيْفَـــاءُ جَارِيَـــةٌ للـــرَّاحِ سَـــاقِيَةٌ ... من فوقَ ساقيةٍ تَجري وتنـــسربُ
من وَجْهِهَـــا وتَثْنِيهـــا وقَامَتُهَـــا ... تَخْشَى الأهلةُ والقُضْبَانُ والقضبُ
يَا قَلْبُ أَرْدَافُها مَهْمَا مَرَرْتَ بِهـــا ... قِفْ بِي عَليها وَقُلْ لِي هَذِهِ الكثُبُ
وإنْ مَرَرْتَ بشَعْرٍ فَـــوْقَ قَامتهـــا ... بِاللهِ قُلِّي لِيَ كَيْفَ البَانُ والعَـــذَبُ
تُرِيك وَجْنَتَهَا مَا فِـــي زُجَاجَتِهـــا ... لكـــنْ مذاقتُـــهُ للرِّيـــقِ تنتـــسبُ
تَحْكِي الثَّنَايَا الذي أَبْدَتْهُ مِن حَبَبٍ ... "لَقَدْ حكيت ولكن قاتـــك الـــشَّنَبُ"

وبقيت الصورة التي رسمها الشُّعراء للمرأة تقليديّة كمـــا كانـــت علـــى مـــرِّ العصور، وهي صورة تمثِّل المرأة التي اكتملت فيها صفات الجمال الجسدي؛ أي أنَّه لم يطرأ تغيُّر على الذَّوق الجمالي لدى الشُّعراء، كما في قول شـــمس الـــدِّين ابـــن العفيف التلمساني، مبيِّناً مواطن الفتنة والإثارة في قامتها وخدّها وفمها، يقول[2]:

وَإِنْ هَزَّ عِطْفَيْكَ الـــصِّبَا مُتمـــايِلاً ... أَضَاعَ الهَوى نُسْكِي وغُيِّبْتُ عَنْ لُبِّي
فَدعْنِي وَهَذا الخَدَّ أَعْصِرُ في فَمِـــي ... عَنَاقِيدَ صُدْغَيْهِ وَحَسْبِي بِـــهِ حَـــسْبِي
لَوَ أَنَّ تُجَارَ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ شَاهَدُوا ... ثَنَايَاكَ ما عَنّوُا على اللُّؤْلُؤِ الرَّطْـــبِ

1: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج4، ص16؛ الشاب الظريف، شمس الدِّين محمَّـــد ابـــن العفيـــف التلمساني، (ت 688هـــ)، (1995م)، **ديوان الشاب الظريف**، تحقيق: شاكر هادي شـــاكر، مكتبة النهضة العربية – دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ص63.

2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج3، ص374.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

3.1.2 **الغزل الغلماني**:

بدأ التغزّل بالمذكّر منذ القرن الثاني الهجري على أيادي عصبة من المجان، وعلى رأسهم أبي نواس، تعبيراً عن واقع عاصروه حقيقة، وليتحدُّوا بـــه أعـــراف المجتمع والأدب معاً[1].

وعند النَّظر في هذا الغرض في فترة الحروب الصليبيّة، تطالعك آراء لعـــددٍ من الباحثين؛ فقد علَّل محمَّد زغلول سلام انتشار هذا اللَّون إلى سبى الحروب مـــن غلمان الإفرنج، وما كان يجلبه تجار الرَّقيق من أطفال الأتراك من أصقاع آســـيا[2]، فمنهم من رأى أنَّه قيل بسبب بواعث نفسيّة أساسها سياسي، وهو الانتقام اللاشعوري من الأتراك وغيرهم الذين سيطروا على البلاد، لذلك كان معظم التغـــزُّل بالمـــذَّكر منهم[3]، ورأي يقول أنَّه: امتداد لغزل أبى نواس بالمذكر[4]، وهناك من رأى أنَّه يقـــال بقصد المتعة والإطراف ليس غير[5].

وفي كتاب (فوات الوفيات)، نجد من هذا النوع عدد لا بأس منه، بعضه يمثِّل جانباً حقيقيّاً وواقعاً يعيشه الشَّاعر كما في ترجمة شعر الزنج[6] التي احتـــوت فقـــط شعراً قيل في غلام يحب التفاح، وقد بيَّن الكتبي في هذه الترجمة ما جـــرى لـــشعر

1: الهيب، **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**، ص291.

2: سلام، محمَّد زغلول، (1967م)، **الأدب في العصر الأيـــوبي**، دار المعـــارف – القـــاهرة، ص328.

3: الكفراوي، محمَّد عبدالعزيز، (1968م)، **تاريخ الشعر العربي**، مكتبة نهضة – القاهرة، ج4، ص109.

4: باشا، عمر موسى، (1972م)، الأدب في بـــلاد الـــشام – **عـــصر الـــزنكيين والأيـــوبيين والمماليك**- المكتبية العباسية، دمشق – سوريا، الطبعة الثانية، ص315.

5: الرقب، شفيق محمَّد، (1993م)، **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، دار الصفاء للطباعة والنشر، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ص61.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص280-284. وانظر كذلك، الصفدي، صلاح الـــدِّين أبـــو الصَّفاء خليل بن أيبك، (ت764)، (2001م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرنـــاؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت ج4، ص13.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزنج من هذا الغلام، وجانباً آخر قيل تقليداً ومجاراة لظروف العصر الذي يعيش فيه الشَّاعر.

ونجد أنَّ الشُّعراء يضمِّنون أشعارهم أسماء الغلمان المتغزَّل به في سبيل إضفاء قَدْرٍ من الواقعيّة، وتقرُّباً لهؤلاء الغلمان إذا ما واجهوا صدَّاً ورفضاً، يقول فخر الدِّين ابن لقمان في غلامه "غلمش"[1]:

لَوْ وَشَى فِيْهِ مَنْ وَشَى مَا تَسَلَّيْتُ غَلْمَشَاَ
أنَا قَدْ بُحْتُ باسمِهِ يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَا

واتَّخذ بعض الشُّعراء من أسماء الغلمان الصباح مادة ثرية للألغاز وإظهار براعتهم اللفظيّة، وقدرتهم على التعمية، كما في قول ابن نفاذة يلغز في غلام اسمه يوسف[2]:

يَا سَائِلِي مَا اسمُ الذي أحْبَبْتَهُ إنِّي بِسرِّ هَوَاهُ غيرُ مُصَرِّحِ
لكن إذَا فَكَّرْتَ فِيْهِ وَجَدْتَهُ مَعْكُوسَ سابعِ لَفْظةٍ فِي سَبحِ

ويتلاعب أبو جلنك الشَّاعر في حروف اسم محبوبه مسعود ليصوغ من ذلك لغزاً طريفاً على هذا النَّحو[3]:

اسمُ الذي أهَوَاهُ فِي حُرُوفِهِ مَسألَةٌ فِي طَيِّهَا مَسَائِلُ
خُمْسَاهُ فِعْلٌ وَهْوَ فِي تَصْحِيفِهِ مُبَيَّنٌ والعَكْسُ سُمٌّ قَاتِلُ
تُضِيءُ بَعْدَ العَصْرِ إنْ جِئْتَ بِهِ مُكَرِّرَاً مَن عَكْسِكَ المَنَازِلُ
وَهْوَ إذَا صَحَّفْتَهُ مُكَرَّرَاً فَاكِهَةٌ يَلْتَذُّ مِنْهَا الآكِلُ
وَفِيْهِ طِيْبٌ مُطْرِبٌ وَطَالَمَا هَاجَتْ عَلَى أمْثَالِهِ البَلابِلُ

ويقول الشَّيخ صدر الدِّين ابن الوكيل في مليح اسمه خليل، وقد شبَّهه بسيِّدنا يوسف u[4]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص44.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص84.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص60.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص18.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخليلُ قَلْبِي وَهْوَ يُوسفُ عَــصْرِهِ قَلْبِي الكَلِيْمُ رميتُ فِي النِّيرَانِ
قطعتُهُ مُــذْ كَــانَ قَلْبِــاً طَــائِرَاً وَدَعَوْتُهُ فَــأَتَى بِغَيْــرِ تَــوَانِ
يَا نُورَ عَيْنِــي لا أرَاكَ وهكَــذَا إنْسَانُ عَيْنِي لا يَرَاهُ عَيَــانِي

ويلاحظ أنَّ جُلَّ الغلمان المتغزَّل بهم كانوا من الأتراك، ولعلَّ هذا يعود إلــى كثرة هؤلاء الغلمان في الحياة العامّة. وقد صوّر الشُّعراء جمال هــؤلاء الأتــراك، وإشراق وجوههم، مائلين أحياناً إلى قدرٍ كبيرٍ من الحسيّة في الوصف، كما في قول ابن الحلاوي في أحد الغلمان الأتراك، مبيِّناً السِّمات التي تفرِّقه عن العرب من حيث طرائق العيش، وخصائص الخلقة[1]:

مِنَ التُرك لا يُصبيهُ وَجْدٌ إلى الحِمَى وَلا ذكرُ باناتِ الغويرِ تَــشوقُهُ
وَلا حَــلَّ فِــي حــيٍّ تَلُــوحُ قِبَابُــهُ وَلا سَارَ فِي رَكْبٍ يُسَاقُ وَسُوقُهُ
وَلا بَــاتَ صَــبَّاً بِــالفَرِيْقِ وَأَهْلِــهِ وَلَكِنْ إلى خَاقَانِ يُعْزَى فَرِيقُــهُ
لَــهُ مَبْــسَمٌ يُنْــسِي المُــدَامَ بَرِيقُــهُ وَيَخْجَلُ نُوَّارُ الأَقَــاحِي بَرِيْقُــهُ

ولعلَّ الأمر الطريف أنّ الشُّعراء في تغزلهم بالغلمان الأتراك كانوا يمزجون بين معاني الغزل وصفات الفروسيَّة التي يتَّصفون بها، كما في قول ابــن الــصفَّار المارديني يصف مجموعة من الترك ظهرت عند الصَّباح فوق صهوات الخيل[2]:

تَبَدَّتْ لَنَا عِنْدَ الصَّبَاحِ طَلِيْعَةٌ مِنَ التُّرْكِ مرد فَوْقِ جُرْدٍ سَلاهِبِ
بِأَيْدِيهم سمرُ طِــوَالٍ كَأَنَّمَــا أَسِنَّتُهَا تَبْغِــي الْتِقَــاطَ الكَوَاكِــبِ

ومن السِّمات الجماليّة التي اتَّصف بها الغلمان الأتراك ضيق العيون، كما في البيتين التاليين الذين عبّر فيهما المتيَّم الإفريقي عن افتتانه بغلام تركي متفنِّنــا فــي التصوير[3]:

قَلْبِي أَسِيْرٌ فِي يدي مُقْلَــةٍ تُركِيَّةٍ ضَاقَ لَها صَــدْرِي
كَأَنَّها مِ ضــيقِهَا عُــرْوَةٌ لَيْسَ لَها زِرٌّ سِوَى السِّحْرِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1 ص146.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص120.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص150.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحاول بعض الشُّعراء أنّ يضفوا مسحة عذريّــة علــى تغــزُّلهم بالغلمــان الأتراك، مبدين قدراً من التَّهالك العاطفي، كما في قول الصفِّيّ الحليّ الذي جعل حبّه لأحد الغلمان مخاطرة[1]:

للترك ما لــيَ تــركُ، ما دِينُ حُبّيَ شِــرْكُ
أخلَصتُ دينَ هَــواهم، فحــبهمّ لــيَ نــسكُ
خَاطَرْتُ بِالنَّفْسِ فيهم، ومَسلَكُ العِشقِ ضَنكُ

وأكثر الشُّعراء من الصُّور الحربيّة في التغزُّل بهؤلاء الغلمان، كما في قــول الشَّاعر سبط ابن عبد الظَّاهر في مليح وسطه مشدود ببندٍ أحمر[2]:

وَبِي قَامَةٌ كالغُصْنِ حِيْنَ تَمَايَلَتْ وكالرُّمْحِ فِي طَعْنٍ تقــدُّ وفــي قَــدِّ
جَرَى من دَمِي بَحْرٌ بِسَهْمٍ فِرَاقُهُ فَخَضَّبَ مِنْهُ مَا عَلى الخَصْرِ مِن بَنْدِ

ويقول أبو البحر صفوان في مليح يرمي نارنجاً في بركة، حيث تكثر الألفاظ الدَّالة على روح العصر من حرب وصراع مثل: "يــروع، يقــذف، النــارنج، دم، دروع،"[3]:

وَشادِنٍ ذِي غَــنَجٍ دَلَّــهُ يَروقُنا طَوراً وَطَوراً يَرُوعِ
يَقذِفُ بِالنارَنجِ في بِركَةٍ كَلاطِخٍ بِالدَمِ سُودَ الــدُّروعِ
كَأَنَّهــا أَكبــادُ عُــشّاقِهِ يَتبَعُها في لُجِّ بَحرِ الــدُّموعِ

وهذه المزاوجة بين ألفاظ الغزل والحرب كانت تُخرج بعض الــشُّعراء عــن الذَّوق السَّليم في التعبير، كما في قول ابن سعد الخير يصف ما حلَّ به وبأصــحابه من أحد الغلمان[4]:

وَمُهَفهَفٍ يَجرِي بِصَفحَةِ خَدِّهِ وَلَماهُ مِن ماءِ الحَياةِ عُبابُهُ
مَا زَالَ يَهتِكُ بِاللِّحاظِ قُلُوبَنــا حَتّى تَضَرَّجَ طَرفُهُ وَثِيابُهُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص345؛ راجح الحلي، **ديوانه**، ج1، ص699.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص94.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص120.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص462.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَغَدا بِحُمرَةِ ذا وَحُمــرَةِ هــذِهِ كَالسَّيفِ يَدمَى حَدُّهُ وَقِرابُهُ

ويصوِّر ابن النبيه غلاماً، واصفاً جماله، وفتك هذا الجمال في الناس، الــذي أمعن فيهم أسراً وقتلاً، طالباً أخذ الحيطة والحذر من عذاره، محذِّراً من فتنة جديــدة بعد نمو عارضه، وكأنَّه في ساحة المعركة[1]:

رَنا وَانْثنى كالسَّيفِ وَالصَّعْدَةِ السَّمْرا فَما أَكْثَرَ الْقَتْلَى وَما أَرْخَصَ الأَسْرى

خُذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ خــارِجِيٍّ عِــذارِهِ فَقَدْ جاءَ زَحْفاً فِي كَتِيبَتِــهِ الْخَــضْرا

غــلامٌ أرادَ اللَّــهُ إِطْفــاءَ فِتْنَــةٍ بِعارِضِهِ فَاسْــتَأْنَفَتْ فِتْنَــةً أُخْــرى

فَــزَرْفَنَ بِالأَصْــداغِ جَنَّــةَ خَــدِّهِ وَأَرْخَى عَلَيْها مِنْ عَوارِضِــهِ سِــتْرَا

أَغَرُّ يُناجي شَــعْرُهُ حَلْــيَ خِــصْرِهِ كَما يُعْتِبُ الْمَعــشوقُ عاشِــقَهُ سِــرَّا

أُخوضُ عُبابَ الْمَوْتِ مِنْ دونِ ثَغْرِهِ كَذاكَ يَغُوصُ الْبَحْرَ مَن طَلَبَ الــدُّرَّا

ويصوّر هذا الشعر الغلماني في بعض جوانبه شذوذاً في الذَّوق الجمالي لدى بعض الشُّعراء، فنراهم يفضلون الغلمان على النِّساء، كما في قول الــصفي الحلــي الذي يعبِّر عن نزوع قوي نحو الجمال الغلماني، وما يتمتَّع به هؤلاء الغلمــان مــن حيوية ونشاط تغنيه عن (فترة النِّسوان)، وريح طيِّبة تفوق شذى الطِّيب الذي تتَّخــذه المرأة، كما تشفّ الأبيات عن اتِّخاذ هؤلاء الغلمان، أو بعضهم، الأقراط في أذانهــم، بل يبالغ الشَّاعر في نزوعه هذا حتى انَّه لو دخل الجنّة لم يكن مائلاً إلاَّ إلى ما فيها من (ولدان)[2]:

خَلِيَّــانِي مَــن فَتْــرَةِ النِّــسْوَانِ وانْعَشَانِي بِنَــشطة الغُلمــانِ

أَبْدَلانِي مَن نَفْحَةِ المِّــسْكِ والنَّــدِ بريحِ الكيمخــتِ والزَّعْفــرانِ

ذَاكَ عطري ما زالَ يَعْبَقُ فِي بر دي من موزةٍ ومــن قفطــانِ

ليسَ يَصْبُو لربــةِ القلــبِ قَلبِــي بل لربِ الأَقراطِ حنَّ جنــانِي

فاخليا من فلانةِ خــرتِ سَــمْعِي وَامْلأ مَسْمَعِي بِــذِكْرِ فــلانِ

واتْرُكَا الفِتْنَةَ التِــي قِيْــلَ عَنْهَــا إِنَّهَا مِــن حَبَائِــلِ الــشَّيْطَانِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص69.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص346؛ الصفي الحلي، **ديوانه**: ج1، ص850.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيْنَ منِّـــي ذَاتِ الخِمَـــارِ بِحَمَـــا ... مٍ وَفِي مَوْكِبٍ وَفِـــي بُـــسْتَانِ
فلِهـــذَا لا أرْتَـــضِي العَـــيْشَ إلاَّ ... مَع حَبِيْبٍ تَرَاهُ حَيْثُ تَرَانِـــي
إنْ رَآهُ ذُوو البَـــصَائِرِ قَـــالُوا: ... غَيْرُ مُسْتَحْسَن وَصَال الغَوَانِي
فَلَوْ إنِّي فَوَّضتُ فِي جَنَّة الخُلْـــ ... ـــدِ وُصُرِفْتُ فِي نَعِيْمِ الجِنَانِ
لَمْ أكُنْ مَائِلاً إلى طِيْبِ وَصْلِ الْـــ ... ـــحُوْرِ إلاَّ مَع عِزَة الوِلْـــدَانِ

ولا تخلو هذه الأشعار من المبالغة أحياناً، كما في قول الملك الأمجد، يـــصفُ خدّ غلامه، حين احضر له الماء فانعكس خدّ الغُلام في الماء موهمـــاً الملـــك أنَّـــه خمر[1]:

دعوتُ بماءٍ في اِناءٍ فجـــاءني ... غلامٌ بها صرفاً فأوسعتُه زَجْرا
فَقَالَ: هو الماءُ القِرَاحُ وإنَّمـــا ... تَجَلَّى لها خَدِّي فأوْهَمَكَ الخَمرَا

وكان بعض هؤلاء الغلمان من النَّصارى الذين يعملون في الحانات، فيعابثون الشُّعراء، ويستملح الشُّعراء ذلك منهم، مصوِّرين حركتهم الدؤوبة في أماكن اللَّهـــو، وما يثيره ذلك في نفوسهم من نشوة بما يرون من صفات الغلمان وحركاتهم، كما في قول سيف الدِّين المشد[2]:

وَبِي غَرِيرٌ يُحَاكِي الظَّبْيَ مُلْتَفِتَـــاً ... أغَنُّ أغْيَدُ عَقْلِي فِيْهِ قَـــدْ حَـــارَا
يَصْبُو الحَبَابُ إلى تَقْبِيْلِ مَبْـــسَمِهِ ... وتَكْتَسِي الرَّاحُ مِنْ خَدَّيْهِ أنْوَارَا
مِنْ آلِ عِيْسَى يَرَى بَعْدى يقرُّ بِهِ ... وَلَمْ يَخَفْ مِنْ دَمِ العُشَّاقِ أوزارَا
لأجْلِهِ أصْبَحَ الـــرَاووقُ مُنْعَطِفَـــاً ... عَلى الصَّلِيبِ وَشَدَّ الكأسُ زنارَا

وقد يأتي بعض هذا الغزل بديهةً عندما يرى الشَّاعر غلاماً في موقـــفٍ مـــا، فتنبجس نفسه بأبيات قصيرة أشبه ما تكون باللَّقطة الشِّعريّة الخاطفة، كما في قـــول

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص226؛ الملك الأمجد، بهرام شاه الأيوبي، (1991م)، **ديوان الملك الأمجد**، تحقيق: غريب محمَّد علي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص330.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص53.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نجم الدِّين ابن إسرائيل وقد شاهد مليحاً يغني، فصوَّر عذوبة صوته، وتثنِّي قامتــه، ومهارته في الضَّرب على الدَّف[1]:

وأهيَفُ إنْ غَنَّى فَعَمــرِيٌّ بانــة ... وإنْ مَاسَ من عجبٍ فبعضَ غُصُونِهَا

تَحَرَّكَ خَلْفَ الدَّف حَتَّى تَحَرَّكَتْ ... قُلُــوبُ رِجَــالٍ فَجِعَــتْ بِــسُكُونِهَا

وأكثر الشُّعراء في سياق تغزلهم بالغلمان من الحديث عن العِذار[2] في مقطوعات قصيرة كانت غايتهم فيها طلب المعنى الطَّريف والصُّور المبتكرة، كما فــي قــول جمال الدِّين بن النجَّار واصفاً محاسن أحد الغلمان الذي زاده عــذاره حــسناً علــى حسن[3]:

لَقَدْ نَبَتْتْ فِي صَحْنِ خَدِّكَ لِحْيَــةٌ ... تَأَنَّقَ فِيْهَا صَانِعُ الإِنْسِ والجِنِّ

وَمَا كُنْتَ مُحْتَاجاً إلى حُسْنِ نَبْتِهَا ... وَلَكِنَّهَا زَادَتْكَ حُسْنَاً إلى حُسْنِ

ويصف أبو جلنك الشَّاعر عذار غلام وقد نبت شعره، طالباً من باقي الغلمان الاعتبار بما جرى لهذا الغلام الذي نفروا عنه العشَّاق بسبب تغيُّر حاله[4]:

أَتَى العُذَّارُ بِمَاذَا أَنْــتَ مُعْتَــذِرٌ ... وَأَنْتَ كَالوَجْــدِ لا تُبْقِــي وَلا تَــذَرُ

لا عُذْرَ يُقْبَلُ إنْ نَمَّ العُــذَّارُ وَلا ... يُنْجِيْكَ مِن خَوْفِــهِ بَــأْسٌ وَلا حَــذَرُ

كَأَنَّنِي بِوُحُوشِ الشِّعْرِ قَدْ نَزَلَتْ ... بِوَجْنَتَيْــكَ وبِالعُــشَّاقِ قَــدْ نَفَــرُوا

وكُلَّمَا مَرَّ بِي مُرْدٌ أَقُولُ لَهُــمْ: ... قِفُوا انْظُرُوا وَجْهَ هَذَا الحُرِّ واعْتَبِرُوا

ويجعل علاء الدِّين ابن بنت الأعزّ الشَّعر النَّابت على خدِّ غُلامه مِسْكاً لَم لا ومحبوبهِ غزال[5]:

وقالوا بالعذارِ تَسَلَّ عَنْهُ ... وَمَا أَنَا عَن غَزَالِ الحُسْنِ سَالِي

وإنْ أَبْدَتْ لَنَا خَدَّاهُ مِسْكَاً ... "فإنَّ المِسْكَ بعضُ دم الغَــزَالِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص388.

2: العِذَارُ: استواء شعر الغلام يقال ما أَحْسَنَ عِذَارَه أَي خطَّ لحيته؛ انظر: **لسان العــرب**، ابــن منظور: محمَّد بن مكرم بن علي، (ت 711هــ)، ج4، ص545. مادة: عذر.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص19.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص61.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص107.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصف تقي الدِّين بن أبي اليسر عذار غلامه، مصوِّره عذاره بالنَّمل الـــذي يسير بخط مستقيم ومنظَّم[1]:

قصصي بنملِ عذارةِ مكتوبـــةً يَا حُسْنَ مَا خَطَّ الجَمالُ وأجملَهْ
واللهِ لا أهْمَلْـــتُ لامَ عِـــذارةٍ يَا عاذِلِي مَـــا كُـــلُّ لامٍ مهملَـــهْ

ويردُّ عرقلة الدمشقي على الذين يطلبون منه الابتعاد عن غلامه بسبب نمـــوّ شعره، بأنَّه صبورٌ ولا يخشى من عذار غلامه الذي يـــصوِّره نمـــلاً لا يمكـــن أن يضرّه[2]:

قالَ قَوْمٌ بَدَا عِذارُ وُهيـــبٍ فاسْلُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: لا، كَيْفَ أسْلُو
أَنَا جَلْدٌ على لِقا أُسْدِ عَيْنِي هـــُو أَخْشَى عِذارَه وَهْـــوَ نَمْـــلُ

ونمو العذار عند ابن جكينا البغدادي زينة لخدِّ غلامه وكتاب عتق له[3]:

لَمَّا بَـــدَا خَـــطُّ العَـــذَا رِ يُـــزَيِّنُ خَدَّيْـــهِ بمـــشقِ
وَظَنَنْـــتُ أنَّ سُـــوَارَهُ فَوْقَ البَيَاضِ كِتابُ عِتْقِـــي
فإذَا بِهِ من سُوءِ حَـــظِّ ـــي عُهْدَةٌ كُتِبَـــتْ بِرِقِّـــي

ويتعجَّب سيف الدِّين المشد من غلام عندما بدأ ينمو عذاره مستخرجاً من ذلك صورة فنيّة جميلة يقول[4]:

وَأغْيَدَ لَمَّا لاحَ خَطُّ عِـــذارِهِ عَلى خَدِّهِ ازْددتُ مِنْهُ تَعُجُبَـــا
رَأيْتُ بِهِ التُفَّاحُ أنْبَتْ سَوْسَنَا فأصْبَحَ مسكيّا وكانَ مُخَـــصَّبَا

وكانت مجالس الخمر معرضاً للجمال الغلماني يقصدها الشَّاعر طلبـــاً للهـــو وتسلية واستمتاعاً بجمال أولئك الغلمان، كما في الأبيات التالية التي يجاهر فيها ابن النبيه بلهوه في إحدى الحانات حتى الصَّباح، واستمتاعه بشرب الخمر من أيدي أحد

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص170.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص313؛ عرقلة الكلبي، حسان بـــن نميـــر، (ت 567هـــ)، (1970م)، **ديوانه**، تحقيق: أحمد الجندي، مطبع دار الحياة – دمشق، ص 72.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص320.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص52.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السُّقاة؛ وهنا يستطرد الشَّاعر إلى وصف جمال هذا السَّاقي الذي فتن بقوامه وبالعذار الذي زين خده، وبوجهه الصَّبوح، وحسن مبسمه، وذبول عينيه[1]:

قُمْ يا غُلاَمُ وَدَعْ مَقالَةَ مَــنْ نَــصَحْ ... فَالدِّيكُ قَدْ صَدَعَ الدُّجى لَمَّا صَــدَحْ
خَفِيتْ تَباشِــيرُ الــصَّباحِ فَــسَقِّني ... ما ظَلَّ فِي الظَّلْماءِ مِنْ قدحِ القَــدَحْ
صَهْباءُ ما لَمَعَتْ بِكَــفِّ مُــديرِها ... لِمُقَطِّــــبٍ إِلاّ تَهَلّــــلَ وَانْــــشَرَحْ
هِيَ صَفْوَةُ الكَرْمِ الْكَريمِ فَما سَرَتْ ... سَــرَّاؤُها فِــي باخِــلٍ إِلاَّ سَــمَحْ
مِنْ كَــفِّ فَتَّــانِ الْقَــوامِ بِوَجْهِــهِ ... عُذْرٌ لِمَنْ خَلَعَ الْعِــذارَ أَوِ افْتَــضَحْ
ولَّــى بِــشَعْرٍ كَــالظَّلامِ إِذْا دَجــا ... وَأتى بِوَجْهٍ كالــصَّباحِ إِذْا وَضَــحْ
يَهْتَزُّ كالْغُصْنِ الرَّطيبِ عَلى النَّقــا ... ذَا خَفَّ فِي طَيِّ الْوِشاحِ وَذا رَجَــحْ
النَّرْجِسُ الْغَضُّ اسْتَحى مِنْ طَرْفِــهِ ... وَبِثَغْرِه زَهْرُ الأَقــاحِ قَــدِ اتَّــضَحْ
فَكَأَنَّــــــهُ مُتَبَــــــسِّمٌ بِعُقُــــــودِهِ ... أَو بِالثَّنَايَــا قَــد تَقَلَّــدَ وَاتَّــشَحْ

ويتغزَّل المنشئ الإربلي بفتى تركي يطوف بالخمرة على الحاضرين[2]:

طَافَ بِها واللَّيل وَحْفُ الجَنَاحُ ... بَدْرُ الدُّجَى يَحْمِلُ شَمْسَ الصَّبَاحِ
وَفَــازَ بِالرَّاحَــةِ عُــشَّاقِه ... لَمَّا بَدَا فِــي كَفِّــهِ كَــأْسُ رَاحِ
ظَبْيٌ مِنَ التُّــرْكِ لَــهُ قَامَــةٌ ... يَزْرِي تَثنِيهَا بِــسُمْرِ الرِّمَــاحِ
عَارِضَــهُ آسٌ وفِــي خَــدِّهِ ... وَرْدُ نَــضِيْرٍ والثَّنَايَــا أَقَــاحِ

ويبدو أنّ قسماً من هذا الغزل الغلماني كان يقال ارتجــالاً - كمــا ســبق إن ذُكِرَ- لذا فهو لا يعبِّر عن حب أو تعلُّق حقيقي بغلامٍ ما، وإنَّما كان أشــبه بخــاطرة ترد على النَّفس عند رؤية غلام في هيئة معيَّنة، فيصوِّر الشَّاعر ذلك بأبيات موجزة تهدف إلى الإمتاع، كما قول الرَّشيد النابلسي، وقد رأى مليحاً بديع الــصورة بــين أسودين قبيحي الصورة[3]:

للهِ مَنْ عَايَنَتْ عَيْنِــي مَحَاسِــنَهُ ... يَوْمَاً فعوذتَــهُ بــاللهِ مِــنْ عَيْنِــي

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص73.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص59.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص275.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَخْتَالُ كالغُصْنِ تِيهاً فِي شَمَائِلِهِ مَا بَيْنَ عَبْدَيْنِ لَوْنَ اللَّيــلِ علجــينِ
فقلتُ والشَّوقُ يَطويني ويَنْشُرُني لَمْ أَلقَ قَبْلَكَ صُــبْحَاً بَــيْنَ لَيْلَــينِ
فَمَرَّ يَضْحَكُ مِنْ قَوْلِي وَقَالَ بَلَى كَمْ قَدْ رَأى النَّاسَ سَعْدَاً بَيْنَ نَحْسَيْنِ

وكما في قول عبد السَّلام الحنبلي في مليح يلبس ثياب حمراء، فيستشف مــن قوله أنَّه لم يصدر من عاطفة حقيقية تعبِّر عن حب لهذا الغلام، وإنَّمــا هــو أمــر عارض صادفه فأتى ببعض الأبيات التي تصوِّر الموقف المذكور[1]:

قَالُوا مَلابِــسُهُ حُمْــرٌ فَقُلْــتُ لَهُــمْ هَذِي الثِّيَابُ ثِيَابُ الصَّيْدِ والقَنَصِ
تَرْمِي بِسَهْمِ لِحَاظٍ طالَمــا أَخَــذَتْ أَسْدُ القُلُوبِ فَتلقيها لَــدى قَفَــصِ
فَاللَّونُ في الثَّوبِ إمَّا مِن دَمَاً مهــج أو انعِكاسِ شُعَاعِ الخَدِّ بــالقَمَصِ

ومن الغزل الغلماني الذي قيل بلا عاطفة تذكر بيتين لصفي الحلي في ملــيح قلع ضرسه، فاستغل المناسبة ليرتجل في محاولة منه لمسايرة العصر الذي كثر فيه القول بالمذكر[2]:

لَحى اللَهُ الطَبيبَ لَقَد تَعَدّى وَجاءَ لِقَلعِ ضِرسِكَ بِالمُحالِ
أَعاقَ الظَبيَ عَن كِلتا يَديهِ وَسَلَّطَ كَلبَتَينِ عَلــى غَــزالِ

واسترعى نظر ابن حمود الحلبي فتى يرتدي لباساً أصفراً فارتجل بيتين التقط فيهما صورة فريدة لهذا الفتى[3]:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا أنْ بَصِرْتُ بِهِ فِي حِلَّةٍ صَفْرَاءٍ كالوَرَسِ
أو مَــا كَفَــاهُ أَنَّــهُ قَمَــرٌ حَتَّى تَدَرَّعَ حُلَّةَ الشَّمْسِ

ونلحظ أن بعض الشُّعراء في تغزُّله بالغلمان يقوم بتحويل العيوب الجــسديّة إلى فضائل، كما في قول محيي الدِّين بن عبد الظاهر في أعــور، الــذي لا يــستر عورته، بل يكشفها دون أدنى حياء أو خوف معلِّلاً ذلك بأنَّ عورته مكشوفة دائماً[4]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص325.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص349؛ الصفي الحلي، **ديوانه**، ج2، ص866.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص395.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص191.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعورُ العَيْنِ ظَلَّ يَكْـشِفُهَا بِلا حَيَاءٍ مِنْه وَلا خِيْفَـه
وكَيْفَ تَلْقَى الحَيَاءَ عِنْدَ فَتَىً عَوْرَتُهُ لا تَزَالُ مَكْشُوفَه

وكذلك قول سيف الدِّين المشد في أرمد، بأنَّ هذا الرَّمد لم ينقص من حسنه شيء؛ لأنَّ نرجس عينيه صار ورداً[1]:

وَشَادِنٍ هِمْتُ فِيْهِ وَجْدَاً لَمَّا اعتدَت مُقْلَتَاهُ رَمَـدَا
لَمْ يَنْتَقِصْ حُسْنُهُ ولكِنَّ نَرْجِسُ عَيْنَهُ صَارَ وَرْدَا

2.2 الشِّعر الاجتماعي:

نُقِلَ الشِّعر الشَّامي والمصري زمن الحروب الصليبيّة نبض المجتمع بكل تفاصيله الشعبيَّة والرسميَّة، فصوّر الشُّعراء الحياة العامة، ووصفوا كثيراً من مظاهرها، الايجابيّة والسلبيّة، وممَّا ساعد على ذلك كثرة الشُّعراء الذين كانوا من عامّة النَّاس[2].

وقد ضمّ كتاب (فوات الوفيات) شعراً يصوِّر جوانب المجتمع المختلفة في ذلك العصر؛ فالكتاب يشكِّل جزءاً من المصادر التي نقلت إلينا تراث ذلك العصر، ومن هذا التراث الجانب الاجتماعي، وإن قصّر المؤلِّف في جمع قدر يعكس كل جوانب المجتمع وقتذاك، إلاَّ أنَّ ما ضمّنه مؤلَّفه يساعد في الكشف عن بعض الصور والعلاقات الاجتماعيّة في عصر الشُّعراء المترجم لهم.

1.2.2 اللَّهو والمجون:

لعلَّ من أهمِّ الأحداث الاجتماعيّة في ذلك العصر، ما قام به بعض الملوك يومئذ من تريم تناول الخمر والحشيش واقتراف الفسق والفجور، فالعصر تفشَّى فيه الفساد الخلقي – خاصةً - في مصر، وقد علَّل أحد الدَّارسين المحدثين ذلك بكثرة

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص53.

2: الرقب، **دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبي والمملوكي**، ص137.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاضطرابات والأحوال السياسيّة التي انعكست على الأدب[1]، وقد انقسم الشُّعراء إزاء هذا الحادث قسمين: قسم فرح مبتهج، بانتصار كلمة الدِّين، وتدمير ما يدفع إلى انحطاط عزيمة الأمَّة، وقسم حزين لتحريم ما كان يبعث في نفسه البهجة ويثير المسرَّة [2]. ومن الملوك الذين منعوا الخمر والحشيش الملك الظاهر[3]، وجعل على ذلك حد السَّيف، فأمسك أحدهم وهو سكران، فصلب وفي حلقه جرة خمر، فقال الحكيم شمس الدِّين ابن دانيال رحمه الله[4]:

لقد كانَ حَدُّ السُّكْرِ من قَبْلِ صلْبه خَفِيفَ الأذَى إذَا كَانَ فِي شَرْعنا جلدَا
فَلَمَّا بَدَا المَصْلُوبُ قُلتُ لِصَاحِبِي ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قَدْ جَاوَزَ الحَدَّا

وتحدَّث ابن دانيال في موضعٍ آخر عن أثر هذا القرار في نفوس شاربي الخمر والحشيش، فقد ابتعدوا عنها، لدرجة أنَّ ملوك الجِنِّ أبت الدُّخول في أوعية الخمر[5]:

نَهَى السُّلْطانُ عَنْ شُرْبِ الْحُمَيَّا وحيَّر حَدَّها حَدَّ الْيَمَانِي
فَمَا جَسَرَتْ مُلُوكُ الجِنِّ مِنْهُ لِجَوْفِ الْقَتْلِ تَدْخُلُ في القَنَانِي

1: الجّمال، أحمد صادق، (1966م)، **الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي**، القاهرة، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر، ص34.

2: بدوي، **الحياة الأدبية زمن الحروب الصليبية بمصر والشام**، ص63.

3: الملك الظاهر، هو السُّلطان الملك القاهر ثمَّ الظاهر ركن الدِّين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، سلطان الدِّيار المصرية والبلاد الشَّامية والأقطار الحجازيّة، وهو الرابع من ملوك الترك. مولده في حدود العشرين وستمائة، وتوفي سنة ست وسبعين وستمائة. انظر: ابن تغري بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف، (1992م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص276؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص240.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص245؛ الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن ايبك، (1979م)، **المختار من شعر ابن دانيال**، تحقيق: محمَّد نايف الدليمي، ص65.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص246.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبّر القاضي ناصر الدِّين ابن المنير عن فرحه بهذا الأمـــر، جـــاعلاً مـــن الحشيش طعاماً لإبليس، ومن الخمر ماء له، وبفقده لهما لم يَعُـــد لـــه منـــزلاً فـــي بلادهم[1]:

لَيْسَ لإبْلِيسَ عَنْـــدَنَا طَمَـــعٌ غَيْرُ بِلادِ الأمِيْرِ مَأْوَاهُ
مَنَعْتَهُ الخَمْرَ والحَشِيشُ مَعَاً أحْرَمَتْهُ مَاءُهُ وَمَرْعَـــاهُ

ومن القصائد الطويلة التي وردت في الكتاب، قـــصيدة للنـــور الاســـعردي (ت656هـــ)، قالها مفضلاً الحشيشة على الخمر، منوِّها بمزاياها الفريدة، كما فـــي قوله مقارناً بين لون الحشيشة ولون الخمر، إذْ قال[2]:

لكَ الخَيْرُ لا تَـــسْمع كـــلامَ المفنـــدِ ودونَكَ في فتيـــاكَ غَيْـــر مُقلـــدِ
سَألتَ عَن الخَضْرَاءِ والخَمْرِ فاسْتَمِعْ مَقَالَةَ ذِي رَأيٍ مُـــصِيبٍ ومـــسددِ
وَحَقُكَ مَا بِـــالْخَمْرِ بَعْـــضُ صِـــفَاتِهَا أتَشْرَبُ جَهْرَاً فِي رِبَاطٍ وَمَسْجِدِ؟
عَلَيْكَ بِهَـــا خَـــضْرَاءَ غَيْـــرَ مُبَـــالِغٍ بِأبْيَضِ وَرْقٍ أوْ بِـــأحْمَرِ عَـــسْجَدِ
وَلَكِنْ عَلَـــى رَغْـــمِ المُـــدَامِ هَدِيَّـــةً تَنَزَّهَ عَـــنْ بَيْـــعٍ بِغَيْـــرِ التَّزَهُـــدِ
رِياضيّةٍ يَحْكِي الجنانُ اخْـــضِرَارَهَا وَخمـــرهُم كالمـــارِجِ المُتَوَقِّـــدِ

ويقارن بين تأثير الخمر في عقل من يشربها وتأثير الحشيشة في نفـــس مـــن يتعاطاها، فالخمر تغتال العقل، بينما تسمو الحشيشة بالنَّفس، وترقى بها في مـــدارج الجمال[3]:

مُـــدَامُهُمْ تُنْـــسِي المَعَـــانِي وَهَـــذِهِ تذكرُ أسْـــرَارَ الجَمَـــالِ المُوَحّـــدِ
هَيَ السِّرُّ تَرْقَى الرُّوحُ فِيها إلى ذَرى الْـــ ـــمَعَالِمِ في مِعْراجِ فهـــمٍ مُجَـــرّدِ
بَـــلْ الـــرُّوحُ حَقَّـــاً لا يَحـــلُّ بِربْعِهـــا هُمُومٌ ولا يُحْظَى بِهَا غَيْرُ مُهْتَدِي
وَلا دَاسَهَا العصارُ عَمْدَاً وَدَنَّـــسَ الـــ ـــدنانَ بمختومٍ مِن القَـــارِ أسْـــوَدِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص245.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص273. ولم أعثر على هذه القصيدة في ديوانه الذي اطَّلعت عليه؛ ديوان مجير الدِّين ابن تميم، (ت 684هـــ)، (1999م)، تحقيق: هلال ناجي، ناظم رشيد، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص274.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلا تُتْعِـــب الأبْـــدَانَ عِنْـــدَ نزالَهَـــا وفي القَيءِ إذْ تَبْدُو كَـــزِقٍّ مُمَـــدَّدِ
وَلا تَـــسْتَخِفُّ النَّـــاس عَقْلُـــكَ بَيْـــنَهُمْ لعمري ولا تدعى لديهم بِمفـــسدِ

ويستطرد الاسعردي في تزيين الحشيشة، فيصف سهولة حملهـــا والاحتفـــاظ بها، حتى إنَّ حاملها ليأمن كبسات وليّ الأمر، وأنَّه يتعاطاها في كلّ الأحوال، وحتى وهو قائم يتعبَّد، إذْ يقول[1]:

وَفِي طَرَفِ المنديلِ يَوْمَاً وعاؤها ويعتاضُ عَنْ حَمْلِ الزُّجَاجَةِ باليَدِ
وتخلصُ من إثمٍ وحد ولا تَـــرَى ذَليلاً وتَنْجُو مِـــن نَـــديمٍ مُعَرْبِـــدِ
وتَشْرَبُهَا فِي العُسْرِ واليُسْرِ دَائِمَاً وَلا تَتَّقِـــي فِيهَـــا لَيَـــالِي التَّعَبُّـــدِ
وتَأمَنُ كَبْسات الحُمَـــاةِ وكَيْـــدَهُم وَتَسْلَمُ مِن جُورِ الوُلاةِ ولا تَـــدِي
وتغدوا ذَكِيَّـــاً فَاضِـــلاً ذَا نَبَاهَـــةٍ ظَرِيفَاً ولا يَغْـــشَاكَ فَـــرْطُ تَبَلُّـــدِ
وتُصْبِحُ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرَ مُـــبْغَّضٍ وتمنحُ من كـــلِّ بِحُـــسنِ التَّـــوَدُّدِ

ويوشِّح الشَّاعر حديثه عن الحشيشة بمعاني الغزل عندما يصف أثرهـــا فـــي معشوقه الذي يحبّه، وكيف أنَّها تؤثِّر في نفسه، فيأتيه خلسة، مصوِّراً إيماءات هـــذا الحبيب وقد صفّت هذه الحشيشة نفسه:

وإنْ ذَاقَهَا المَعْشُوقُ وافَـــاكَ خِلْـــسَةً مِنَ الحَاسِدِ الوَاشِي على غَيْرِ مَوْعِدِ
وَمَنْ فَضلِها في الطِّبِ جُودَةِ هَضْمِهَا وهَيْهاتَ يُحْـــصَى فَـــضْلُهَا لِمُعَـــدِّدِ
ولاســـيما إنْ كـــانَ فيهـــا مُنَـــادِمِي غَـــزَالاً كَغُـــصْنِ البَانَـــةِ المُتَـــأوِّدِ
يُنَـــادِمُ بالـــشِّعْرِ اللَّطِيـــفِ وتَـــارَةً يُغَنِّي فَيـــزرِي بالحَمَـــامِ المُغَـــرِّدِ
يُغَـــازِلُنِي سِـــرَّاً بِعَيْنِـــي غَزَالَـــةٍ ويبسمُ عـــن ثَغـــرِ كَـــدُرٍّ مُنَـــضدِ
فَـــلا تَـــسْتَمِعْ فيهـــا مَقَالَـــةَ عَـــاذِلٍ يَصُدُّكَ عَنها واعـــصِ كُـــلَّ مفنـــدِ

ورغبة من الاسعردي في إظهار قدرته على التصرُّف في المعاني، والإتيان بالمعنى وضدّه من ناحية، وأطراف سامعيه وإمتاعهم من ناحية أخرى، قال قـــصيدة أخرى فضّل فيها الخمر على الحشيشة، وهي تجري على هذا النَّحو[2]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص275.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص274.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَدَيْتُكَ نُورُ الحَــقِّ قَــدْ لاحَ فَاْهتَــدِ ... نَدِيْمِي وكُنْ فِي اللَّهــوِ غَيــرَ مُقَلِّــدِ
أتَرْضَى بِأنْ تُمْسِي شَــبِيْهَ بَهِيْمَــةٍ ... بِأَكْلِ حَــشِيْشٍ يَــابِسٍ غَيْــرَ أَرْغَــدِ
فَدَعْ رَأيَ قَوْمٍ كالــدَّوَابِ وَلا تَــدرِ ... ســوَى دُرَّة كالكواكــبِ المُتَوَقِّــدِ
مُدَامٌ إذَا مَــا لاحَ لِلْرَّكْــبِ نُورُهَــا ... وَقَدْ ضَلَّ لَيْلاً عَادَ بــالنُّورِ يَهْتَــدِي
حَشِيْشَتُهُم تَكْــسُو المهيــبَ مَهَانَــةً ... فَتَلْقَــاهُ مِثْــلَ القَاتِــلِ المُتَعَمِّــدِ
وَيَبْدُو عَلى خَدَّيْهِ مِثْلَ اخْــضرَارِهَا ... فَيُضْحِي بِوَجْهٍ مُظْلِــمِ اللَّــوْنِ أرْبَــدِ
وتُفسِدُ مــنْ ذِهْــنِ النَّــدِيْمِ خَيَالَــهُ ... فَيَنْظُــرُ مَبــيضَ الــصَّبَاحِ كَأَسْــوَدِ
وَخَمْرَتُنَــا تَكْــسُو الــذَّلِيْلَ مَهَابَــةً ... وَعِــزَّاً فَتَلْقَــى دُونَــهُ كُــلَّ سَــيِّدِ
وتجلى فَتَجْلُــو هَــمَّ كُــلِّ مُنَــادِمٍ ... وَيُرْوَى بِهَا مَنْ شَرِبهَا قَلْبُهُ الــصدِي
وَتَبْــدُو فَيَبْــدُو سِــرُّهُ وَتُــسرُّهُ ... فيــشبهُهَا لَوْنَــاً بِخَــدٍّ مُــوَرِّدِ
وَفِيْهَا عَلى رَغْمِ الحَــشِيْشِ مَنَــافِعٌ ... فَقُلْ فــي مَعانِيهــا وَصْــفها وعَــدِّدِ
وَفِي غَيْرِهَا للنَّــاسِ كُــلُّ مَــضرَّةٍ ... فَحَدِّثْ بِكلِّ السُّوءِ عَن وَصْفِهَا الرَّدِي
وَحَقُكَ مَــا ذَاقَ الحَــشِيشَ خَلِيْفَــةٌ ... وَلا مَلِــكٌ فَــاقَ الأنَــامَ بِــسُؤْدَدِ
وَلا جَدَّ فِي وَصْفٍ لَهَا قَطُّ شَــاعِرٌ ... بِتَنْمِيــقِ ألفــاظٍ كَأَلْحَــانِ مَعْبَــدِ
وَلَمْ تُضْرَبْ الأوْتَارُ فِي مَجْلِسٍ لَهَا ... وَمَــا ذَاكَ إلاَّ للــشَّرَابِ المــوردِ
أتخضبُ من غَيْرِ المُدَامَــةِ رَاحَــةٍ ... إذَا مَا بَدَتْ فِي الكأْسِ تجلى على اليَدِ
بِهَا يَنْثَنِي المَعْشُوقُ نــشوانَ مَــائِلاً ... بِقَــدٍّ كَغُــصْنِ البَانَــةِ المُتَــأوِّدِ
يُعاطِيكَ رَاحَاً مِثْلَهَا فِــي رُضَــابِهِ ... وَمَبْــسَمَهُ مِثْــلُ الحبــاب المُنْــضدِ
ويَنْعَمُ بالوَصْلِ الذي كَــانَ بَــاخِلاً ... بِهِ ثُمَّ يَنْسَى كُلَّ مَا كَــانَ فِــي الغَــدِ
أعن مِثلها يَا صَاح يــصبرُ عاقــلٌ ... لَقَدْ كُنْتَ فِي تَرْكِي لَهَا غَيْرَ مُهْتَــدِي
وَلَوْلا فُضُولُ النَّاسِ مَا بِتُّ صَاحِيَاً ... وَلَــمْ أسْــتَمِعْ فِيهــا مَقَــالَ المفنــدِ
فَخُــذْهَا ولا تَــسْمَعْ مَقَالَــةَ لائِــمٍ ... وإنْ حُرِّمْتَ يَوْمَاً عَلى دِيْــنِ أحْمَــدِ

فالحشيشة طعام البهائم، ولا يأكلها إلاَّ الدَّواب، وهي تكسو متعاطيها مهانــة، وتفسد ذهنه، وتغيِّر لون وجهه، وقد نزَّه علية القوم أنفسهم عن تعاطيها، وصدّ فحول الشُّعراء عن وصفها، وتخلو مجالسها من الأنس والبهجة، أمَّا الخمــر فهــي نــور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تضفي على شاربها مهابة وعزّة، وتجلو الهمّ، وتسري في عروق من يشربها فيحمّر وجهه، وينتشي بها فرحاً.

ويبرز ابن البققي (ت 656هـ) مضار الحشيش من خلال مقطوعة قصيرة، فهي على أقل تقدير تقود للجنون أو المرض أو الشُّذوذ، إذْ يقول[1]:

لَحَــا اللهُ الحَــشِيْشَ وَآكِلِيْهَــا ... لَقَدْ خبثتْ كَمَا طَابَ السّلافُ
كَمَا يصبي كَذَا تُضْنِي وَتشقي ... كَمَا يَشْفِي وَغَايَتها الحرافُ
وأصــغرُ دَائِهــا والــدَّاءُ جَــمٌّ ... بَغَــاءٌ أو جُنُــونٌ أو نــشافُ

ويفضّل شرف الدِّين ابن الوحيد (ت 711هـ) الحشيش، مبيِّنا أثر هذه النبتة فيمن يتعاطاها، ويبدو أنَّ الشَّاعر من أنصارها وعدم تحريمها، إذْ يقول[2]:

وَخَضْرَاء لا الْحَمْرَاء تَفْعَلُ فِعْلَهَا ... لَهَا وَثَبَات فِي الحشَا وَثَبَــاتُ
تُؤجُّجُ نَاراً في الحشَا وَهِي جَنَّــة ... وَتُبْدِي مَرِيرَ الطَّعْمِ وَهِي نَبَاتُ

ونجد شعراء آخرين فضّلوا الخمر على الحشيش، كما في قول ابن المــصلي الارمنتي (ت 730هـ)، إذْ يقول[3]:

واملِ لِي حَتَّــى تَرَانِــي مَيتــاً ... إنَّ مَوْتَ السُّكْرِ للنَّفْسِ حيَاهَا
لَيْسَ فِي الأرْضِ نَبَاتٌ أنْبَتَــتْ ... فِيهِ سِرٌّ حَيَّرَ العَقْلَ سِــوَاهَا
رَامَتْ الخضراءُ تَحْكِي سُكرَهَا ... قَتَلُوهَا بَعْــدَ تَقْطِيــعِ قَفَاهَــا

2.2.2 حياة السُّوق:

ومن الجوانب الاجتماعيّة التي جاءت في كتاب (فوات الوفيات)، الحديث عن السُّوق والمشاهد اليوميّة فيه، ومكوّناته، والمهن المتناثرة فيه، والظُّروف العامّة التي تحيط به، كما في قول جوبان القوَّاس (ت 680هـ) ناقداً ومصوِّراً حمَّاماً عامَّاً، هذا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص152.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص390.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص231.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحمَّام الذي افتقد إلى النَّظافة على الرّغم من الفراش والترتيب والتنسيق كما يـــدَّعي القوَّاس، إذْ يقول[1]:

جِئْتُ أُرِيدُ الحَمَّـــامَ يَوْمَـــاً ... فَغَرَّنِي النَّقْشُ والْحَصِيْرُ
حتَّى إذَا جزتُ نِلْتُ رِيْحَاً ... كَأَنَّمَـــا تُنْـــبَشُ القُبُـــورُ
والنَّاسُ عِنْدَ الصُّدُورِ فِيها ... قَدْ يَبِستْ مِنْهُم الصُّدُورُ
يَغْرُفَ هَذا مِن جُرْنَ هَـــذَا ... وَقَدْ عَلا مِنْهُمُ الهَرِيْـــرُ
أنْقُل خَوفَ الوُقُوع رِجْلِي ... فيها كما يَنْقُل الـــضَّرِيْرُ
جَهـــنَّمُ لا يُـــصَابَ فِيهـــا ... وَهَجٌ بَلْ الكلُّ زَمْهَرِيـــرُ
قَدْ عَرِفْت فالحديثُ عَنْهَـــا ... بِحُسْنِ أوْصَافُهَا يَـــسِيرُ
وكُلَّمَـــا جَاءَهَـــا زبـــونٌ ... قُلْنَا ألَـــمْ يَـــأتِكُمْ نَـــذِيْرُ

ويتذمَّر ابن الأعمى (ت 692هـــ) من حمَّام ضيِّق شديد الحرِّ ليس فيه مـــاء بارد، ويبدو أنَّ الشَّاعر قد أزعجه الحمَّام وصاحبه فصبَّ غضبه عليهما[2]:

إنَّ حَمَّامَنَا الـــذِي نَحْـــنُ فِيْـــهِ ... قَدْ أَنَاخَ العَذَابُ فِيـــهِ وَخَـــيَّمْ
مُظْلِمُ الأرْضِ والسَّمَا والنَّواحِي ... كُلُّ عَيْبٍ مِـــنْ عَيْبِـــهِ يَـــتَعَلَّمْ
حَـــرَجٌ بَابَـــه كَطَاقَـــةِ سِـــجْنٍ ... شَهِدَ اللهُ مَنْ يَجُزْ فِيـــهِ يَنْـــدَمْ
ولَهُ مَالِـــك غَـــدَا خَـــازِنِ النَّـــا ... ر بلَـــى مَالِـــكٌ أرَقُّ وأرْحَـــمْ
كُلَّمَا قُلْتُ قَـــدْ أطَلْـــتُ عَـــذَابِي ... قَالَ لِي اخْسَأ فِيْـــهِ وَلا تَـــتَكَلَّمْ
قُلْـــتُ لَمَّـــا رَأيْتَـــهُ يَتَلَظَّـــى ... رِبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَّابَ جَهَنَّمْ

ووصف ابن دانيال مجتمع السُّوق في قصيدة أرسلها إلى صديقيه اعتذر لهما فيها عن عدم تمكُّنه من زيارتهما بسبب الظروف التي يعانيها في الـــسُّوق، فـــصوَّر الشَّاعر العناصر التي تقوم في السُّوق آنذاك، ورسم الأجواء الشعبيّة فيه، كما وصف

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص307.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص91.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس الذين يتحرَّكون في أرجائها: العابرين والحرفيين والمشترين والبائعين، إذْ يقول[1]:

لا وَلا زَحْمَةُ الخَلائِق فِي الأسْـ ـوَاقِ كُلٌّ عَلَيْهِ جَهْلاً يَمِيلُ
وَحَمِيْرُ البَلاطِ والجِبْسِ تَجْرِي والورَى فِي الزِّحَامِ عَنْهَا غُفُولُ
وَحَمارُ الزَبَّالِ يَعْثَر بالزِّبْـ ـلِ أمَامَي والرِّيحُ رِيْحٌ قبولُ
وَغُبَارُ النَحَّاتِ والسُّبلِ الـ ـمنكي وَدَمْعِي إذْ قَابَلَتْنِي هَمُولُ
وَلَكُمْ قَدْ وَقَعْتُ مِنْ طَعْنَةِ القَبـ ـانِ حَيْثُ الوزانِ فَدْمٌ هُولُ
وَمُنَادِي السّيُوفِ أرْهَبَهُ حَيْـ ـثُ يُنَادِي وَسَيْفُهُ مَسْلُولُ
وَلِقِدْرِ الشَّرَائِحِي سخَام في ثِيَابِي بِالغسْلِ لا يَسْتَحِيلُ
وَكَذَاكَ الأمْرَاق مِنْ مَطْبخِ السُّلـ ـطَانِ يَجْرِي بِهَا الغُلامُ العَجُولُ
وَزِحَامُ المَجذِمِيْنَ مَع البُرْ ص بِقَلْبِي مِن لَمسهنَّ غَلِيلُ

وأشار الشَّاعر إلى الفوضى التي كانت تعمُّ السُّوق، والى حاجة السُّوق للنَّظافة والنِّظام، إذْ يقول[2]:

ووقوعِ المياهِ من دارِ قومٍ فوقَ رأسٍ بالوهُ أو لم يُبَوِلْوُا
وَلَكُمْ سَلحةٌ مِنْ الطَّاقَ تَرْمِيـ ـها فَتاة إذْ طِفْلها مَسْهُولُ
وَبِرَاسِي مِنْهَا عَلامَةُ ذِمِّـ ـي كَأَنِّي أبو العُلا شَمويلُ
وَحِمَارُ مطرمذ عجلٍ إنْ نالَ ظَهْرِي إنِّي إذاً لقتيلُ
وَسَرَابُ الحَمَّامِ يَحْفُرُ إذْ ضَا قَ فَفِيضَ المِيَاهُ مِنْهُ تَسِيلُ
وسُقُوطُ الأحْجَارِ من كلِّ هَدْمٍ وذِرَاعِي من وَقْعِهَا مَشْلُولُ
ورجالٌ قد زَاحَمُونِي بِأثْقَا لٍ لَهُم عندَ عتلها ترتيلُ
والذِي يذبحُ الدَّجَاجَ ويَرْمِيـ ـهُنَ والدمُ سَائِحٌ مَطْلُولُ
وارْتِيَاعِي إذَا المجرسُ وافَى مُقْبِلاً مُدْبِرَاً بِهِ تَنْكِيلُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص155.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4 ص157

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعصاةُ الضَّريرِ تَجرحُ كَعْبِـــي وذَيْلِي بِطينها مبلــولُ

ومن المهن الواردة في كتاب (فوات الوفيات)، مهنة الشِّواء؛ كما في بيتــين لظهير الدِّين البارزي (ت 680هــ) مصوِّراً شِواء مليحاً[1]:

وشواءٍ بديع الحُسْنِ يَزْهَى بِطلعَتِهِ عَلى كــلِّ البرَايَــا

فَوَاشَوْقَاهُ للأفْخَــاذِ مِنْــهُ يشمِّرُهَا ويقطَعُ لِي اللَّوَايَا

ونقل بعض الشُّعراء في نقدهم طرفاً من الشَّتائم البذيئة التي تلقيها العامة، كما في قول ابن المسجف العسقلاني (ت 635هــ)، إذْ يقول[2]:

قَالُوا عَلامَ رَفضتُ الشِّعْرَ مطرحاً فَقُلْتُ من قِلَّةِ الإنْصَافِ فِي زَمَنِي

لا المَدْحُ يُورِثُنِي مَالاً أُسَــرُّ بِــهِ وَلا الهِجَاءُ إلى سُــؤْلِي يُقَرِّبُنِــي

حتَّى يُقَالُ أديــبٌ شَــاعِرٌ فَطِــنٌ حَرَام كُلّ أديــبٍ شَــاعِرٍ فَطِــنِ

3.2.2 **الفقر**:

صوّر كثير من الشُّعراء الحال المتردِّية التي كان عليها كثير من النَّاس فــي ذلك العصر، بل إنَّهم قدَّموا صوراً حيّة لأحوالهم الشخصيّة ومعاناتهم مع الأوضــاع الاقتصاديّة القائمة، جرَّاء السياسات البشريّة والظُّروف الطبيعيّة التــي ألمَّــت فــي بلدانهم في ذلك العصر.

ومن هؤلاء الشُّعراء ناصر الدِّين ابن النَّقيب، الذي يتحدَّث على لــسان أحــد الجنود، مصوِّراً الحالة العامّة للجند، والفرق الشَّاسع بين الأغنياء والفقراء حتى في المؤسسة العسكريّة، فبينما يلبس الأمراء وكبار الجيش كل ثمينٍ ونفيس، فإنَّ الجنود لا يجدون قوت يومهم إلاَّ بمشقَّة، إذْ يقول[3]:

نَحْــــنُ إلاّ قطاعـــةُ الأجنـــادِ وبراوات غــزّ هَــذَا النَّــادِي

نَحْــــنُ إلاّ حِكَايَـــةٌ وَخَيَـــالٌ وَحَــدِيْثٌ لِحَاضِــرٍ ولِبَــادِي

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص54.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص286.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص330.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَحْـــنُ إلاّ غَـــسَّالةٌ لِمَرْقَـــدَا ... رِ قُـــدُورٍ تَفَرَّغَـــتْ وَزَبَـــادِي
نَحْنُ إلاّ زِبَالَـــةً ضَـــمَّهَا الزَبَّـــ ... ـــالُ مِنْ فَـــوْقِ الكَـــوْمِ لِلْوقَـــادِ
جرَّدُونـــا فَمَـــا قَطَعْنَـــا فَـــرَدُّوُ ... نَا وَقَدْ أَحْسَنُوا إِلَـــى الأَغْمَـــادِ
وَعَرَضْنَا عَلَـــى بَـــرَاذِينِ جَـــيْشٍ ... مَا اســـتَعَدَّتْ لِحَمْلَـــةٍ وَطِـــرَادِ
وَأَتَيْنَـــا مِـــنَ القِمَـــاشِ إِلَـــيْهِم ... بِخَلِيـــعٍ مُرَقَّـــعٍ وَكَـــدَادِ
وَسُـــرُوجٍ تَطَـــايَرَ الجِلْـــدُ عَمَّـــا ... كَانَ مِنْ تَحْتِهَا مِـــنَ الأَعْـــوَادِ
قَدْ تَبَرّت مِنْهَـــا مَيَاثِرهَـــا اللّبـــ ... ـــد وَخَانَ البداد عَهْـــد الوكَـــادِ
كَـــشَفَ اللهُ الـــسِّتْر عَنْهَـــا ... فَرَأَيْنَـــا عَـــوْرَاتهنّ بَـــوَادِي
وَرِمَـــاحٍ لَـــمْ تَعْتَقِـــل لِطَعَـــانٍ ... وَسُيُوفٍ مَـــا جَـــرَّدت لِجَـــلادِ
صَدِئَتْ فِي الجُفُونِ مِنْ كَثْرَةِ اللبـــ ... ـــث وَمَلَّتْ بِهَا لِطُـــولِ الرِّقَـــادِ
فَهِي لا فَرْقَ فِي يَدِ الفَارِسِ الـــ ... ـــكَشْحَانِ مِنَّا أو فِي يَدِ الحَدَّادِ
أَتَرَى مَنْ يَكُونُ فِي هَـــذِهِ الحَـــا ... لِ مُطِيْقَاً بِيكَـــار تِلْـــكَ الـــبِلادِ

"وفي سبيل إبراز هذه المفارقة بين الغنى الصَّارخ والفقر المدقع، ولفتاً لغياب روح التَّراحم والتكافل في المجتمع اتَّخذ الشُّعراء من أنفسهم ومن حياتهم ودورهـــم مادَّة لما يعرضونه من صور ساخرة تجسِّد الفقر، وتبرز غناء النَّاس"[1]، كما في قول ابن دانيال يصور داره ومحتوياتها البالية، ومداهمة الحشرات لداره، إذْ يقول[2]:

أَصبّحتُ أَفقرَ مَن يَروحُ وَيغتدي ... ما في يَدي من فاقتي إلاَ يَـــدي
في مَنزِلٍ لم يحوِ غَيريَ قاعـــداً ... فمتى رَقَدتُ رَقَدتُ غيرَ مُمَـــدَّد
لَمْ يبقَ فيهِ سوى رسومِ حَـــصيرةٍ ... ومخـــدَّةٍ كانَـــتْ لأُمِّ المهتَـــدي
تُلقى على طُرَّاحةٍ فـــي حَـــشْوها ... قملٌ شـــبيهُ السمـــسمِ المُتَبَـــدِّدِ
والبقُّ أَمثالُ الـــصّراصِرِ خِلقـــةً ... مِن مُتْهمٍ في حَشوِها أو مُنْجـــدِ

1: فوزي، محمَّد أمين، (1982م)، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، دار المعارف، مطابع جريدة السفير، 160.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص333؛ صلاح الدِّين الصفدي، **المختار من شعر ابن دانيال**، ص154.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَجْعَلْنَ جِلْــدي وارِمــاً فَتَخالُــه من قَرْصِهِنَّ به يذوبُ الجلمــدُ
والفارُ يَرْكضُ كالخيولِ تَــسابُقاً من كُلِّ جَرداءِ الأَديــمِ وأجــرَدِ
هذا ولــي ثــوبٌ تَــراهُ مُرَقّعــاً منْ كُلِّ لَونٍ مثل ريشِ الهُدْهــدِ

وشكا الشُّعراء الفقر وضنك العيش، وعبَّروا عن الآلام التي عانوها والأحلام التي انتظروها، من خلال تصوير حالهم وحال أسرهم، كما في قــول البوصــيري يشكو حاله المتردِّية، وحال أبنائه الذين ينظرون للأطفــال وهــم يحملــون الكعــك والتَّمر[1]:

إليــكَ نَــشْكُو حالَنــا إننــا عائلةٌ فــي غايــةِ الكَثْــرَهْ
أُحدِّثُ الموْلَي الحديثَ الذي جَرَى عليهم بالخيطِ والإبرَهْ
صَامُوا مَع النَّــاسِ ولكِــنَّهمْ كَانُوا لَمِنْ يبصرُهم عِبــرَهْ
إن شَربوا فالبِئْرُ زِيرٌ لهُــمْ ما بَرِحَتْ والشَّرْبَةُ الجَــرَّهْ
لَهَمْ مِــن الخُبَّيْــزِ مَــسْلُوقةٌ فِي كُلِّ يومٍ تُــشْبِهُ النَّــشْرَهْ
أقولُ مَهْمَا اجتَمَعُوا حَوْلَهَــا تنزَّهوا في الماءِ والخضرَهْ
وأقبلَ العيــدُ ومــا عنــدهم قمحٌ ولا خبــزٌ ولا فَطْــرَهْ
فارْحَمْهُم إنْ أبْصَرُوا كَعْكَةً في يدِ طفلٍ أو رأوا تَمْــرَهْ
تشخصُ أبصارُهم نَحْوَهَــا بِــشَهْقَةٍ تَتْبَعُهَــا زَفْــرَهْ
فَكَمْ أقَاسِــي مِــنْهمُ لَوْعَــةً وكَمْ أقَاسِي مِــنْهُمُ حَــسْرَهْ
كَمْ قَائِــلٍ يَــا أبَتَــا مِــنْهُمُ قَطَعْتَ عَنَّا الخُبْزَ في كَــرَّهْ
ما صِرْتَ تأتينا بفلــس ولا بِــدِرْهَمٍ ورَقٍ وَلا نُقْــرَهْ
وَأنتَ في خِدْمَةِ قَــوْمٍ فَهَــلْ تخدمهمْ يــا أبتــا سُــخرهْ
يَا خَيْبَةَ المَسْعَى إذَا لَمْ يَكُــنْ يَجْرِي لنا أَجْــرٌ وَلا أُجْــرَهْ
لَقَــدْ تَعَجَّبْــتُ لَهَــا فِطْنَــةً أتَى بِهَا الطِّفْلُ بِــلا جَــرَّهْ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص365؛ البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص152.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويبدو أن زوج البوصيري كانت دائمة التضجُّر من الحال الفقيرة والسيِّئة التي تعاني منها، فصوَّر البوصيري بروح فكاهيّة زوجته بعد عودتها من عند أختها وقد انقلبت عليه بسبب الفرق الشَّاسع بين الحال التي تعيشها هي والتي تعيشها أختها[1]:

قُومِي اطْلُبي حَقَّكِ منه بِلا ... تَخَلُّفٍ منكِ ولا فَتْرَه
وإنْ تَأَبَّى فخُذي ذَقْنَهُ ... ثمَّ انتفيها شعرةً شعره
قَالَتْ لَهَا مَا عَادَتِي هكَذَا ... فإنَّ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجَرَه
أخَافُ إنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً ... طَلَّقَني قالتْ لها: بَعْرَه
فهونَتْ قَدَرِي فِي نَفْسِهَا ... فَجَاءَتْ الزَّوْجَةُ مُحْتَرَّه
فَاسْتَقْبَلَتْنِي فَتهددتَها ... فاسْتَقْبَلَتْ رَأسِي بآجرَّه
وَبَاتَتْ الفِتْنَةُ مَا بَيْنَنَا ... مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ إلى بُكْرَه
وَمَا رَأى العَبْدُ لَهُ مُخْلِصاً ... إلاَّ وما في عَيْنِهِ قَطْرَه
فَحَقٌّ مَنْ حالَتُهُ هذِهِ ... أَنْ يَنْظُرَ المَوْلى لهُ نظْرَه

ويشكو أبو الحسين الجزار (ت 679هـ) من حاله التي آل إليها جراء ملاحقته مختلف العلوم والآداب التي لم يستفد منها شيئاً كغيره، فهو كسائر العلماء الذين "لم يكن أمراء المماليك في عصره يوقرونهم، ولا يعرفون لهم حقوقهم[2]"، إذْ يقول[3]:

قَطَعْتُ شَبِيبَتِي وأضَعْتُ عُمْرِي ... وَقَدْ أتْعَبتُ فِي الهَذَيَانِ فِكْرِي
وَمَا لِي أجْرَةٌ فِيهِ وَلا لِي ... إذَا مَا تُبْتُ يَومَا بَعْضَ أجْرِ
قَرَأتُ النَّحْوَ تِبْيَاناً فهْماً ... إلى أنْ كعتُ مِنْهُ وضَاقَ صَدْرِي
فَمَا استَنْبَطتُ مِنْهُ سِوَى مَحَالٌ ... يُحالُ بِهِ عَلى زَيْدٍ وَعَمْرِو

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص366.

2: السبكي، تاج الدِّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، (1984م)، **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق: محمَّد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمَّد أبو العيون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص52.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص285.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكانَ النَّصْبُ فيهِ عَلَــيَّ نَــصْبَا وكانَ الرَّفْعُ فِيــهِ لِغَيــرِ قَــدْرِي
وكانَ الخَفْضُ فيهِ جُــلَّ حَظِّــي وكانَ الجَزْمُ فِيهِ لِقَطْــعِ ذِكْــرِي
وفِي عِلْمِ العَرُوضِ دَخَلْتُ جَهْــلاً وعمتُ لخفتي فــي كُــلِّ بَحْــرِ
فــأَذْكُرُنِي بِــهِ التَّفْــصِيل بَيْتَــا تَضَمَّنَ نِصفهُ الــشيخُ المَعَــرِي
وكَمْ يَــوم بِبَيْــعِ اللَّحْــمِ عِنْــدِي يُعَدُّ مِــن البَــوَارِ بِــأَلْفِ شَــهْرِ
ولَمَّــا أَنْ غَــدَا لا بَيْــعَ فِيــهِ مَع المِيزَانِ أَشــبهُ يَــوْمَ حَــشْرِ
ودكَــانِي جَهَــنَّم إِذْ زَبَــونِي زَبَانِيَــة بِهِــم تَعْــذِيب سِــرِي
وفيها زَفْــرَةٌ مِــنْ غَيْــرِ لَحْــمِ وَقَدْ وَضَعْتُ سَلاسِــلَها بِنَحْــرِي
وقد طالَ العَــذابُ عَلَــيَّ فِيهــا لِمَا قــدمتُ مِــن نَحْــسٍ ووزرِ
فإِنْ لامَ العَــذُولُ أَقــولُ دَعْنِــي أَنَا فِي ضَــيْعَةٍ وَســطِ عُمْــرِي

ومن القصائد التي تصوِّر حالة الفقر والعوز، قصيدة للشَّاعر المصري كمــال الدِّين ابن الأعمى (ت 692هــ) في ذمِّ داره، وهي قصيدة تبدو في ظاهرها فكاهيّة، حيث تسري فيها روح السُّخرية والاستهزاء من داره التي جمعت كل ســيء، لكــنَّ المتأمِّل في خفايا أبياتها يجد نقداً لاذعاً لظروف قائمة في مجتمعه وقتذاك، والقصيدة مطلعها[1]:

دارٌ سَكَنَتْ بِهَــا اَقَــلّ صِــفَاتِهَا أن تَكْثُرَ الحَسَرات مِن حَشَرَاتِهَا

وبدأ الشَّاعر قصيدته بإطلاق حكم عام على الدار، فوصفها بابتعاد الخير عنها دائماً، ومحاصرة الشرِّ لها من جميع الاتِّجاهات، يقول[2]:

الخيرُ عنهــا نــازحٌ متباعــــدٌ والشَّرُ دانٍ من جميــعِ جِهَاتِهــا

ويعدِّد الشَّاعر عيوب داره، من هذه العيوب الحشرات الضارّة، والبعوضــة التي تحرمه النَّوم، والبراغيث التي تهيئ للبعوضة نغمات لتقرصه، والــذُّباب الــذي يشكِّل عازلاً بينه وبين دخول الشَّمس لبيته، يقول[3]:

مِنْ بَعْضَ مَا فِيها البَعُوض عَدْمته كَمْ أَعْدَمَ الأَجْفَانَ طِيْبِ سَــنَاتها

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص89.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص89.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص91.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتبين تسعدها براغيـــــث مَتَـــى غَنَّتْ لهَا رَقَصَتْ على نَغَمَاتِهـــا
رقـــص يتـــيقظ ولكـــن قافـــه قد قدمت فيـــهِ علـــى أخَوَاتِهـــا
وبِها ذُبَابٌ كالضَّبابِ يسدُّ عَنِّـــي الشَّمسَ ما طَرَبِي سِوَى غناتِها

ويبدو أنّ الشَّاعر لم يقصد ذمّ داره فقط، وإنَّما كان يرمي لأبعد من ذلك، وهـــو نقد المجتمع وعيوبه التي قرنها بأفعال هذه الحيوانات والحشرات، مستغرباً من عدم تطبيق العقوبة عليهم كما تطبَّق على سائر أفراد المجتمـــع، ومـــصوِّراً إيَّـــاهم بـــــ "الخطاف، الخفافيش، القنافذ"، يقول[1]:

أيْنَ الصَّوارِمُ والقَنَا مـــن فتكِهـــا فينا وأينَ الأســـدُ مـــن وثَبَاتِهـــا
وبها من الخطافِ ما هو معجـــزٌ أبصارنا عـــن حـــصرِ كيفياتِهـــا
تعشي العيونُ بمرهـــا ومجيئِهـــا وتصم سمع الخلد من أصـــواتِها
وبها خفـــافيشٌ تطيـــرُ نهارَهـــا مع ليلها ليـــست علـــى عاداتِهـــا
شـــــبهتُها بِقَنافـــــذَ مَطبوخَـــــةٍ نزع الطهاة بنـــضجها شـــوكاتِها
شوكاتُها فاقت على ســـمرِ القَنَـــا فـــي لونهـــا وتمامهـــا وشـــياتِها
وبها من الجرذانِ ما قد قَـــصَّرَتْ عنه العتاقُ الجردِ فـــي حَملاتِهـــا
فترى أبا غزوانِ منهـــا هاربـــاً وأبا الحصين يروغ عن طرقاتِها

ولعلّ الظروف العامة القائمة في ذلك العصر قد انعكست في ثنايا القصيدة، فكثر فيها الألفاظ والعبارات الدالة على الحرب والاضطراب، وعدم الطمأنينة والـــسكينة، يقول:

من بعضِ ما فيها البَعوضُ عدمتُهُ كم أعدَمَ الأجْفانَ طيـــبُ ســـناتِها
لو شَمَّ أهلُ الحربِ منتنَ فـــسوِها أردى الكماةَ الصيدَ عن صَهَوَاتِها
متزاحمٌ متراكـــــمٌ متحـــــاربٌ متراكبٌ في الأرضِ مِثلَ نباتِهـــا

وفي سياق حديث الشَّاعر عن تأثير هذه الحيوانات يستخدم ضـــمير المـــتكلِّم للجماعة، ليبيِّن أنَّ تأثير هذه الحيوانات يطغى على الجميع، ممَّـــا يـــدلِّل علـــى أنَّ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص89.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشَّاعر ما قصد بهذه الحيوانات إلاَّ مجموعة من أفراد المجتمع قد عاثوا فساداً، ولا بُدَّ من تخليص النَّاس من شَرِّهم، يقول[1]:

أبـــداً تمـــص دماءنـــا فكأنهـــا حجامة لبـــدت علـــى كاسَـــاتِها
لا يَدْخُلُونَ مَسَاكِناً بَـــلْ يُحَطِمـــو نَ جُلُودنَا؛ فالعقرُ مِنْ سَـــطْوَاتِها
ولقد رأينا في الـــشتاء ســـماؤها والصيف لا تنفك من صَـــعَقَاتِها
وبِـــدَارِنَا أَلْفَـــا غُـــرَابٌ نَـــاعِقٌ كَذَبٌ الرُّواة فأينَ صِدْقُ رُوَاتِهـــا

ويلحّ الشَّاعر في إظهار الصورة السلبيّة لبيته من خلال اســـتخدام الأســـلوب "بها" ليؤكِّد العيوب التي يرى أنَّها بحاجة لإصلاح، وما هذه العيوب إلا لمجتمع قـــد عرفه الشَّاعر عن كثب، وواقع قد عايشه بكل تفاصيله، يقول[2]:

وبِهَا ذُبَابٌ كالضَّبَابِ يَسُدَّ عَيْـــــ ـــنَ الشَّمْسِ مَا طَرَبِي سِوَى غَنَّاتِها
وبِهَا مِن الخِطافِ مَا هُوَ مُعْجِزٌ أَبْصَارَنَا عِـــن حَـــصْرِ كيفياتِهـــا
وبِهَا خَفَـــافِيشٌ تَطِيـــرُ نَهارَهَـــا مع لَيْلِهَا لَيْـــسَتْ علَـــى عَادَاتِهـــا
وبِهَا مِنَ الجرْذَانِ مَا قَدْ قصرتْ عَنهُ العتاقُ الجردِ فِـــي حَمَلاتِهـــا
وبِهَا خَنَافِسُ كالطَنَافِسِ أَفْرَشَتْ فِي أَرْضِها وعَلَت علـــى جَنَبَاتِهـــا
وبِهَا قُرَادٌ لا انْـــدِمَال لِجُرْحِهـــا لا يَفْعَلُ المِـــشْرَاطُ مِثْـــلَ أَدَاتِهـــا
وبِهَا مِنَ النَّملِ الـــسُّلَيْمَانِي مَـــا قَدْ قَلَّ ذر الـــشَّمسَ عـــن ذَرَّاتِهـــا
وبِهَـــا زَنَـــابِيرٌ تُطَـــنُّ عَقَارِبَـــاً لا برءَ للمَـــسْمُومِ مِـــنْ لَـــدَغَاتِها

وفي نهاية القصيدة لم يجد الشَّاعر يملك لهذا الأمر القائم إلا الـــدعاء، فخـــتم قصيدته داعيا الله أن يبدله في الجنة دارا خيرا من داره عاجلا لا آجلا، وان يجمعه بمن يحب، يقول[3]:

وأقولُ: يَا رَبِّ السَّموَاتِ العُلَـــى يَا رَازِقاً للـــوَحْشِ فِـــي فَلواتِهـــا
أَسْـــكَنَتْنِي بِجَهَـــنمِ الـــدُّنْيَا فَفِـــي أخراي هبْ لِي الخلدَ في جناتِهـــا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص89.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص89.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص90.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واجْمَع بِمَنْ أهوَاهُ شَمْلِي عَــاجِلاً يَا جَــامِعَ الأروَاحِ بعــدَ شــتاتِها

4.2.2 النَّقد الاجتماعي:

ونقل إلينا كتاب (فوات الوفيات) بعض الصُّور لنقد الحكَّام والسَّلاطين والولاة والعمَّال في ذلك العصر، كما في القصيدة التي كتبها الفقيه شمس الــدِّين المقدســي، وأرسلها إلى الملك الصَّالح إسماعيل يحذِّره فيها من عاقبة الظُّلــم، ويــشكو فــساد حاشيته، مبيِّناً أنَّهم ظلموا النَّاس، ونشروا الآفات، وعطَّلُوا أحكام الشَّرع[1]:

يا مَالِكاً لَمْ أجدْ لِي من نَــصِيحَته بُدَّاً وَفِيها دَمِــي أخْــشَاهُ منــسفِكَا
اسمعْ نصيحةَ من أوْلَيْتَــهِ نعَمَــاً يَخَافُ كُفْرَانها إنْ كَــفَّ أو تَركَــا
واللهِ لا امتدَّ مُلــكٌ مَــدَّ مَالِكُــهُ على رَعِيَّتِــهِ مِــن ظُلْمِــهِ شَــبكَا
تَرَى الحَسُودَ بِهِ مُسْتَبْشِراً فَرِحَــاً مُسْتَغْرِباً من بَوَادِي أمْــرِهِ ضَــحِكَا
وَزِيرُهُ ابنُ غَزَالٍ والرَّفِيــعُ لَــهُ قَاضِي القُضَاةِ وَوَالِي حَرْبِهِ ابن بَكَا
وثَعلبٌ وفضيلٌ منْ هُمــا وهمــا أهلُ المَشُورَةِ فيمَا ضَاقَ أو ضَــنَكَا
جماعةٌ بِهِم الآفَاتُ قَــد نُــشِرَتْ والشَّرْعُ قَدْ مَاتَ والإسْلامُ قَد هَلَكَــا
مَا رَاقَبُوا اللهَ في سرٍّ وَفِي عَلَــن وإنَّمَــا يَرْقُبُــون الــنَّجْمَ والفُلْكَــا
إنْ كانَ خَيْرَاً ورِزْقاً وَاسِعَاً فَلَهُــم أو كَانَ شَــرَّاً وأمْــرَاً سَــيِّئاً فَلَكَــا

وفي سياق نقد الشُّعراء للحكَّــام والعمَّــال، اســتخدموا صــور الحيوانــات والحشرات، ومقارنة المهجو بها، كما في قول البديع الدمشقي (ت 524هــ)، يصف أحد الحكَّام بالبهيمة، إذ يقول2:

حَــاكِمُكُمْ بَهِيمَــةٌ لَيْستْ تُــسَاوِي العَلَفَــا
وليسَ فِيــهِ مــضغةٌ طيبــــةٌ إلاَّ القَفَــــا

ويبيِّن عبد المنعم الجلياني (ت 602هــ) الطريقة للوصول للحكَّام والحكــم، من غير التفات إلى المقوِّمات والمميِّزات العلميّة والدِّينيّة، فقد كان من الطبيعــي "أن تنهار كل القيم، فاعتلى المناصب من لا يستحقها، ويتقدَّم مــن لا يــستحق التقــديم،

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص358.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص133.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصبح النَّاس في سباق، يأكل بعضهم لحم بعض، وكل يريد إن يهدم الآخر ليعلو هو، لا وازع من الدِّين يمنع، ولا تورّع عن الحرام يردع"[1]، إذْ يقول[2]:

قالوا: نَرَى نَفَرَاً عِنْدَ المُلُوكِ سموا ... ومَا لهم همةٌ تَسْمُو ولا وَرَعُ
وأنتَ ذُو همَّةٍ في الفَضْلِ عَالِيَةٌ ... فَلم ظَمِئْتَ وَهُمْ فِي الجَاهِ قَدْ كَرَعوا؟
فقلتُ: بَاعُوا نُفُوساً واشْتَرُوا ثَمَناً ... وَصُنْتُ نَفْسِي فَلَمْ أخضَعْ كَمَا خَضَعُوا
قد يُكرَمُ الفَردُ إعجاباً بخِسَّته ... وقد يُهان لِفَرطِ النَّخْوَةِ السَبُعُ

وانتقد البوصيري (ت697هـ) مستخدمي ذلك العصر واستغلال مناصبهم بقصيدة طويلة، بيَّن فيها فساد هؤلاء العمَّال الذين عرفهم عن قرب وجرَّبهم طويلاً، فسرقوا أموال الدولة وتنعَّموا بها، واشتروا الحرير والغلمان، منبِّها الوزير من خطرهم، إذْ يقول[3]:

تكلتَ طوائفَ المستخدمينا ... فلم أرَفيهمُ رجلاً أمينَا
فَخُذْ أَخْبارَهُم مِنِّي شِفاهاً ... وانظرني لأخبرك اليقينَا
فقد عاشرتهمْ ولبثتُ فيهمْ ... مع التجريبِ من عمري سِنِينَا
حَوَتْ بُلْبَيْسُ طائفَةً لُصُوصاً ... عدلتُ بواحدٍ منهم مئينَا
فُرَيجى والصفيَّ وصاحبيهِ ... أبا يقطونَ والنشوَ السَّمينَا
فكُتَّابُ الشمالِ هم جميعاً ... فلا صَحِبَتْ شِمالُهُمُ اليَمِينَا
وَقَدْ سَرقُوا الْغِلالَ وما عَلِمْنَا ... كَمَا سَرَقَتْ بَنُو سَيْفِ الجُرُونَا
وكيفَ يُلامُ فُسَّاقُ النَّصَارَى ... إذَا خَانَتْ عُدُولُ المُسْلِمِينَا
وجُلُّ النَّاسِ خوانٌ ولكن ... أُناسٌ مِنْهُمْ لا يَسْتُرُونَا
ولَوْلا ذَاكَ مَا لَبِسُوا حَرِيْراً ... ولا شَرِبُوا خُمُورَ الأَندَرِينَا

1: فوزي محمَّد أمين، (1982م)، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، دار المعارف، مطابع جريدة السفير، ص140.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج2، ص409. لم أعثر على هذه الأبيات في **ديوان المبشرات والقدسيات**، عبد المنعم الجلياني (ت 602هـ)، (2009م)، تحقيق: عبد الجليل حسن عبد المهدي، وزارة الثقافة.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص362.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويشير البوصيري إلى أنَّ منهم من يتظاهر بالورع والتديُّن وصاروا أصحاب كلمة مسموعة، وهم من سلب الأموال، ويبرز البوصيري الصِّراع بين الفئات المتعدِّدة من مسلمين ويهود ومسيحيين داخل مؤسسات الدولة، لاسيما أنَّ البوصيري قد عاشرهم حين عمل في الدولة[1]:

تَوَرَّعَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا ... مِنَ الزُّهَّادِ وَالمُتَوَرِّعِينَا
وَقِيلَ لَهُمْ دُعاءُ مُسْتَجَابٌ ... وَقَدْ مَلَئُوا مِنَ السُّحْتِ البُطُونا
فلا تقبل عفافَ المَرءِ حتَّى ... تَرَى أَتْبَاعَهُ متعففينا
ولا تُثْبِتْ لهُمْ عُسْراً إذَا مَا ... غَدَتْ أَلْزَامُهُ مُتَمَوِّلِينا
فإنَّ الأصْلَ يَعْرَى عَنْ ثِمَارٍ ... وأوراقٍ ويكسوها الغصونا
فإنَّ قطائعَ العُربانِ صَارَتْ ... لِعُمَّالٍ لهَا ومُشارِفِينا)

ويمضي البوصيري في تصوير عبث هؤلاء بأموال الدولة، ونهب خيراتها من موظفيها اليهود الذين تمادوا على المسلمين[2]:

وما ابنُ قُطَيبةَ إلاّ شَرِيكٌ ... لهُمْ في كُلِّ ما يتَخَطَّفُونا
أغَارَ عَلَى قُرَى فَاقوسَ مِنْهُ ... بِجَوْرٍ يَمْنَعُ النَّوْمَ الجُفُونا
وَجاسَ خِلالها طُولاً وعَرْضاً ... وغادَرَ عالِياً مِنْها حُزُونا
فسلْ أذنينَ والبيروق عنه ... ومنزلَ حاتمٍ وسلِ العرينا
فَقَدْ نَسَفَ التِلالَ الحُمرَ نَسْفَاً ... ولمْ يَتْرك بِعرصَتِها جُرُونا
وصَيَّرَ عَيْنَها حِمْلاً ولكِنْ ... لِمَنْزِلِهِ وغَلَّتَها خَزِينا
وأصبحَ شغلهُ تحصيلَ تِبْرٍ ... وكانَتْ رَاؤُهُ من قَبْلُ نُونا
وقدَّمهُ الذين لَهُمْ وُصُولٌ ... فَتَمَّمَ نَقْصَهُ صِلَةُ اللذينا
وفي دَارِ الوكالةِ أيُّ نَهْبٍ ... فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينا
وما فرعونُ فيها غير موسى ... يسُومُ المُسْلِمينَ أذًى وهُونا
إذَا أَلْقَى بِها مُوسى عَصاهُ ... تَلَقَّفَتِ القَوَافِلَ والسَّفِينَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص362.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص362.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَفيها عُصْبَةٌ لا خَيْـرَ فِـيهمْ على كلِّ الورى يتعصبونا

وكتب البوصيري قصيدة على لسان حمارة له قد استعارها نـاظر الـشَّرقيّة فأعجبته ولم يرجعها إليه، مظهراً الأسلوب الفكاهي في نقده الذي جاء علـى لـسان الحمارة، معبِّراً عن رفضه لواقع يعيشه، وذلك على لسان حمارته[1]:

يَا أيُّهـا السَّيِّدُ الذي شَهـدَتْ ألفـاظهُ لِي بأنَّهُ فاضـلْ
حاشاكَ مـنْ أن أجـوعَ فـي بلـدٍ وأنتَ بـالرزقِ فيـهِ لـي كافـلْ
ألَـمْ تَكُـنْ قـد أَخَـذْتَ عاريَـةً مِنْ شَرْطِها أنْ تُرَدَّ في العاجِـلْ
وَكانَ عَزْمِي عنـدَ الوصـولِ بِكُـمْ أَجْمَلَ مِـنْ أن أُسَـاقَ لِلْحاصِـلْ
مـا كـانَ مثلـي يعيـرهُ أحـدٌ قـطُّ ولكـنْ سـيِّدي جـاهلْ
لـو جَرَّسُـوهُ علـيَّ مِـنْ سَـفَهٍ لقلـتُ غيظـاً عليـه يـستاهلْ
طالَ بـي شـوقٌ إلـى وطنـي والـشَّوْقُ داءٌ لا ذُقْتَـهُ قاتِـلْ
وبُغيتـي أن أكـونَ سـائبةً مِنْ بَلدِي في جَوانِبِ السَّاحِلْ
لا تطمعـوا أن أكـونَ عنـدكمُ فـذاكَ مـالا يرومـهُ العاقـلْ
وبعـدَ هـذا فمـا يحـلُّ لكـمْ ملكي فإني مـن سـيِّدي حامـلْ

ويلوم ناصر الدِّين ابن النقيب (ت 687هـ)، أحد السادة؛ لأنَّه لم يكن يهـتم لأمر المحتاجين والفقراء ويبتعد عن تفقُّدهم وتلمُّس همومهم، مقـدِّماً النّـصح لهـذا السيِّد، ذلك من خلال قصة سيدنا سليمان u الذي افتقد الهدهد وهو حيوان، فكيف لا تتفقَّد أنت البشر، إذْ قال[2]:

ما كان عيباً لـو تفقّـدتني وقلت هَلْ أتهمَ أو أنْجِـدَا
فعادةُ السَّادات من قبـل أن يفتقدُوا الأتباعَ والأعبـدَا
هذا سـليمانُ علـى ملكِـهِ وهو بأخبارٍ لـه يقتـدَى
تفقّـدَ الطّيـرَ وأجناسَـها فقالَ مالِي لا أرَى الهُدْهُدَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص367.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص325.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

5.2.2 **الاخوانيَّات**:

تضمَّن كتاب (فوات الوفيات) مجموعة من الأشعار التي تـصوِّر الـشُّعور الإنساني النبيل النَّابع من أعماق النَّفس البشريّة البعيدة عن التكسُّب والمنفعـة تـدفع إليها العاطفة الصَّادقة من قرابة أو صداقة بين أرباب الأدب[1].

وعند النَّظر في هذه الأشعار (المراسلات) نجدها تسجيلاً للمواقف التي تحدث مع أصحابها، جديّة أم هزليّة، مقدَّمة بعاطفة صادقة، ومشاعر ناعمة رهيفـة تـشي بأحاسيس مرسليها.

ولعلَّ من الممكن القول أنَّ الاخوانيات تأخذ نمطين: الأول؛ تلـك الرَّسـائل الشِّعرية المتبادلة بين أفراد الأسرة الواحدة، والذي يكون معرضاً للعتـاب والحنـين والشَّوق، ولا نجد من هذا إلاَّ القليل في كتاب (فوات الوفيات). أمَّـا الثـاني؛ فهـي المراسلات المتبادلة بين الشُّعراء الأصدقاء، والتي تشتمل على العتـاب والـشَّوق، والمؤاساة، والتهنئة بالمناسبات الاجتماعيّة المختلفة، وغيرها، وهذا الجانب أكثر من الأول في كتاب (فوات الوفيات).

وثمّة نمط آخر من الاخوانيات كان يقال في فصل الشتاء، وكـأنَّ الـشُّعراء كانوا يستعينون بها على تقضية هذا الفصل، لذا طبعت بطابع الهزل واصطلح على تسمية هذا النمط من المعارضات الشعرية "الشتويات"[2]، وخلا كتاب (فوات الوفيات) من هذا النَّمط.

وتتميَّز الاخوانيات عن المدح بالتَّساوي أو التَّقارب بين المرسل والمرسـل إليه على الرّغم من تعظيم المرسل إليه وتطامن المرسل، وهذا من قبيـل التَّواضـع والتقاليد، وتشترك معه في بعض المعاني[3]، كما أنَّها تتميَّز عن المـدح بأنَّـه لـيس الغرض منها الحصول على مغنمٍ ماديّ[4].

1: الهيب، **الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء**، ص101.

2: الرقب، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص268.

3: الهيب، **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**، ص 208.

4: جكلي، زينب بيره، (2004م)، **الشعر العربي في عصر الدول المتتابعة**، الطبعة الأولى، عمان– دار الضياء، ص259.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الاخوانيات التي كانت تتبادل بين أفراد العائلة الواحدة ما كتبه، كمال الدِّين ابن العديم، إلى ولده قاضي القضاة مجد الدِّين، يصوِّر من خلالها شوقه وحنينه إلى ابنه البعيد عنه، متمنِّياً من النَّسيم أن ينقل له خبراً عن فلذة كبده، مظهراً من خلالها العاطفة الأبويّة الصَّادقة[1]:

هذا كِتَابِي إلى من غَابَ عن نَظَرِي ... وشخصُهُ في سوادِ القَلبِ والبصرِ
ولا يَمُنُّ بطيف منه يطرقني ... عند المنامِ ويأتيني على قدرِ
ولا كتاب له يأتي فأسمعْ من ... أنبائِهِ عنه فيه أطيبُ الخبرِ
حتى الشمال التي تسري على حلبٍ ... ضنت علي فلم تخطرْ ولم تَسرِ
أخصُّهُ بتحيَّاتي وأخبره ... أنِّي سَئِمْتُ من التِّرحالِ والسفرِ
أبيتُ أرعى نُجومَ اللَّيلِ مُكتَئِباً ... مفكراً في الذي ألقى إلى السحرِ
وليسَ لي أربٌ في غيرِ رُؤيَتِهِ ... وذاكَ عندي أقْصَى السول والوَطَرِ

ومن القصائد الاخوانية المتبادلة بين الأصدقاء الواردة في كتاب(فوات الوفيات)، قصيدة كتبها الشهاب محمود - رحمه الله- من الدِّيار المصريّة إلى تقي الدِّين ابن تمام الحنبلي في جبل الصالحيّة، يصف في بدايتها الحالة التي آل إليها جرَّاء ابتعاد صديقه عنه، بل إنَّ هذا البعد كالمرض بالنِّسبة إليه لا يشفيه منه إلاَّ رؤية صديقه[2]:

هَلْ عِنْدَ مَنْ عِنْدهمْ بَرْئِي وأسْقَامِي ... علمٌ بأنَّ نَواهُم أصلُ آلامِي
وأنَّ قَلْبِي وَجفنِي بَعدَ بُعْدهُم ... ذَا دَائِمٌ وَجده فِيهم وذَا دَامِي
بَانُوا فَبَانَ رُقَادِي يَوم بَيْنِهُمُ ... فلستُ أطمعُ من طيفٍ بإلمامِ
كَتَمْتُ شأنَ الهَوَى يَومَ النَّوَى فَنَمَا ... بِسِرِّهِ مِنْ جُفُونِي أي نَمامِ
كانَتْ لَيَالِي بيضاً في دُنُوِّهِم ... فلا تسلْ بُعْدُهُمْ عن حالِ أيامِي
ضنيتُ وَجْدَاً بِهم والنَّاسُ تَحسبُ بِي ... سُقْماً فأبهم حَالِي عِنْدَ لَوَّامِي
ولَيسَ أصلُ ضَنَى جِسمِي النَّحِيلِ سِوَى ... فَرْطُ اشْتِيَاقِي إلى لُقْيَا ابن تَمَّامِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص128، 129.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص161.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويمتزج هذا الشَّوق بالعتاب الذي يشي بدهشة الشَّاعر من عدم سؤال صديقه عنه، حيث يقول[1]:

نَأى ورُؤْيَتهُ عِندِي أحَبُّ إلى ... قَلبِي مِنَ الماءِ عِندَ الحَائمِ الظَّامِي
وصدَّ عَنِّي ولمْ يَسألْ بِجفوته ... عن هائم دَمعه من بعــده هَــامِي
يا ليتَ شِعرِي ألمْ يُبلِغهُ أنَّ لَهُ ... أخاً بمصرَ ضَعيفَ الجِسمِ مُذْ عَامِ
ما كانَ ظَنِّي هَذا فِي مَوَدتِــهِ ... وَلا الحَدِيث كذا عن ساكنِ الشَّامِ

ويبدو أنَّ بعد صديقه عنه أيقظ في نفسه الإحساس بالغربة، فــراح الــشَّاعر يتضجَّر من الزَّمان ويتذَّمر منه، ولاسيَّما – أي الشَّاعر- قد تجاوز الــسبعين مــن عمره، فيتَّخذ من الزُّهد في الحياة ملاذاً يأوي إليه من هذا الإحساس الممض[2]:

وأيــنَ نيــلُ مَرامِــي مــن لِقــائِهِمُ ... ضاقَ الزَّمانُ وهيّا سَهْمه الرَّامِــي
ولَّتْ بَشاشةُ أيَّــامِي فلــو عرضــتْ ... علي أعْرَضْتُ عَنْها غيــر مــستامِ
هل بعد سبعين لي إلا التأهــب مــن ... أجــلِ الرَّحِيــل بإســراجِ وإلجــامِ
النَّاس يَرجُونَ ما قَــدْ قَــدَّمُوا لغــدٍ ... والخوفُ من سُوءِ مَا قدمت قدامِي
ولستُ أرجو سوَى عَفْوِ الإلــهِ وأنْ ... ألْقَى السَّلامَةَ فِي الأخُرى بإسْلامِي
بَلَى وَحُبُّ الذِي أرْجُوهُ يــشفَعُ لِــي ... غَــداً إذَا جِئْتُــهُ أسْــعَى بآثَــامِي
فاذكرْ أخاكَ بظهرِ الغيبِ وادعوا لَهُ ... فأنتَ في نَفْسِهِ مِــنْ خَيــرِ أقْــوَامِ
لعــلَّ يَجمعُنــا فــي دارِ رَحمتــهِ ... من عَفْوِهِ فَوقَ إسْرافِي وإجرامِــي

ويردّ الشَّيخ تقي الدِّين على صديقه بقصيدة يستهلّها بوصف حاله ومكابدتــه الشَّوق، وهي مكابدة الشَّوق الذي كاد يوصله للمرض، وكيف أنَّه محاصرٌ بالإحزان والهموم حتَّى أصبحت حالته يرثى لها، متمنِّياً قُربهم ولو بالطَّيف[3]:

يَا سَاكِنِي مِصْرَ فِيْكُم سَاكِنُ الــشَّامِ ... يُكابِدُ الشَّوقَ من عامٍ إلى عامِ
اللهُ مِن رَمَــقٍ أوْدَى الــسّقامَ بِــهِ ... كَمْ ذَا يُعلل فيكم نضو أســقامِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص162.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص162.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص163.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَــا ظَــنَّكُمْ بِبَعيــدِ الــدَّارِ مُنفَــرِدٍ حَليــفُ هَــمٍّ وأحْــزَانٍ وآلامِ
يَا نَازِحينَ مَتَى تَدْنُو النَّــوَى بِكُــمُ حَالتْ لبعدكُمْ حَــالِي وأيَّــامِي
كم أسأل الطَّرْفَ عن طَيفٍ يعــاودُهُ وما لجِفْنِي مِن عَهْدٍ بــأحلامِ

ويعبِّر الشَّاعر عن وفائه لصديقه وإخلاصه له، مصوِّراً مكانته الرَّفيعة عنده، وأنَّ حبّه له حب دائم متَّصل وليس عارضاً آنيَّاً[1]:

وَما قَضَى بِكم مِنْ حُبِّكُمْ أربــاً ولو قَضَى فَهو من وجد بكم ظامِي
مَنْ ذَا يَلومُ أخاً وجــدٍ يحــبكم فأبْعَــدَ اللهُ عُــذَّالِي ولُــوَّامِي
في ذمةِ اللهِ قوماً ما ذَكــرتَهُمُ إلاَّ ونمَ بوجدي مَــدْمَعِي الــدَّامِي
قومٌ أذابَ فُؤادِي فَرطَ حُــبهم وقــد ألــمَّ بِقَلْبِــي أيُّ إلْمَــامِ
ولا اتَّخذت سِوَاهُم مِنهم بَــدَلاً ولا نَقَضتُ لِعهــدِي عَقــد إبــرامِ
ولا عرفت سوى حُبِي لَهم أبَداً حبــاً يعبِّــر عَنــه جِفنِــي الهــامِ

ويلتفت الشَّيخ تقي الدِّين لمدح صديقه بما يستحق، وبما تميَّز به في زمانــه، فهو الكوكب السَّامي، وهو البحر الذي لا ينضب، وهو من استفاد منه طلبــة العلــم كافة[2]:

يَا واحــداً أعربــت عَنْــهُ فَــضَائِلُهُ وسَارَ في الكونِ سَيرِ الكوكبِ السَّامِي
في نَعْتِ فَضْلِكَ حَارَ الفِكْرُ مِن دَهَشٍ وكلُّ ظامٍ رُوِيَ مِن بَحْرِكَ الطَّــامِي
لا يرتقي نحوكَ السَّاري علــى فلــكٍ فكيف مــن رام أن يــسعى بأقــدامِ
منكَ استفادَ بَنُــو الآداب مــا نَظَمُــوا وعنكَ ما حَفظُوا مــن رقــمٍ أقــلامِ
أنتَ الشّهابُ الذي سَامَى السماك عُلاً وفيضُ فضلِكَ فينــا فــيضُ إلهــامِ

ويتحدَّث عن القصيدة التي وصلته، وكيف أنَّها استثارت مشاعر الشَّوق فــي نفسه، وإعادة الحياة إليه، مبيِّنا أنَّه عاجز عن الرَّد عليها، أو الإتيان بمثلها[3]:

لمَّا رأيــتُ كِتابــاً أنْــتَ كَاتِبُــه وأضْرَمَ الشَّوقُ عِندي أيُّ إضْرَامِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص163.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص163.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص163.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنشدت قلبي هذا مُنْتَهــى أربــي أغاد عهد حيــاتي بعــد إعــدامِ
يا نَاظِرَيَّ خُذَا مِــن خَــدِّهِ قُــبَلاً فهو الجــديرُ بتقبيــلٍ وإكــرامِ
ثمَّ اسرحا في رياضٍ من حدائقِه وقد زَهَا زَهْرُهَا الزَّاهِي بأكمــامِ
مَنْ ذَا يُوَفِّيهِ في دُرِ الجَوابِ لَــهُ عُذْرَاً إليهُ ولوْ كُنتَ ابــن بَــسَّامِ

ويبثّ الشّيخ تقي الدِّين آلامه النفسيّة والجسديّة لصديقه، فقد تقدَّمت به السن، وأضناه المرض، وابتعد عنه الأصدقاء[1]:

حُوشِيْتَ مِنْ عَرَضٍ يَشْكِي ومِنْ أَلَمٍ لكِنَّ عَبدكَ أضْــحَى حِلْــفَ آلامِ
ولَو شَكَا سَــمَحتْ مِنــهُ شِــكَايَته إنَّ الثَّمانينَ تَستبطِي يَدَ الرَّامِــي
وحيدُ دار فريــدٌ فــي الأنــامِ لَــهُ جِيرانُ عهــدٍ قــديمٍ بــينَ آكــامِ
طَالتْ به شــقّة الأسْــفَار ويَحهُــم أغفوا وما نطقوا من تحتِ أرجامِ
أبْلَى مَحَاسِنَهُم مــرُّ الجَدِيــد بهــم وأبْعَدَ العَهْــدُ مِــنهم بعــدَ أيَّــامِ
فَلا عَدَاهُم من الــرَّحمن رَحْمَتُــهُ فَهِيَ الرَّجَاءُ الذي قَدَّمتُ قُــدَامِي

ثمَّ يختم قصيدته بتلبية طلب صاحبه داعياً له، لكنه دعاء يبدو عليه الــصبغة الرسميّة أكثر من الصبغة الاخوانية، ولعلَّ ذلك يعود لمنصب المدعو له الذي كــان يشغله آنذاك:

فَطالَ عُمْرُكَ يَا مَولايَ فِــي دَعَــةٍ ودامَ سَــعدكَ فــي عــزٍّ وإنْعَــامِ
ولا خَلَتْ مِصْرَ يَوماً من سَنَاكَ بها ولا نَأى نُورُكَ الضَّاحِي عَن الشَّامِ

وأحياناً تبدأ قصيدة الاخوانيات بمقدِّمة غزلية، كما في القصيدة التي بعثها جمال الدِّين ابن غانم إلى صلاح الدِّين الصفدي، فقد بدأها بمقدِّمة غزلية أفرغ فيها الشُّعور الذي يكنّه لصديقه، حيث قال[2]:

ذكرتُ قَلبِي حِينَ شَطَّ مَــزارُهُمْ بِهِمْ فَنابَ عَنْ الهَوَى تِذْكَارُهُمْ
وبَكَى فُؤادِي وَهْوَ مَنزلُ حُــبهُمْ وأحقُّ مَن تَبكِي الأحِبَّة دَارُهُمْ
وبجلّقِ الجَفنُ الهمُــولُ كأنَّمَــا لَمحتَهُ عِندَ مُرُورِهِمْ أنْــوَارُهُمْ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص163.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص209.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تِذرِي الدُّمُوعُ عَلــيهِم وكَــأنَّهُم زَهرُ الرُّبى وكأنَّها أمْطَــارُهُمْ
وبكينَ من حَالِي العَواذِلُ رَحمَةً لَمَّا بَكيتُ ومَا الأنينُ شِــعارُهُمْ
ويحَ المحبِّــينَ الــذِينَ بِــودِهُمْ قُربَ المَزَارُ ولو نَأتْ أقطَارُهُمْ

ونجدُ في قصيدة الاخوانيات مدحاً للشخص المرسل إليه، ويتناول هذا المــدح الصفات الخُلقية والخَلقية؛ فيمدح الشَّاعر صاحبه بطيب النَّسب، والكــرم والجــود، وحماية الدَّخيل، ويمدحه أيضاً بالصِّدق والوفاء والأخلاق النبيلة، كما في أبيات مــن قصيدة بعث بها الشِّيخ صلاح الدِّين الصفدي إلى جمال الدِّين ابن غانم، حيث يقــول عنه[1]:

دَنَتْ النُّجــومُ تَواضُــعاً لِمحلِهِــمْ وتَرفَّعــتْ مــن فَوقِهَــا أقْــدَارُهُمْ
وبِكفِهِمْ وبِوجْهِهِمْ كَمْ قــد هَمــتْ أنْــوَاؤُهُمْ وتَوقَّــدتْ أنْــوَارُهُمْ
أهْــدَى جَمَــالُهُمْ إلــيَّ تَحيــةً منها يدارُ علــى الأنَــامِ عِقــارُهُمْ
لكَ يا جمالُ الدِّينِ سبقٌ في الوَفَــا حتَّــى تقــرُّ لــصفوهِ أكــدَارُهُمْ
يَا ابنَ الكِرامِ الكــاتبينَ فــشأنَهمْ صِدقَ المــودةِ والوفَــا شِــعارُهُمْ
قومٌ إذا جَاءوا إلى شَــأوِ العُــلا سَبقوا إليــهِ ولــمْ يــشقَ غُبــارُهُمْ
صانُوا وزانُوا بــاليَراعِ مُلــوكهُمْ أسوارهمْ مــن كتــبهمْ وسِــوارُهُمْ
ما مِثلهمْ في جودهِمْ فلــذاكَ قــدْ عزَّتْ نِظائِرهُمْ وهــانَ نِــضارُهُمْ
فتعلمُ الــشيماتُ مــن أخلاقِهــمْ وتذوبُ عن زهرِ الرُّبَى أشــعارُهُمْ
وحِماهُمْ يحمِــي النَّزيــلَ بربعــهِ من جورِ ما يخشَى ويرعَى جارُهُمْ

واتَّخذ بعض الشُّعراء إخوانياتهم وسيلة للامتاع والمؤانسة، فبثُّوا فيها روحــاً فكاهيّة ودعابة مرحة، كما في الأبيات التالية التي بعث بها الشَّيخ مجد الــدِّين ابــن الظهير الأربلي إلى شهاب الدِّين محمود، حين وعده هو وفخر الدِّين ابــن الجنــان

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص209.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بزيارة الشَّيخ الأربلي فاخلفا، فجاء بمجموعة من الأبيات معاتباً صديقيه على إخلاف الوعد[1]:

مواعــدُ الفخــرِ والــشّهابِ أكذبُ من لامــعِ الــسَّرَابِ
أحــسنتُ بالــسيدينِ ظنــاً فكانَ نقبــاً علــى خــرابِ
كــمْ أخلفــاني فخلفــاني إذْ كنتُ غَراً على التُّــرَابِ
بمــا تكلفــتُ مــن أمــورٍ ما كُنَّ مِنْ عادَتِي ودَابِــي
خرجتُ فيهنَّ من قــشورِي فــأفقراني مــن اللبــابِ
راغا وزاغا وليس هذا الــــ ــخداع من شيمةِ الصحابِ
لو أنصفاني بفــرطِ شــوقي لوافيــاني بــلا طــلابِ
أو عدلا فــي الــودادِ عــادا بعد عدولِ إلــى الــصوابِ
هل أمن الصعب من ملامي والمؤلم المر مــن عِقــابِ

فجاء الرَّد من الشّهاب على شاكلة النَّص المرسل فطغت عليه الرُّوح الهزليّة الفكاهيّة عليه[2]:

أبــارق لاحَ فــي صــباحِ أم نظمِ الدُّرِ فــي ســخابِ
أم أسطرِ فر جيش همــي حين تسارعن فــي طلابِــي
لم يرَ مــن قبلهــا محــبَ كتائباً ســرنَ فــي كتــابِ
أرســلها ســيدُ نَــداه يهــزأ بــالزاخرِ العبــابِ
إلى غــريبينِ لــو يْــزالا لها مدى الدهر في ارتقــابِ
لمْ يخلفا الوَعْدَ بــلْ أقامــا ليأخذَ الجوعُ فــي التهــابِ
ويــستطيلا بكــل نــاب كالصارمِ العضبِ غيرِ نابِي
ويصبحُ الفخرُ وهو جــاثٍ يــنقضُّ للأكــلِ كالــشّهابِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص309؛ ابن الظهير الأربلي، (ت 677هـ)، (1998م)، **ديوان ابن الظهير الأربلي**، تحقيق: ناظم رشيد، ص29.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص309.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأتي قصيدة الاخوانيات لتسلية الصَّديق من أمرٍ ما والسؤال عن الحال، كما في الأبيات التي بعث بها عز الدِّين بن امسينا للتلعفري الشَّاعر، يسأله عن حاله ويسليه بعد أن عشق صبياً يلقَّب بالنَّجم، فسافر، ووجد عليه وحزن، فكتب إليه[1]:

يَا خَلِيْلِيَّ حَدِّ ثَاني بعلمٍ ... كَيْفَ حالُ الشّهاب بَعد النَّجْمِ
واقصصا لي حديثَهُ فلقد قلَّ ... اصطباري وزادَ فكري وهمِي
فمن المستحيلِ بعد رواح ال ... روحِ عندَ الوَرَى بقاءُ الجسمِ
ثمَّ قُولا لُهُ مَقال أخ بـ ... ـرّ شفيق بغيرِ ظَنٍّ ووهمِ
يا شهاباً أنوار بهجته الغرا ... ء تجلو عنا دَيَاجي الظلمِ
إن ناءى فَلا أقلَّ من الإلـ ... ـمام شوقاً من الديار برسمِ
واصرف الهم عن فؤادك إن أمـ ... ـكن تصريفه بإبنة كرمِ

فأجابه الشهاب التلعفري بأبيات تواضع فيها أيّما تواضع، مصوِّراً حاله التي سُئل عنها[2]:

بأبي أنتَ يا خَلِيلِي وأمي ... أنْتَ قَوْسِي إذا رَميتُ وسهمِي
أنت والله لي حسامُ جرازٍ ... فيه للنائبات أعظمُ حسمِ
كيفَ أخشى ذُلا ولي منك عز ... ما ترقت إليه همة نجمِ
نُظِمَتْ فيكَ للمعالي عقودٌ ... معجزاتٌ جميع نثري ونظمِي
سيدي ما يطيق عبدك يشكو ... ما يقاسي الناسُ فرطَ وَجْدٍ وغَمِّ
مذ تولى نجمي علمت بأني ... هابطٌ في جميعِ أمري ونجمِي
الليالي عندي ظلام وظلم ... بعد ذاك اللمى وذاك الظلمِ
جملةُ الأَمْرِ أنَّ لِي بعدهُ دمـ ... ـعاً كجدواك في انسكابِ وسجمِ

ومن موضوعات القصيدة الاخوانية الاعتذار؛ حيث يبسط من خلالها الشَّاعر عذره لصاحبه، كما في القصيدة التي أرسلها ناصر الدِّين ابن النقيب إلى مظفر الذَّهبي، يعتذر فيها عن عدم زيارته وعدم السؤال عنه، معلِّلاً ذلك بازدحام الأسواق

1: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج4، ص70.

2: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج4، ص70.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والطرقات وما فيها من مشاهد ومواقف مزعجة، ويبدو أنَّ عاطفة الشَّاعر ضـــعيفة، فلم ترتقِ لمستوى الرد من قبل مظفر الذَّهبي، فالقصيدة تكاد تكــون تــصويراً لمــا يحدث في الأسواق عندهم آنذاك[1]:

مَنَعتني مِنْ أنْ أرَاكَ خُيولٌ ضَاقَ صَدْرِي بِهَا وَضَاقَ الــسَّبِيلُ
هِي مَا بَيْنَنَا تَحُولُ وَمَا يَنْــ ــكرُ تَصْحِيف مَنْ يَقُــولُ تحــولُ

منظر مثلما رأيت مــروع وســماع كمــا علمــت مهــولُ
مقنب خلف مقنب متــوال ورعيــل يقفــوه ثــم رعيــلُ

وأحيانا تتخذ الاخوانية سمة المجون، كما في الابيات التي بعثها ناصر الدِّين ابن النقيب إلى النصير الحمامي، وقد حصل له رمد فقدَّم له علاجاً بطريقة هزليّــة ماجنة موريا في كلمة (عين) حيث يقول[2]:

يَقُولُونَ لِي عَينُ النَّصِيرُ تَألَّمَتْ وَلازَمَهُ فِي جِفْنِه الحَكُّ والأكلُ
فقلتُ أعينُ الراسِ أمْ عَيْنُ غَيْرِه فَلِلْعُلو شَيءٌ لا يُدَاوَى بِهِ السفلُ
فقالُوا بَلْ العَينُ التَّي تَحْتَ صلبِه فَقلتُ لَهَا التشييف عِنْدِي والكُحْلُ
وميلُ بماءِ الرِّيقِ يَبْتَــلُّ ســفله فَيدخُلُ سَهْلاً غَيرِ صَعْبٍ وينسلُ
وأغسلُها بالبَيْضِ واللَّبنِ الــذي عليّ بِتَقطِيرِي لَهُ يجبُ الغــسلُ
فإنْ شاءِ وافيتُ الأديبَ مُــدَاوِياً وَلَمْ أشتغلْ عَنْهُ وإنْ كَانَ لِي شُغْلُ

فأجابه النَّصير الحمامي بأبيات، أسرف فيها في مجونه بطريقة غير مباشرة:

أيَا مَنْ لَهُ فِي الطبِّ عِلمٌ مباشــرٌ وَمَا كلُّ ذِي قَولٍ لَهُ القَوْلُ والفِعــلُ
أتيت بطبٍّ قَدْ حَوَى البَيعَ والشِّرَا تَبَيَّنَ لِي فِي ذلكَ الخرجُ والــدخلُ
وإنْ كانَ ذَا سَهْلاً بطبِــكَّ إنَّــهُ بِسقْمِي صَعْبٌ ليسَ هذا بِهِ سَــهْلُ
فَلا عدمَ المَمْلُوكَ مِنْــكَ مُــدَاوِياً وَمَا زَالَ للمَوْلَى عَلى عَبْدِهِ الفَضْلُ

بل إنَّ الشُّعراء إمعاناً في الفكاهة كانوا يصوغون بعض اخوانياتهم الهزليــة في صورة قصائد وعظية وإرشادية، كما في الأبيات التالية التي أرسلها أبو الحسين

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص153.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص208.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجزَّار إلى صديقه السرَّاج الوراق ينصحه فيها بما يجب عليه القيام به يوم الاحتفال بالنيروز حتى يظفر في هذا اليوم بما يريده من ملاه وملاذ، حيث قال[1]:

استعمِلِ العفصَ بعــدَ الــدَّبغِ مَقْلُوبَــاً ... لِتَغْتَــدِي طَالِبَــاً طَــوْرَاً وَمَطْلُوبَــا
واسْكَرْ مِنَ الرَّاحِ وافْهَمْ مَا أَشَرْتَ لَهُ ... فَلَــيسَ يَحتــاجُ لا كاســاً ولا كوبَــا
واحملْ على القومِ واحلمْ إنْ هُمْ حَملوا ... فأَنْــتَ مَــا زِلْــتَ علابَــاً وَمَغْلُوبَــا
لَكَ الجَوَادَانِ فاركبْ مَــا تَــشَاءَ وَدَعْ ... مَا لا تَــشَاءُ مَــع الغلْمَــانِ مَجْنُوبَــا
قَــدْ أَدَّبَتْــكَ نــوارِيزٌ مُفرقَــة ... حتَّى لقد صِــرْتَ لا تَحْتَــاج تَأدِيبَــا
وَطَالَمَا استصلحَ الجَزَّار نَحْرَكَ فِــي ... يَوْمَ الأضَاحِي ولمْ يَسْتَــصْلِح النيبَــا
أذكرتنــا ازدشــيرا إذ ركبــت وإذ ... أصبحت بالتَّاجِ تَاجَ الخُوص مَعْصُوبَا
فاسْتَوْفِ غَير ضَجُور بالإمِــارَةِ مَــا ... على جبينِكَ "ما" قَــدْ كَــانَ مَكْتُوبَــا
والقِ الأيَادِي واقْبَــلْ مِــنْ هَــدِيتِها ... مَا كَانَ من قوص أو إخميم مجلوبَــا
يَا شَاعِراً لَــمْ يَفُتْــهُ اليَــوْمَ رَاوِيَــة ... يروي المجونَ إذَا لَــمْ يَــرُو تَــشْبِيبَا
لو أَنَّهُ أدْرَكَ الشَّيخَ الــصَّرِيعَ فَتَــى ... قَدْ صَارَ لَمْ يَــرْوِ إلا عَنْــكَ أَسْــلُوبَا

وقد تصحب القصيدة الاخوانية "هدية" كما في الأبيات التي بعــث بهــا أبــو الحسين الجزار إلى الصاحب كمال الدِّين ابن العديم، وأرسل معها "سجادة خضراء"، وكتب معها: المملوكة سجادة أبي الحسين الجزار، ويبدو أنَّ الجزار يــشكو كثــرة الذنوب، فقد عُرف عنه أنَّه صاحب مجون وزوايد، فــنظم الأبيــات علــى لــسان السجادة، حيث قال[2]:

أيُّهَا الصَّاحبُ الأجلِّ كمالُ الــدِّ ... ــيــن لا زلــتَ ملجــأً للغريــبِ
كُنْ مُجِيرِي لأنَّنِي قَــدْ تغــربْــ ... ــتُ لِكَوْنِي وَقعتُ عِنْدَ الأديــبِ
أَنَا سِجادةٌ سَــئِمْتُ مِــن الــطِّ ... يبِ فَهبْ لِي نشراً فنشركُ طيبِــي
طالَ شَوْقِي إلى السُّجُودِ وَكَمْ لِي ... مِن شُرُوقٍ فِي بَيْتِــهِ وَغُــرُوبِ
وإذَا مَا أتَــاهُ ضَــيْفٌ أرَانِــي ... مِنْهُ عِنْدَ الــصَّلاةِ وجــهٌ مُرِيــبِ

---

1 الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص282.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص293.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَمْ يرقْهُ اخضرارُ لَوْنِهِ وَهْيَهَـــا ت، ومَا رَاعَهُ اسْـــوِدَادُ الـــذُّنُوبِ
فَأَقلْ عَثْرَتِـــي وَوَفِـــرْ بِإِحْـــسَا نِكَ مِن وَجْـــهِ الكَـــرِيمِ نَـــصِيبِي
واجْبِرْ اليَوْمَ كَسْرَ قَلْبِي فَلا زِلْـــ ـــتَ مَدَى الدَّهر جَابِراً للقُلُـــوبِ

وقد تكون قصيدة الاخوانيات للاستهداء والطلب، كما في الأبيات التي كتبهـــا مجاهد الخياط إلى ناصر الدِّين ابن النقيب حين وعده بإردب قمح، فجهَّز له بعـــضه وأخَّر الباقي، فكتب إليه[1]:

مَا مَاجِداً بِالقَمْحِ قَدْ جَـــادَ لِـــي مَاذا الذي أَلْجَـــاك أنْ تَمْنَعَـــهْ
وَقَدْ شَكَا لِي نَقْصَهُ فرقةَ الـــــ ـــباقي عَسَى مَوْلايَ أنْ يَجْمَعَهْ
أأبعثُ الثنتـــين مِـــن حَاصِـــلِي إليكَ أو تَبْعَـــثَ لِـــي الأرْبَعَـــهْ

ومن الجوانب الرئيسيّة التي تضمَّنتها قصيدة الاخوانيات "العتـــاب" والـــرد عليه، فقد بعث علاء الدِّين ابن غانم إلى الشّهاب ببيتين عاتبه فيهما، بـــأنَّ جماعـــة كتَّاب الإنشاء يذمُّونه وابن غانم حاضر ولا يردّ عن الشهاب، فقال[2]:

ومن قالَ إنَّ القومَ ذَمُّوكَ كاذبٌ وما منكَ إلاَّ الفضلُ يوجد والجـــودُ
وَمَا أحَـــدٌ إلاَّ لِفَـــضْلِكَ حَامِـــدٌ وَهَلْ عِيبَ بَيْنَ النَّاسِ أو ذُمَّ مَحْمُودُ

فردَّ الشهاب بثلاثة أبيات معتذراً لصديقه عمَّا بدر منه، وأنَّه لا يذم بحضرته:

علمـــتُ بـــأنِّي لَـــمْ أذَمَّ بِمَجْلِـــسٍ وَفِيهِ كَرِيمُ القَومِ مثلـــكَ مَوْجُـــودُ
وَلستُ أُزكِيَ النَّفْسَ إذْ لَيْسَ نَـــافِعِي إذَا ذُمَّ منِّي الفِعْلُ والاسمُ محمودُ
وَمَا يَكره الإنسانُ مِن أكـــلِ لَحْمِـــهِ وَقَدْ آن أن يَبْلَى وَيَأكُلُـــه الـــدُّودُ

3.2 شعر المدح:

1.3.2 مدح المعاصرين:

لم يكن الكتبي معنِّياً بأشعار المدح، فلم يأت بقصائد مـــدح كاملـــة إلاَّ فـــي مناسبات قليلة، أمَّا ما عدا ذلك، فقد كان يمهِّد لأشعار المدح بقوله "وقال يمدح"، ثـــمَّ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص237.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج3، ص83.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يورد المقدِّمة الغزليّة فقط، ومن ذلك ما جاء في ترجمة ابن الحـــلاوي الـــشَّاعر، إذْ قال: "وقال يمدح الملك النَّاصر داود صاحب الكرك[1]:

أَحيا بِمَوعِـــدِهِ قَتيـــلَ وعيـــدِهِ رَشَأٌ يَشوبُ وِصالُهُ بِـــصُدودِهِ
قَمَرٌ يَفوقُ البَدرَ في أَوصـــافِهِ وَعَلى الغَزالِ بِمُقلَتَيهِ وَجيـــدِهِ
يا لَيتَـــهُ يَعِـــدُ المَـــلالَ فَإِنَّـــهُ ما زالَ ذا لَهَجٍ بِخُلْفِ وُعودِهِ
يَفتَرُّ عَن عَذبِ الرِضابِ بِحَياتِنا في وَردِهِ المَوتُ دونَ وُرودِهِ"

وإذا بحثنا عن المدح في الأبيات السَّابقة، فلا نجد منه شيئاً، ونقع على مثـــل ذلك في ترجمة الحسن الساسكوتي، حيث قال: "وقال يمدح زين الدِّين أتابـــك"، ثـــمَّ يورد أبياتها الغزلية فقط [2]:

أعَنْ لُؤْلُؤٍ رَطِبٍ تَبَسَّمْتَ أمْ ثَغْـــرِ ومِن رِيقِهِ أسْكَرَتْنِي أمْ مِنَ الخَمْـــرِ
وعَطْفُكَ تِيهاً مَاسَ أمْ خُوطُ بَانَـــةٍ وَطَرْفكَ أمْ هَارُوتُ يَنفثُ بِالـــسِّحْرِ
فَعنكَ نَهَانِي لائِمِـــي ولَـــوَ أنَّـــه يُحَاوِلُ نَصْحِي بَدَّلَ النَّهْيَ بِـــالأمْرِ
وَهَا أنذرِي إنْ كُنْتُ نَاذِرَةً دَمِـــي لَدَيْكَ ويَا شَوْقِي إلى ذلـــكَ النَّـــذْرِ
وإنّي لأهْوَى أنْ تَبُـــوئِي بِقَتْلِتِـــي ليبعثَنِي خَصمَاً لَكَ اللهُ في الحَـــشْرِ

وقد يورد الكتبي مختارات من المقدِّمة الغزليّة وبيت التخلُّص، ويردف ذلـــك بأبيات منتخبة من القصيدة في غرض المدح، كما في ترجمة ابـــن أبـــي حـــصينة، يقول: "ومن شعره يمدح أسد الدولة عطية بن صالح بن مرداس[3]:

سَرى طَيفُ هِندٍ وَالمَطِيُّ بِنا تَسري فَأَخفى دُجى لَيلٍ وَأَبدى سَنا فَجرِ

ثمَّ قال منها:

خَلِيلَيَّ فُكّاني مِـــنَ الهَـــمِّ وَأَركِبَـــا فِجاجَ المَوامِي الغُبرِ في النُوَبِ الغُبرِ
إِلى مَلِكٍ مِن عـــامِرٍ لَـــو تَمَثَّلَـــت مَناقِبُهُ أَغنَت عَـــنِ الأَنجُـــمِ الزُهـــرِ
إِذا نَحـــنُ أَثنَينـــا عَلَيـــهِ تَلَفَّتَـــت إِلَيهِ المَطايا مُـــصغِياتٍ إِلـــى جَبـــرِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص146.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص344.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص332.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَفَوقَ سَريرِ المُلكِ مِن آلِ صـــالِحٍ فَتـــىً وَلَدَتـــهُ أُمُّـــهُ لَيلَـــةَ القَـــدرِ

منها:

أَبا صالِحٍ أَشـــكُو إِلَيـــكَ نوائِبـــاً عَرَتني كَما يَشكُو النَباتُ إِلـــى القَطـــرِ
لِتَنظُرَ نَحوي نَظرَةً إِن نَظَرتَهـــا إِلى الصَخرِ فَجَّرتَ العُيونَ مِنَ الصَخرِ
وَفِي الدارِ خَلفي صِبيَةٌ قَد تَرَكتهُمُ يُطِلُّونَ إِطلالَ الفِـــراخِ مِـــنَ الـــوَكرِ
جَنَيتُ عَلى رُوحي بِرُوحي جِنايَةً فَأَثقَلتُ ظَهرِي بِالَّذي خَفَّ مِن ظَهـــرِي
فَهَب هِبَةً يَبقـــى عَلَيـــكَ ثَناؤُهـــا بَقاءَ النُجومِ الطالِعاتِ الَّتـــي تَـــسرِي"

ويستشف ممَّا تبقَّى من القصيدة أنَّ الشَّاعر اســـتهلَّها بمقدِّمـــة فـــي وصـــف الطَّيف، ثمَّ انتقل ليصف رحلته إلى الممدوح ليسري عنه همومه، فـــإذا مـــا وصـــل مدحه يلوذ الشَّاعر بالقيم المتعارف عليها، ليجعل ذلك مدخلاً لاستدرار عطف ابـــن مرداس، وتصوير فقره، متَّخذاً مدحه وسيلة للاستجداء وطلب العطاء.

ويبدو أنَّ القصيدة قد أثَّرت في الممدوح، فبعد أن فرغ الشَّاعر من قـــصيدته، أحضر ابن مرداس القاضي والشُّهود، وأشهد على نفسه بتمليكه ضيعة من ملكه لها ارتفاع كثير، وأجازه وأحسن إليه، فأثرى وتموَّل[1].

وورد مثل ذلك في ترجمته للحسن الساسكوتي، إذْ أورد له مختـــارات مـــن قصيدة مدحيّة، بدأها بغزل شاك حزين، ثمَّ يقول الكتبي "ومن شعره[2]:

أيَرُومُ هذا القَلْبُ بُـــرْءَ جِراحِـــهِ وَسُيُوفُ لَحْظِك تُنْتَضَى لِكِفَاحِهِ
يَـــا مُـــستبيحَ دَمِ المُتَـــيَّمِ عَامِـــدَاً أَنسيتَ يَوْمَ البَعْثِ حَمْلَ جُنَاحِهِ
نَظَرِي الذِي فِي الحُبِّ قَدْ أَفْسَدته إِفْسَادُهُ فِي الحُبِّ عَيْنُ صَلاحِهِ
حتَام تطرفُ طَرفَ عَيْنِي بالبُكَـــا وإلامَ طَرْفِي مُولِعَ بِطماحِـــهِ"

ثمَّ يأتي بعد ذلك بأبيات المدح ممهِّداً لها بقوله: "منها في المديح[3]:

مِلَـــكٌ إِذَا رَتَـــجَ العِـــدَا أَبْـــوَابهم كانَتْ مَفَاتِحُهـــا رُؤوسَ رِمَاحِـــهِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص333.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص343.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص343

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُرْجَى وَيَخْشَى فالمَنِيَّـــةُ والمُنَـــى مَقْرُونَتَـــانِ بِـــصَفْحِهِ وصـــفاحِهِ
سَمْحٌ لَوَ أنَّ الغَيْـــثَ كَلَّـــمَ قَبْلَـــهُ بَـــشَرَاً لِعُنْفِـــهِ لفـــرطِ سَـــمَاحِهِ
هو بحرُ جودٍ فابتعدْ عـــن لجّـــهِ لا يغرقنّك وادنُ مِن ضَحْـــضَاحِهِ
يعلـــو وينـــزلُ للرَّعيّـــةِ فـــضلُهُ كالطّودِ يـــدفعُ مـــاءَهُ لبطاحِـــهِ"

وواضح من الأبيات أنَّ الشَّاعر يقرن بين شجاعة الممدوح وكرمه، مـــصوِّراً عزيمته المصمِّمة وقذف الرُّعب في قلوب الأعداء، في حين أنَّه كـــان ســـلماً علـــى رعيته، سمحاً جواداً، غمر الناس بكثرة نواله.

وكذلك في ترجمة طلحة النعماني، إذْ أورد له بعض الأبيـــات مـــن مقدِّمـــة غزليّة[1]:

أَلقت قِنَاعَ الحسنِ بَعْـــدَ شـــماسِ وَرَنَتْ بِنَـــاظِرَتِي مَهَـــاةِ كنـــاسِ
عبث الدَّلالُ بعطفِهـــا فتمايلـــتْ عَبَـــثَ النَّـــسيمِ بنـــاعمِ ميـــاسِ
فرأيتُ غصنَ البانِ يثنيَهُ الـــصَّبَا من فوقِ حقفِ الرَّمْلَةِ الميعَـــاسِ

ثمَّ قال: "منها في المديح"، وجاء ببيتين يظهر من خلالهما المزج بين المـــدح وطلب العطاء:

الجاعلُ الأموالَ جنـــةً عرضَـــهُ والمستعانُ بـــهِ علـــى الإفـــلاسِ
عرفتُ فضائِلَهُ بعـــرفِ نجـــارِهِ والزندُ يُعرفُ من سنَا المقبـــاسِ

وقد يورد المقدِّمة الغزليّة كاملة، غير أنَّه يكتفي من المدح بذكر بيت التخلُّص كما في قول "النفيس أحمد القطرسي" يمدح "جلدك" والي دمياط، ويبدو أنَّ إعجـــاب الكتبي بحسن التخلُّص في الأبيات هو الذي دفعه إلى إيراد المقدِّمة كاملة[2]:

أحرقتَ يَا ثَغْرَ الحَبِيبِ حَشايَ لَمَّا ذُقْتُ بَـــــرْدَكْ
أتظنّ غُصْنَ البانِ يُعْجِبُنِي وَقَد عَايَنْتُ قـــــدَّكْ
أو خِلتَ آس عذارك المخضرّ يَحْمِي مِنْكَ وردَكْ
يَا قَلْبُ من لانَتْ مَعَاطِفهُ عَلَيْنا مَا أشـــــــدَّكْ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص136.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص301.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أتَظُنُّني جِلد القوى أو أنَّ لِي عَزَمَاتَ جلـــــدِكْ

وجاء بعض المدح في كتاب الفوات على صورة نتــف ومقطوعــات غيــر مسبوقة بمقدِّمة غزليَة كقول أبي الحسين الجزار يمدح فخر القضاة بن بصاقة، ويبدو في هذا المدح النزعة التكسبية، لذلك فقد دارت في الأبيات فكرة الكرم والعطاء[1]:

وكَمْ ليلةٍ قد بتُّها معــسراً ولــي ... بزخرفِ آمالي كنوزٌ من اليسرِ

أقولُ لِقَلْبي كُلَّما اشــتقتُ للغِنَــى ... إذا جاءَ نصرُ اللهِ تَبَّتْ يدُ الفقرِ

وإن جئتهُ بالمدحِ يلقاكَ بالنَّــدى ... فكم مرة قد قابل النَّظم بــالنثرِ

ومجمل المقطوعات التي اختارها الكتبي في المدح لا تدلُّ على تطــوُّر فــي معانيه، فقد ظلَّ الشُّعراء ينهلون من "معجم القيم" العربية الأصليّة والإسلاميّة النبيلة، ويصوِّرون المثاليّة الخلقيّة في ممدوحيهم. غير أنَّه يستشف من هــذه المقطوعــات بعض الدِّلالات الاجتماعيّة والحضاريّة؛ كما في الأبيات التالية التي قالهــا عرقلــة الدمشقي عندما تولَّى صلاح الدِّين شُرطةُ دمشق زمن نور الدِّين محمــود، إذْ هــدَّد لصوص الشَّام، وحذَّرهم من بطشه بهم، مستثمراً أوجه الشَّبه بين اسم صلاح الــدِّين "يوسف"، وسيدنا يوسف **u** ، مستخرجاً من ذلك معنى طريفاً يقول[2]:

رُوَيْدَكُمُ يا لصوص الشآم ... فإني لكمْ ناصحٌ في مقالي

وإياكُمُ من ســميّ النبــيِّ ... يوسُفَ ربِّ الحِجا والجمالِ

فَذَاكَ مُقَطِّعُ أيدي النِّــسَاءِ ... وهَذَا مقطّع أَيْدِي الرِّجَــالِ

وكذلك قال ابن أبي حصينة حين امتدح نصر ابن صالح بحلب عندما منحــه مكاناً فعمره داراً ونقش على دائرة الدرابزين[3]:

دارٌ بَنَيناهــا وَعِــشنا بِهــا ... في دَعَةٍ مِن آلِ مِرداسِ

قَومٌ مَحَوا بُؤسِي ولَم يَترُكُــوا ... عَلَيَّ في الأَيّامِ مِن باسِ

قُل لِبَنــي الــدُنيا أَلا هَكَــذا ... فَليَفعَلِ الناسُ مَعَ النــاسِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص190.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص318؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص87.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص333.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأتي بعض المقطوعات المدحية في صورة لقطة شـــعريّة خاطفـــة لمـــشهد يعجبه من الممدوح، وغالباً ما نجد الشَّاعر في هذا النَّمط يهتم بالصُّور الفنيّة وإيراد المقابلات اللَّفظية، كما في قول ابن المسجف يمدح الكمال القانوني وقد عاينه وهـــو يعزف عليه[1]:

لَوْ كُنْتَ عَايَنْتَ الكَمَالَ وَجـــسه أوتارَ قانونٍ لَـــهُ فـــي المجلِـــسِ

لرَأيتَ مِفْتَاحَ السُّرورِ بكفِّهِ الـــ ـــيُسْرَى وَفِي اليُمْنَى حَيَاةِ الأنفُسِ

وقول ابن المسجف العسقلاني يمدح الملك الكامل وقـــد رآه مـــستلئماً درعـــاً وممتطياً صهوة جواده، كذلك يقول[2]:

إذَا لَبِسَ الـــدِّرعَ مُـــسْتَلئماً وكرسيه صَهْوَةَ الـــصاهِلِ

تَرَى الأرضَ محمَّرَةً بِالدِّمَا ومُخْضَرَّةَ اللَّونِ بالنَّائِـــلِ

ويصوِّر الشُّعراء المثاليّة الخُلقيّة في ممدوحيهم، وهنا نجد تركيـــز الـــشُّعراء على صفة الكرم، كما في قول شرف الدِّين ابن فضل الله يمدح الملـــك المنـــصور قلاوون الألفي، معلِّلاً في مدحه سبب لقبه هذا موجهّاً هذا التعليـــل لـــصفتي الكـــرم والشَّجاعة، يقول[3]:

تهبُ الألوفَ ولا تهابُ لَهُـــم ألفاً إذَا لاقَيْتَ فِي الصَفِّ

ألفٌ وألفٌ فِي نَدَى وَوَغَـــىً فلأجل ذَا سُموكَ بالألفِي

ومن المدح ما جاء ارتجالاً، كما في قول عون الدِّين بن العجمي، وقد حضر يوماً مجلس مخدومه الملك النَّاصر، وأدار ظهره إلى الطراحة، فقال له أســـتاذ دار: السدة وراءك، فقال له الملك: سلمان من أهل البيت، فقال[4]:

رَعَى اللهُ مَلِكَاً مَا لَهُ مِن مُشَابِهٍ يَمُنُّ عَلَى العَانِي وَلَمْ يَكُ مَنَّانَـــا

لإحْسَانِهِ أمْسَيْتُ حسانَ مَدْحِـــهِ وَكُنْتَ سُلَيْمَانَاً فأصْبَحْتُ سَلْمَانَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص283.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص287.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص424.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص66.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أبيات المدح الواردة ارتجالاً أيضاً ما ورد في ترجمة مظفر الذَّهبي، فقد "كان تاج الدِّين الذَّهبي يكتب جيِّداً، ويذهب أجود، ويصوِّر في نهاية الحسن؛ ودخل السُّلطان الملك النَّاصر ابن العزيز عليه وهو بقلعة دمشق يُذهِّبُ في دار رضوان، فقال له: ما تصنع يا تاج؟ قال: يا خوند أنا بالنهار أذهِّب الثنا، وفي الليل أذهِّب الثنا، وقال بيتين ارتجالاً مدح فيهما الملك النَّاصر، يظهر فيهما حسن التأتِّي في المزج بين مدح الملك ووصف حال الشَّاعر[1]:

يَا حَاتمَ الجُودِ بَلْ يَا يوسف الثَّانِي ... اشفعْ فَدَيْتك إحْسَاناً بِاحْسَانِ

مَاذَا أقولُ وَعَكْس الحالِ صيَّرَنِي ... يَا مَالِكِي أحْرَقَتْنِي دَار رضوانِ

وقد يأتي المدح للاستهداء، وهو غير بعيدٍ عن طلب العطاء، كما في قول كمال الدِّين ابن الأعمى يستهدي الملك الحافظ نطعاً، ويبدو أنَّ النَّزعة الشَّعبيّة التي أمتاز بها شعر الأعمى جعلته يخرج عن الرَّصانة والجديّة في معاني المدح، ويسلك مسلكاً يقترب من الفكاهة والهزل، يقول[2]:

يَا مَلِكَاً قَدْ خُلِقَتْ كَفُّهُ ... للفَرقِ بَيْنَ الضُّرِّ والنَّفعِ

ومَلِكَاً صَيَّرَنِي عَبْدَهُ ... إحْسَانُهُ فِي القَولِ والصُّنعِ

وماجداً أنوار أسيافه ... مشرقةٌ في ظُلَمِ النَّقعِ

نحنُ بِحمدِ اللهِ في عِيْشَةٍ ... مَرضِيَّةٍ بالعقلِ والشَّرعِ

إذَا شَبِعْنَا بَعْدَ طُولِ الطَّوَى ... لَيْسَ لنَا نُقْلٌ سمى الصَّقعِ

والشُّغْلُ قَدْ دَارِ على رَسْمِهِ ... والوَقْتُ مُحتاجٌ إلى النَّطعِ

ومن القصائد المدحيّة الطويلة التي أوردها الكتبي قصيدة شهاب الدِّين محمود الحلبي التي قالها يمدح السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون عندما فتح مدينة عكا وطرد الفرنجة من بلاد الشَّام طرداً نهائيّاً. وقد استهلَّها الشَّاعر بفاتحة عبَّر فيها الشَّاعر عن فرحته الدِّينيّة بهذا النَّصر الكبير الذي حطَّم دولة الفرنجة

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص152.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص91.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعزَّ دين الإسلام على يد هؤلاء المماليك، وكيف أنَّ هذا الفتح لم يكن المسلمون يحلمون بتحقيقه من قبل[1]:

الحمدُ للهِ دلّت دَوْلَةُ الصُّلبِ وعزَّ بالتُّركِ دِينِ المُصطفى العَرَبِي
هذَا الذِي كَانتْ الآمالُ لَوْ طلبت رُؤيَاه فِي النَّومِ لاستحيت مِنَ الطَّلَبِ

ويتحدَّث الشَّاعر عن الآثار المترتِّبة على فتح هذه المدينة، ذات الموقع الاستراتيجي الحصين؛ حيث لم يَعد للفرنجة بعدها من سبيل إلى بلاد الشام، بل لم يعد أمامهم مجال إلاَّ الهرب:

لَمْ يَبقَ من بعدِها للكفرِ مُذْ خربت في البَرِّ والبَحْرِ مَا يُنْجِي سِوَى الهَرَبِ
كَانَتْ تخيلنا آمَالنَا فَنَرَى أنَّ التَفَكّرَ فيها غَايَةَ العَجَبِ

ويصوِّر الشَّاعر حصانة هذه المدينة والأسوار التي استدارت حولها من البرِّ والبحر، والدِّفاعات المنيعة التي استحكمت حولها، والأبراج الضَّخمة التي أقيمت في أنحائها، والمجانيق التي كانت تنطلق منها، حتى غدت مدينة لا يمكن التفكير في مهاجمتها، يقول:

أمَّا الحُروبُ فَكَم قَدْ أنْشَأت فِتَناً شَابَ الوَلِيد بِهَا هَوْلاً ولَمْ تَشِبِ
سوران: برٌّ وبحرٌ حَوْلَ سَاحَتِهَا دَار وأدْنَاهُمُا أنْأى مِنَ القُطُبِ
مصفّح بصفاحٍ حَوْلَهَا أكمٌ مِنَ الرِّمَاحِ وأبراجٌ مِنَ اليلبِ
مثلَ الغمائِمِ تَهْدِي مِنَ صَوَاعِقُهَا بِالنبلِ أضْعَافَ مَا تَهْدِي مِنَ السُّحُبِ
كأنَّما كلّ برجٍ حَوْلَهُ فَلَكٌ مِنَ المَجَانِيق يَرْمِي الأرْضَ بالشُّهُبِ

ويصف الشَّاعر بطولات المسلمين وهم يقفون على أسوار هذه المدينة يتقدَّمهم السُّلطان الأشرف وقد انقضُّوا عليها تؤيِّدهم العناية الإلهيّة، وتحفِّزهم العقيدة الإسلاميّة، حتى تمكَّنوا من الظهور على أسوارها، وتدمير أبراجها، واقتحام تحصيناتها، يقول:

كَمْ رَامَها ورَمَاهَا قبلهُ مَلِكٌ جَمُّ الجُيُوشِ فَلَمْ يَظْفَرْ ولَمْ يَجِبِ
لَمْ تَرْضَ هِمَّته إلاّ الذِي قَعَدَتْ لِلعَجْزِ عَنْهُ مُلُوكُ العُجْمِ والعَرَبِ

1: انظر هذه القصيدة، الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص410-413.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليثٌ أبى أنْ يردَّ الوَجْه عن أُمــمٍ يدعونَ ربَّ العُلَى سُــبحانه بــأبِ
فأصبحتْ وهي في بحرينِ ماثلةٌ مَا بَيْنَ مضطرمٍ ناراً ومــضطربِ

ويمجِّد الشَّاعر بطولات الجند المسلم الذين استبــسلوا فــي هــذه المعركــة، واقتحموا أسوار المدينة، وأضرموا النِّيران في أرجائها، خائضين إليها بحــارة مــن الموت، يقول:

جيشٌ من التُّركِ تَرْكُ الحــربَ عنــدهم عارٌ، ورَاحَتَهُمُ ضُرْبُ مِنَ الــضَّرْبِ
خَاضُوا إليها الرَّدَى والهَجْرُ فاشتبه الـــ أمْرَانِ واخْتَلَفَا في الحــالِ والــسَّبَبِ
تــــسنّموها فَلَــــمْ يَتْــــرُكْ تــــسنّمُهُمْ فِي ذلكَ الأفُقِ بُرْجَــاً غَيــرَ مُنْقَلــبِ
أتوا حِمَاهــا فلــمْ تمنــعْ وقــد وثبــوا عَنْها مَجَــانيقُهم شَــيئاً ولَــمْ يَثْــبِ

ويعبِّر الشَّاعر عن اندماجه التَّام في الجماعة الإسلاميّة، حيث يضع الصِّراع في إطاره الدِّيني الشَّامل، وينظر إليه على أنَّه صراع عقدي بين الإسلام والكفر، لذا أكثر في قصيدته من المعاني الدِّينية؛ فالفرنجة (عبّاد عيسى) وجيش المسلمين أطلعه الله، وهو (جيش النصر)، ويستجيش الشَّاعر المــشاعر الإســلاميّة حــين يــصوِّر الرَّسول الكريم محمَّدا **r** وقد أشرف المعركة من قرب، وفرح بالنَّصر، وقرّ عينــا به، كما فرحت به الكعبة الغراء. يقول:

أغــضبْتَ عبَّــادَ عِيْــسَى إذْ أبــدتهم للهِ أي رضىً فــي ذلــكَ الغَــضَبِ
وأطلــع اللهُ جــيشَ النَّــصرِ فابتــدرتْ طلائعُ النَّصْرِ بينَ السّمرِ والقــضبِ
وأشرفَ المُصْطَفَى الهَادِي البَشِيرِ عَلَــى مَا أسْلَفَ الأشْرَفُ السُّلطانَ من قربِ
فقــرّ عينــاً بهــذا الفــتح وابتهجــتْ بفتحِهِ الكعبةُ الغَــرَّاءُ فــي الحُجُــبِ

ويعود الشَّاعر إلى وصف عنف المعركة وضراوة القتال وما تمخَّــض عنــه من هزيمة الفرنجة؛ مصطنعاً الأساليب الجزلة والصور الحربيّة العنيفة التي تمثِّــل السُّيوف وقد خضبِّت بدماء الأعداء، وترسم مشاهد مثيرة للقتلى وقد غاصت الرِّماح في زرق أعينهم، واشتعلت النيران في أجسادهم حتَّى ذاب من حرِّها الحديــد الــذي كانوا يدجّجون به، وجرت الدِّماء في شوارع المدينة وسالت إلى مياه البحر، بــل أنَّ جثثهم أخذت تطفو في البحر في مشهد مريع، يقول:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخاضتْ البيضُ في بحرِ الدِّماءِ وما أبدتْ من البيضِ إلاَّ ساقَ مختضبِ
وغاصَ زرقُ القَنَا في زُرْقِ أعينهم كأنها شطنٌ تهوي إلى قُلُبِ
توقَّدتْ وهي غَرْقَى في دِمَائِهُمُ فزادها الطَّفحُ منها شِدّةُ اللَّهبِ
وذابَ من حَرِّها عنهم حَديدُهُمُ فقيدتهم بها ذعراً يَدُ الرَّهبِ
أجرت إلى البحرِ بحراً من دِمَائِهُمُ فراحَ كالرَّاحِ إذ غرقاهُ كالحببِ

وتختلط في نفس الشَّاعر مشاعر الشَّماتة والسُّخرية حين يصوِّر هزيمة الأعداء، ويصف فرارهم من ميدان المعركة، ورماح المسلمين تلاحقهم وتطلبهم، يقول:

تَحَكَّمَت وَسَطَتْ فِيهم قَوَاضِبُنا قَتْلاً وَعَفَّتْ لحاوِيها عَن السَّلَبِ
كأنَّهُ وسنانَ الرُّمحِ يطلُبُهُ برجٌ هَوَى ووراه كَوْكَبُ الذَّنَبِ

وينظر الشَّاعر إلى المستقبل من خلال عزيمة ممدوحه، فيحثّه على مواصلة الجهاد، واستثمار النَّصر لتحقيق غاياته ومآربه، يقول:

بُشراكَ يا مَلكَ الدُّنيا لقدْ شرفتْ بكَ الممالِكُ واستعلتْ على الرُّتَبِ
مَا بَعْد عَكا وَقَدْ لانَتْ عَرِيكتُها لدَيْكَ شيءٌ تُلاقِيهِ عَلى تَعَبِ
فانهضْ إلى الأرضِ فالدُّنيا بأجمعِها مُدَّتْ إليكَ فواصلُها بِلا نَصَبِ

ويبدو أنَّ قوة انفعال الشَّاعر قد أخرجته عن منطق التَّرتيب والتنسيق، فعاد مرَّة أخرى لوصف عنف القتال الذي دار في المعركة، وهنا نجده يركِّز على وصف الحصار العنيف الذي ضربه المسلمون حولها، والجيوش الضَّخمة التي شاركت في الإحاطة بها، واستعمال المنجنيق في قصف أسوارها، واشتعال النيران في نواحيها، يقول:

وجئتها بجيوشٍ كالسيولِ على أمثالِها بين آجامٍ منَ القُضُبِ
وحطتُها بالمجانيقِ التي وقفتْ إزاءَ جدرانِها في جَحْفَلٍ لَجِبِ
مرفوعةً نصبُوا أضعافها فَغَدا للكسرِ والحطمِ منهم كلُّ مُنْتَصبِ
ورضتها بنقوبٍ ذَلَّلَتْ شِمَماً منْهَا وَأبْدَتْ مُحيَّاهَا بِلا نَقَبِ
وغنَّتْ البيضُ في الأعناقِ فارتقصتْ أبراجُها لعباً منهنَّ باللعبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وترتَّب على فتح عكا فتح المدن المجاورة لها، ومن هذه المدن مدينة صور، فيربط الشَّاعر بين هذين الفتحين، مصوِّراً احتراق مدينة صور وفرار الفرنجة منها، يقول:

وتَمَّتْ النِّعْمَةُ العُظْمَى وقدْ كملتْ ... بِفَتْحِ صورٍ بِلا حَصْرٍ ولا نَـصَبِ
وجَارَتْ النَّارُ في أرْجَائِهَا وَعَلَتْ ... فأطفأت ما بِصَدْرِ الدِّينِ من كَـرَبِ
وأفلتْ البحرُ مِنْهُم مَنْ يُخبّر مَـنْ ... يَلْقَاهُ من قَوْمِهِ بالوَيْـلْ والحَـرَبِ
أخْتَان فِي أنَّ كِلاً مِنْهُمَا جَمَعَـتْ ... صَلِيبَةُ الكُفْرِ لا أخْتَانِ فِي النَّـسَبِ
لمَّا رأتْ أختَها بالأمسِ قد خربتْ ... كان الخرابُ لها أعدَى من الجربِ

2.3.2 المدائح النَّبويّة:

كثُر المديح النَّبويّ وازدهر في مصر والـشَّام وغيرهمـا زمـن الحـروب الصَّليبيّة، وكان لهذه الحروب التي أخذت الصبغة الدِّينيّة منذ بدايتها دور كبير فـي ذلك، إضافة إلى ما رآه المسلمون من تعظيم الصليبيين لعيـسى u ، واهتمـامهم بميلاده، فقلَّدوهم في ذلك، وانتشار عادة الاستشفاع بالرَّسول r[1]، فكانت شخـصية الرَّسول r محوراً رئيسياً من محاور الشِّعر الجهادي آنذاك، حيث استدعى الشُّعراء هذه الشخصية الكريمة في سياق الحثِّ على الجهاد، واسـتثارة مـشاعر المـسلمين للدِّفاع عن أرضهم ومقدساتهم، ولعلَّ أوضح مثال نجده على ذلك ما ورد في قصيدة أبي المظفر الوردي التي قالها عندما استولى الفرنجة علـى بيـت المقـدس سـنة (492هـ)، ومطلعها[2]:

1: ضيف، شوقي، (1984م)، **تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات، مصر والشام**، دار المعارف- مصر، ص409؛ عادل جابر صالح، الرقب، شفيق محمَّد، (1990م)، **كتاب خاص في تاريخ الأدب العربي القديم**، دار صفاء، الطبعة الأولى، ص129.

2: أبو المظفر الأبيوردي، محمَّد بن اسحق، (1974م)، **ديوانه**، تحقيق: عمر الأسعد، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ج2، ص156، 157؛ ابن الأثير، عز الدِّين أبي الحسن علي بن محمَّد بن عبد الكريم الجزري، (ت 630هـ)، (1966م)، **الكامل في التاريخ**، ج10، دار صادر – بيروت، ص284.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَزَجْنَا دِمَاءً بالدُّموعِ السَّواجمِ فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عَرْصَةٌ لِلَمراحِمِ

حيث سرت في القصيدة مشاعر إسلامية جياشة، وبلغت القصيدة ذروة الاستثارة عندما صوَّر الشَّاعر الرَّسول **r** وقد أهمَّته معاناة المسلمين في ديار الشَّام فأخذ يهتف من قبره الطَّاهر، ويحثُّ المسلمين على الجهاد:

وَبَيْنَ اختِلاسِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَقْفَةٌ تظلُّ لها الولدانُ شيبَ القوادمِ

يَكادُ لَهُنَّ المُستَجِنُّ بِطَيْبَةٍ يُنادِي بِأَعْلَى الصَّوْتِ: يا آلَ هاشِمِ

أرى أمَّتي لا يُشرعونَ إلى العِدَا رِماحَهُمُ، وَالدِّين واهِي الدَّعائِمِ

ونجد في كتاب (فوات الوفيات) شعراً في مدح الرَّسول **r** في تراجم: الشّهاب العزازي، وتقي الدِّين الطبيب، وابن بنت الأعز، وتقي الدِّين بن دقيق العيد، والبوصيري، وكمال الدِّين بن الزملكاني[1].

وقد كانت أغلب القصائد التي خصصت لمدح النبي **r** تستهل بأبيات قد تطول أو تقصر تخلص إلى الغرض الأساسيّ[2]، فقد يأتي الشَّاعر بمقدِّمة غزليّة رقيقة، وهذا ما عدَّه زكي مبارك براعة استهلال في المدائح النبويّة[3]، والمقدِّمة الغزليّة تكثر في القصائد التي قيلت معارضة لقصيدة كعب بن زهير المشهورة[4]، كما في مقدِّمة قصيدة للشّهاب العزازي يمدح الرَّسول **r**[5]:

دَمِي بأطلالِ ذاتِ الخال مطلولُ وجيشُ صبرِي مهزومٌ ومفلولُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**: انظر هذه التراجم على التَّوالي: ج1، ص95، 96؛ ج2، ص 98، 280، 281؛ ج3، ص 362،444،445؛ ج4-9، 10، 11، ص299، 318.

2: رشيد، ناظم، **المدائح النبويّة في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة**، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، 2002، ص33.

3: مبارك، زكي، **المدائح النبوية في الأدب العربي**، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، 1935، ص52.

4: محمَّد، محمود سالم، (1996م)، **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي**، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ص106.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**: ج1، ص95؛ الشهاب العزازي، أحمد بن عبد الملك المعروف، **ديوان الشهاب العزازي**، مخطوط، ص1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن يلاقِ العيونَ الفاتكـــاتِ بِـــلا صبر يدافع عنـــه فهـــو مخـــذولُ
لمْ يدرِ مَنْ سلبَ العُـــشَّاقَ أنفـــسَهم بأنّه عـــن دم العـــشّاق مـــسئولُ
وبَي أغنُّ غضيضِ الطَّرفِ معتدلُ القَوَامِ لدن مهزّ العطف مجـــدولُ
كأنَّـــه فـــي تثنّيـــهِ وخطرتِـــهِ غصن من البان مطلول ومشمولُ
ســـلافةُ منـــه تـــسبيني وســـالفُهُ وعاسل منه يـــصبيني ومعـــسولُ
وكلّمـــا مرضـــت أجفـــانُ مُقلتِـــهِ يصحّ إلاّ غرامي فهـــو منحـــولُ
يا برقُ كيف الثنايا الغرِّ من إضـــمٍ يا برق أم كيف لي منهنّ تقبيُـــل
ويا نسيمَ الصَّبا كررْ علـــى أذنِـــي حديثهنَّ فَمـــا التِّكـــرارُ مَمْلُـــولُ
ويا حداةَ المطايـــا دون ذي ســـلمِ عوجوا وشرقيّ بانات اللّوى قيلُوا

ومن المقدِّمات التي بدأت بها المدائح النَّبويّة، الحنين إلى الـــدِّيار الحجازيّـــة وذكر معالمها، والتشوُّق إلى ساكنيها، ووصف المواضع التي تقـــع علـــى امتـــداد الطريق، كما في قول الصرصري[1]:

ذكـــر العقيـــقَ فهاجَـــه تـــذكاره صبٌّ عن الأحباب شطٌّ مـــزارُهُ
وهَفتْ إلـــى سَـــلع نـــوازعُ قلبـــه فتضرّمت بينَ الجـــوانحِ نـــارُهُ
كلـــف برامـــة مـــا تـــألّقَ بـــارق من نحوها إلّـــا بـــدا إضـــمارُهُ
يـــشتاق واديهـــا ولـــولا حبُّهـــا لم يصْبِه واد زهَـــتْ أزهـــارُهُ
شَغَفا بمَـــن ملَـــكَ الفـــؤادَ بأســـرهِ وبـــودِّه ألا يُفَـــكَّ إســـارُهُ
لـــولا هـــواه لمـــا ثَنـــى أعطافَـــه بان الحِجازِ ورنُـــده وعـــرارُهُ
يا من ثوى بين الجـــوانح والحَـــشَا منّي وإن بَعُدَت علَـــيَّ ديـــارُهُ
عَطْفـــا علـــى قلـــبٍ بحبِّـــك هـــائمٌ إنْ لمْ تصِله تَصدَّعَت أَعـــشارُهُ
وارْحَمْ كَئِيباً فِيـــكَ يَقْـــضِي نَحبَـــه أَسَفاً عليك وما انقتض أَوطارُهُ
لا يـــستفيق مـــن الغـــرام وكلَّمـــا حجَبوك عنه تَهتكـــت أَســـتارُهُ
مَا اعتاضَ عن سُمرِ الحِمَى ظلاًّ ولا طَابَت بِغَيْرِ حَـــدِيثكُم أسـمارُهُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص301.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هَلْ عَائــد زَمــن تــضوَّع نَــشَره أرجاً ورقت بالرِّضَى أَســحارُهُ
فِــي مُرَبــعٍ بِقِبَــابِ سَــلْع مونــقٍ بالأُنْسِ تهتف بــالمُنى أَطيــارُهُ

ويتشوَّق ابن الزملكاني في إحدى مقدِّمات نبوياته إلى الدِّيار الحجازية، واصفاً النَّاقة التي استقلَّها، والمشاهد التي صادفته أثناء الرحلة، مبرزا الحنين القوي لهــذه الدِّيار[1]:

أهْوَاكِ يَــا رَبــةَ الأسْــتَارِ أهْــوَاكِ وإنْ تَباعَــدَ عَــنْ مَغْنَــايَ مَغْنَــاكِ
وأعمل العيس والأشــواقُ تُرْشِــدُنِي عَــسَى يُــشَاهِدُ مَعنــاكِي مَعنَــاكِ
تَهْوِي بِهَا البَيْدَ لا تَخْشَى الضَّلالَ وَقَدْ هُدَّتْ بِبَرْقِ الثَّنَايَــا الغُــرِّ مُــضْنَاكِ
تــشوقها نــسمات الــصُّبح سَــارِيَة تَــسُوقها نَحْــوَ رُؤيَــاكَ بريــاكِ
يَا رَبةَ الحَرَم العَــالِي الأمِــين لمــن وافاهُ مِنْ أينَ هــذا الأمْــنُ لــولاكِ
إنْ شَبَّهُوا الخَال بالمِسْكِ الذَّكِيّ فَهَــــذا الحالُ من رُؤيةِ المحكِي والحَاكِي
أفــدي بأســود قلبــي نــور أســوده من لي بتقبيلــه مــن بعــد يمنــاكِ
إنِّي قَصَدْتُكَ لا ألــوِي علــى بَــشَرٍ تَرْمِي النَّوَى بِي سِرَاعاً نَحْوَ مَرْمَــاكِ
وقَد حَطَّطْتُ رِحَالِي في حِمَاكِ عَــسَى تــــنحط أثقــــال أوزاري بِلُقْيَــــاكِ

ويحنُّ ابن دقيق العيد في إحدى مطالعه إلى الحجاز ويركِّز الحنين في بعض الأماكن مثل: مكّة المكرمة، قباء؛ لما تتميَّز به من قداسة[2]:

يَا سَايِرَاً نَحْوَ الحِجَــازِ مُــشمِّراً اجْهَدْ فَدَيْتُك فِي المَسيرِ وَفِي الــسُّرى
وإذا سهرت الليلَ فِي طَلَبِ العُلا فَحِذَارِ ثُمَّ حَذَارِ من خــدْع الكَــرَى
فالقصْدُ حَيْثُ النورُ يُشرقُ ساطِعاً والطرق حيثْ ترَى الثَّرى مُتَعطِّــرا
قف بالمنازلِ والمَناهل من لــدُنْ وادي قباءَ إِلَــى حِمــى أمِّ القُــرَى
وتوَخّ آثارَ النَّبــي فَــضَعْ بِهَــا مُتَشرِّفاً خَــدَّيْكَ فِــي عَفْــرِ الثَّــرَى
وَإذَا رَأيتَ مهابِطَ الــوحيِ الَّتِــي نَشرتْ عَلَى الآفــاق نُــوراً أنــورا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص9.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج3، ص444؛ علي صافي حسين، (1999م)، **ابن دقيق العيد، حياته وشعره**، دار المعارف بمصر، ص 139، 140.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فاعْلَمْ بأنَّكَ مَـــا رَأيـــتَ شَـــبيهَهَا مُذْ كنتَ فِي ماضيَ الزَّمان ولا يَرَى
ولقدْ أقولُ إذَا الكواكبُ أشـــرَقَتْ وترفعتْ فِي مُنتهَى شَـــرَفِ الـــذُّرَى

وقد نجد مدائح نبويّة بلا مقدِّمة، حيث يلج فيها الشَّاعر إلى المدح مباشـــرة دون الاستهلال بمقدِّمة غزلية أو غيرها، كما في قصيدة البوصيري، والتي بدأها بالمـــدح مباشرة، ومطلعها[1]:

كَيْـــفَ تَرْقَـــى رُقِيَّـــك الأَنبيـــاءُ يَا سَـــمَاءً مَـــا طاوَلَتْهـــا سَـــمَاءُ

وعند التأمُّل في متون القصائد التي مدح بها النبي **r** يُطالعنا التَّغني بـــشمائل الرَّسول **r**، ووصف محاسنه الخَلقيّة والخُلقيّة، كما في قول الـــصرصري يـــصف النَّبي **r** ونوره السَّاطع[2]:

أوجُهـــكَ أمْ ضُـــوءُ الـــصَّباحِ تبلجـــا أمْ البَدْرُ في بُرْجِ الكَمال جَلا الدُّجَى
أم الشَّمسُ يَومَ الصَّحْو في بُرجِ سَـــعْدِها وَفَرْعكَ أم ليل المحـــب إذا سَـــجَا
وبرقٌ سَـــرَى أم نُـــورُ ثَغْـــرِكَ بَاسِـــمَاً ونشرُك أم مـــسكٌ ذَكِـــيّ تَأرجَـــا
أتَتْكَ جُنـــودُ الحـــسنِ طَوعَـــاً بِأسْـــرِها فَصَرْتَ مَليكاً في الجمـــالِ مُتَوَّجـــا
فأضْـــحَت أبيـــاتُ القلـــوبِ أســـرة لديكَ فَلَمْ يملكـــنَ عَنْـــكَ معرَجَـــا
فَطُـــوبَى لعبـــدٍ أنْـــتَ سَـــيِّدُهُ لَقَـــدْ سَمَا بين أربابِ البصائِرِ والحِجَـــى

ويعبِّر ابن بنت الأعز عن عجزه عن وصف النبي **r**، واســـتكمال صـــفاته، وهي صفات عجزت الأذهان عن حصرها، فيحاول أن يقرِّبها من خلال التَّـــصوير الشِّعري[3]:

مَا فِي قِوَى الأذْهانِ حصرُ صِفَاتِكَ الـــ عليا ومالكُ مـــن كـــريمِ المحتـــدِ
ومن المحـــيطُ بكنـــه معنـــىً مـــدهشٍ بَهَرَ العُقـــولَ بمـــصدر وبمـــوردِ
فـــإذا البَـــصائرُ فيـــه تنفـــذ أدركـــت منـــه مَعَـــانِي حُـــسْنُها لَـــمْ ينفـــدِ

1: البوصيري، شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد الصنهاجي، (ت696هـــ)، (1973م)، **ديوان البوصيري**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط2، الناشر: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ص21.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص299.

3: **الكتبي، فوات الوفيات**، ج2، ص279.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورأتك في مرآتهـا شـمس الـضحى طلعـت بكـل تنوفـة وبفدفـدِ
فأفـادت البـصر الـصحيح إنـارة تقوى على البصر الضعيف الأرمدِ

ويعرض البوصيري في مدائحه جانباً من سيرة الرَّسول r ، ففـي الأبيـات التالية قدَّم صورة لنشأة رسول الله r [1]:

أَلِفَ النُّسْكَ والعبـادةَ والخَلـ ـوةَ طِفـلاً وهكـذا النُّجَبَـاءُ
ورأَتْهُ خديجـةٌ والتُّقَـى والـ ـزُّهْدُ فيـه سـجيَّةٌ والحيـاءُ
وأحاديث أنَّ وَعْدَ رسـولِ الـ ـله بالبعثِ حانَ منه الوفـاءُ
فدَعَتْهُ إلى الزواجِ ومـا أَحْـ ـسَنَ ما يبلغُ المُنَى الأَذكيـاءُ
وأتـاهُ فـي بيتهـا جَبْرَئيـلٌ ولِذي اللُّبِّ في الأُمورِ ارْتيـاءُ

وتحدَّث الشُّعراء عن رسالة الرَّسول r ، وهدايته للنـاس، كمـا فـي قـول الصرصري، الذي يشير إلى أنَّ الرَّسول r أدى تكليف الله له أحسن أداء[2]:

مُصْطَفى اللهُ ذِي الجَلالِ من الخُـلـ ـقِ نَبِيٌّ له عَلينـا الـوَلاءُ
فأتَـاهُم مـن ربِّـه بِكتـابٍ هُـو لِلنَّـاسِ رَحمـة وشـفاءُ
ولقد أحسنَ البَـلاغَ وأبْقَـى سُنَّـة لا تَشُـوبُـها الآراءُ

ويقول البوصيري إنَّ الرَّسول r قد بيَّن للناس الخطأ والصواب في كل أمور الدُّنيا، فقد جاء منقذاً ومصلحاً من الله جلَّ وعلا[3]:

وَلولاَ النَّبـيُّ محمَّـد وَعُلُومُـه لَمْ يَعْرف التَحْـسِينُ والتَقْبِـيحُ
عَقَدَ الإلهُ به الأُمورَ فَلَـمْ يَكُـنْ لِـسِواهُ إمْـساكٌ وَلا تَـسريحُ

وفضّل الشُّعراء الرَّسول r على سائر الأنبياء والرُّسل عليهم السَّلام، علـى الرّغم من النَّهي عن تفضيل الرَّسول r ، مستندين في ذلك على آيات القران الكريم، وذهبوا إلى أنَّ الله فضّل بعض الأنبياء على بعض، واستشهدوا على ذلـك بقولـه تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[4].

1: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص15
2: الصرصري، **ديوانه**، ج1، ص23.
3: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص50.
4: سورة البقرة، آية (253).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونقع على بعض هذا التفضيل لدى البوصيري الذي يفضل الرَّسول **r** على كافة الأنبياء، جاعلاً الأنبياء صورة لفضائل النبي **r** [1]:

كيف ترقَى رُقِيَّك الأَنبياءُ ... يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ
لَمْ يُساوُوك في عُلاكَ وَقَدْ حا ... لَ سناً مِنك دونَهم وسَناءُ
إنّما مَثَّلُوا صِفاتِك للنا ... س كما مثَّلَ النجومَ الماءُ

وثمّة صورة أخرى لتفضيل الرَّسول **r** عند البوصيري، وهي تفضيله من خلال معجزاته، يقول[2]:

وَكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرامُ بها ... فإنما اتَّصلتْ من نورهِ بهمِ
فإنهُ شمسٌ فضلٍ همْ كواكبها ... يُظْهِرْنَ أَنْوارَها للناسِ في الظُلَمِ
أكرمْ بخلقِ نبيٍّ زانهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ

ومن العناصر الرئيسية في المدائح النبويّة الحديث عن معجزات الرَّسول **r**، "فقد اتسع شعراء المديح النَّبوي في ذكر المعجزات اتساعاً كبيراً، بسبب شيوع الحديث عن هذه المعجزات والتأليف فيها، وبسبب الجدل الدِّيني مع أهل الكتاب، وغذَّى هذا التوجُّه نحو الإفراط في نسب المعجزات إلى رسول الله سيادة الاتجاه الصُّوفي، الذي يميل أصحابه إلى الخوارق والكرامات"[3]، وأول هذه المعجزات القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، وأكبر معجزات الرَّسول **r**، فتحدَّث البوصيري عن هذه المعجزة وفضلها وخلودها، حيث يقول[4]:

آياتُ حقٍّ من الرَّحمن محدثةٌ ... قَديمَةٌ صِفَةُ المَوْصوفِ بالقِدَمِ
لم تقترنْ بزمانٍ وهي تخبرنا ... عَن المعادِ وعَنْ عادٍ وعَنْ إرَمِ
دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جاءتْ ولَمْ تَدُمِ
مُحَكَّماتٌ فما تبقينَ من شبهٍ ... لذي شقاقٍ وما تبغينَ من حكمِ
ما حُورِبَتْ قَطُّ إلاَّ عادَ مِنْ حَرَبٍ ... أَعْدَى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص368؛ البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص20.
2: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص292.
3: محمَّد، **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي**، ص230.
4: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص246.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَدَّتْ بلاغَتُها دَعْـوى مُعارِضِـها ... ردَّ الغيور يدَ الجاني عـن الحُـرمِ
لها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْر فـي مَـدَدٍ ... وفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُـسْنِ والقِـيَمِ
فما تُعَـدُّ وَلا تُحْـصَى عَجَائبُهـا ... ولا تُسامُ عَلَـى الإكثـارِ بالـسَّأَمِ
قرَّتْ بها عينُ قاريهـا فقلـت لـه ... لقد ظفِـرتَ بِحَبْـلِ الله فاعْتَـصِمِ
إنْ تَتْلُها خِيفَةً مِنْ حَرِّ نـارِ لَظَـى ... أطْفَأْتَ نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّجِمِ

أمَّا المعجزة التي ذكرها أغلب المدَّاح، فهي معجزة الإسراء والمعراج، كما في قول ابن بنت الأعزّ الذي أشار إلى حادثة الإسراء والمعراج، وما ترتَّب لرسول الله **r** بعد هذه المعجزة، يقول[1]:

لَمْ تَرتفع للهِ عـن خَفـضٍ ولَـمْ ... تقرب إليهِ مـن مكـانٍ مبعـدِ
لكـن أرى محبُوبَـةَ ملكوتِـهِ ... حتى يشاهدُ فيهِ ما لـم يـشهدِ
وأراه كيف تفاضلُ الأملاكَ والـ ... رسل الكرامِ وكانَ غيـرُ مقلـدِ
ورأت له الأملاكُ فـي ملكوتِـهِ ... جاهاً وقدراً مثلـه لـم يوجـدِ

بل أنَّه يشير إلى تفوُّق معجزات الرَّسول **r** على معجزات إخوانه الأنبيـاء، حيث قال[2]:

هَلْ جَاءَ قبلك مُرسـل بخـوارقٍ ... إلاَّ وجئـت بمثلـهِ أو أزيَـدِ
فعصا الكليم تبـدلت أعراضـها ... وكذا عـصاكَ تَبَـدَّلتْ بمهنَـدِ
نبعت عيونُ الماءِ من حجرٍ لنـا ... والنبعُ في الأحجـارِ كـالمتعودِ
إن البعيـد مـن العوائـد كلهـا ... نبع بدا بين الأصابع فـي اليَـدِ
هذي هي الكفُّ التي قد أصبحت ... بحراً إذا مَدَحُوا لنا الكفَّ النَّدِي

وعرض البوصيري لمعجزة الإسراء والمعراج في همزيتـه، مـشيراً إلـى المنزلة العظيمة التي نالها رسول الله **r** من وراء هذه المعجزة [3]:

فصِفِ الليلةَ التي كان للمُـخ ... تارِ فيها على البُراقِ استواءُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص281.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص281.
3: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص24.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتَرقَى به إلى قابِ قَوْسَيْـــــ ـــنِ وَتِلكَ السيادةُ القَعْـساءُ

وتَرقَى به إلى قابِ قَوْسَيْـــــ ـــنِ وَتِلكَ السيادةُ القَعْـساءُ

ومن الأمور البارزة في بعض المدائح النَّبويّة، فكـرة الحقيقـة المحمَّديـة[1]، ولاسيما في البيئات الصُّوفيّة، فقد جعلوا "محبة الرَّسول جزءاً مـن محبَّـة الـذَّات الإلهية، بل أنَّ محبتهما واحدة، وحقيقتهما واحدة، فلا فرق بين الحقيقـة المحمَّديـة والحقيقة الإلهيّة التي تمثَّلت في الأنبياء، وتتمثَّل في أقطاب الصُّوفيّة من بعـدهم"[2]، وهذه الحقيقة استهوت الشُّعراء؛ لأنَّها تتجاوب مع تحليق الخيـال، ومـع المبالغـة الشَّعرية.[3]

والحقيقة المحمَّدية نظرية دينيّة، اختلف العلماء في مـصدرها، فمـنهم مـن أعادها إلى الدِّين الإسلامي واتجاهاته المتعددة، ومنهم من ذهب بها وبأصولها إلـى مؤثِّرات غريبة عن الإسلام، ترجع إلى المسيحيّة والفلسفات اليونانية[4].

ويمكن القول بأنَّها تعني: أنَّ الله تعالى بدأ خلق الوجود بخلـق نـور، وهـذا النُّور هو أفضل ما في الخلق، وهو النُّور المحمَّدي، أو هو النُّور الذي تجسَّد فيمـا بعد بالنَّبي محمَّد **r**، كما في قول البوصيري في سياق مدح النبي **r**، والدِّلالة على قربه من ربه[5]:

أحمـــدَ الهَـــادِي الـــذِي أمتُـــهُ رَضِيَ الله لها الإسلامَ دينـــا

كان سراً في ضميرِ الغيبِ مـــنْ قبلِ أنْ يُخلقَ كونٌ أو يكونَا

تُـــشرقُ الأكـــوانُ مـــن أنـــوارِهِ كُلَّمـــا أوْدَعَهـــا اللهُ جبينـــا

أســـــجَدَ الله لـــــهُ أمْلاَكَـــــهُ يومَ خَرُّوا لأبيـــهِ ســـاجدينَا

1: رشيد، **المدائح النبويّة في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة**، ص68.

2: ضيف، شوقي، (1971م)، **فصول في الشعر ونقده**، دار المعارف- القاهرة، ص232.

3: محمَّد، **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي**، ص249.

4: محمَّد، **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي**، ص247.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص230؛ **ديوان البوصيري**، ج1، ص169.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقرِّر البوصيري أنَّ نبوته كانت أصلاً لكل نبوة ورسالة، وأنَّ جميع الرُّسُل قبل ظهوره ببشريته نوَّاب عنه في تبليغ الشَّرائع إلى من أرسلوا إليهم[1]:

وَكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرامُ بهـــا ... فإنما اتَّصلتْ من نـــورهِ بهـــمِ
فإنهُ شمسٌ فضلٍ هـــمْ كواكبهـــا ... يُظْهِرْنَ أَنْوارَها للناسِ في الظُلَمِ
أكرمْ بخلـــقِ نبـــيٍّ زانـــهُ خُلُـــقٌ ... بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِـــشْرِ مُتَّـــسِمِ

والى هذا أشار الصرصري في إحدى مدائحه [2]:

كَتَبَ الإِلَهُ اِســـمَ النَبِـــيِّ محمَّـــد ... فَوقَ القَـــوائِمِ منـــهُ وَالأَركـــانِ
فَسَرى السُّكونُ بِهِ وَقَد كَتَبَ اِسمهُ ... في جَنَّةِ المَأوى عَلى الأَغصانِ
وَخِيامُها وَقِبابُها وَعَلـــى مَـــصا ... ريعِ القُصورِ تَفَـــضُّل المنّـــانِ
فَلِذاكَ آدَم حينَ تـــابَ دَعـــا بِـــهِ ... مُتَوَسِّـــلاً فَأُجيـــبَ بِـــالغُفرانِ
لَـــولاهُ لَـــم يُخلَـــق أَبونـــا آدَم ... وَجَحيمُ نـــارٍ أَو نَعـــيمُ جِنـــانِ
قَـــد كـــانَ آدَمُ طينَـــةً وَمحمَّـــد ... يُدعى نَبِيّاً عِنـــدَ ذي الإِحـــسانِ
أَنـــوارُهُ كانَـــت بِجَبهَـــةِ آدم ... لا تَختَفـــي عَمَّـــن لـــهُ عَينـــانِ

أمَّا خواتيم المدائح النَّبوية فقد احتوت بعض المعاني، منها: طلـــب الـــشَّفاعة، ومغفرة الذُّنوب والزلات، كما قول كمال الدِّين ابن الزملكاني الذي قصد الرَّسول **r** كي يخفِّف عن نفسه الذنوب، ويسأله العصمة فيما بقي من عمره[3]:

يَا أفضلَ الرُّسلِ يا مَوْلَى الأنَامِ ويَـــا ... خَيرَ الخَلائِقِ مـــن إنْـــسٍ وأمـــلاكِ
هَا قَدْ قَصَدْتُكَ أَشْكُو بَعْضَ ما صَنَعَتْ ... بِي الذُّنوبُ وهـــذا مَلْجَـــأُ الـــشَّاكِي
قَدْ قَيَّدَتْنِي ذُنوبُ مـــن بلـــوغِ مَـــدَى ... قَصْدِي إلى الفوزِ منها فَهِي أَشْرَاكِي
فاستغفر اللهَ لـــي واســـأَلَهُ عِـــصْمتهُ ... فيما بَقِي وغِنَى مِـــن غَيـــرِ إمـــساكِ

وقد تنتهي القصيدة بأبيات يصلِّي الشَّاعر من خلالها على الرَّسول **r** وعلـــى آله وأصحابه، كما في قول ابن بنت الأعز[4]:

1: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص292.
2: الصرصري، **ديوانه**، ص547، 548.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص9.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص281.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صَلواتُ رَبّكَ والسَّلام عَليــكَ مــا حَيِيــتَ مــن مُتَوَجِّــهٍ مُتعبــدِ
وجرَى ذِكْرُكَ لَفظــهُ فِــي وَقفــةٍ لِخطابِــهِ أو جَلْــسةِ المتــشهدِ
وإذا مررْتَ على القلوبِ فكنتَ كال أرجِ الذَّكِي يَرُدُّ رُوحَ المكْمَــدِ
وعَلَى صَحَابَتِكَ الكِرَامِ وآلِكَ الـــ ــبرءا من قول الجهول المفسدِ
وعَلَى ضــجيعيكَ اللــذين تَــشَرَّفَا بالقربِ منْكَ بِمقعــدٍ وبمرقــدِ

وقد تميَّز البوصيري عن باقي شعراء المديح النَّبويّ، بمدح آل البيت في كل قصيدة من قصائد المديح النبوي، وبأبيات ليست بالقليلة، كما في قوله[1]:

آلَ البيتِ ومن لهم بالمــصطفى مجدٌ على السبعِ الطباقِ مطنبُ
حزتمْ عظيماً من تــراثِ نبــوةٍ ما كان دونكُم لها مَنْ يَحجُــبُ
الله حَــسْبُكُمُ وَحَــسْبي إننـــي في كلِّ مُعْضِلَةٍ بِكُم أتحَــسَّبُ
ياسادتي حبي لكم مــا تنقــضي أعماره وحبالهُ مــا تقــضبُ
مِنْ مَعْشَرٍ نَزَلوا الفَلا فُحصونُهُمْ بيدٌ بأطرافِ الرماحِ تؤشَّــبُ
ما فيهمُ لــسنانِ عَيْــبٍ مَطْعَــنٌ كلاَّ ولا لحسامِ ريبٍ مضرب

ولا تكاد تقع على قصيدة للبوصيري إلا ولآل البيت نصيب منها، كمــا فــي قصيدته التي يمدح بها الرَّسول **r** فتطرَّق لمدح آل البيت ممَّا يعكس الحب الحقيقي لآل رسول الله عند البوصيري، يقول[2]:

آلَ النبي بمنْ أو مــا أشــبهكم لقــد تعَــذَّرَ تــشبيهٌ وتمثيــلُ
وهل سبيلٌ إلى مدحٍ يكون بــه لأهْلِ بَيْــتِ رَســولِ الله تَأْهِيــلُ
يا قَوْمِ بايَعْتُكُمْ أَنْ لا شَبِيهَ لَكُــمْ مِنَ الورَى فاسْتقِيلوا البَيْعَ أوْ قِيلُوا
جاءت على تلو آياتِ النبي لهــم دلائــلٌ هــي للتــاريخِ تــذييلُ
مَعاشِرٌ ما رَضُوا إنِّي لَمُبْــتَهِجٌ بهِمْ وما سَخِطُوا إنِّــي لمَتْكُــولُ
وإنَّ من باع في الدنيا محبــتهم مبغضة اللهَ في الأخرى لمــرذولُ

1: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص28.

2: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص230.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما تميَّز البوصيري بمجادلة اليهود والنَّصارى ومناظرتهم[1]، فنجد في ثنايا بعض مدائحه أبيات يجادل من خلالها اليهود والنَّصارى، كما أنَّه من خلال هذه المجادلات والمناظرات يمدح الرَّسول **r**، وعلَّل الدكتور مخيمر صالح تفرد البوصيري بمناظرة اليهود والنَّصارى إلى البيئة التي عاش فيها، فهي بيئة تعجُّ بالطوائف الدِّينية، واحتكاكاته المباشرة بالنصارى في مجال العمل[2]، يقول البوصيري لهم حين تنكَّروا للرَّسول **r**[3]:

إنْ أَنْكَرَتْهُ النَّصَارَى واليَهُودُ عَلَى ... ما بيَّنتْ منه توراةٌ وإنجيلُ

فقد تكرَّرَ منهم في جحودهم ... للكفرِ كفرٌ وللتجهيل تجهيلُ

قلْ للنصارى الألى ساءت مقالتهم ... فما لها غير محضِ الجهلِ تعليلُ

مِنَ اليَهُودِ اسْتَفَدْتُمْ ذَا الجُحودَ كما ... من الغرابِ استفادَ الدفنَ قابيلُ

فإنَّ عِنْدَكُمُ تَوْراتُهُمْ صَدَقَتْ ... ولمْ تُصَدَّقْ لكمْ منهمْ أناجيلُ

ظلمتونا فأضحوا ظالمينَ لكم ... وذاكَ مِثْلُ قِصاصٍ فيهِ تَعْدِيلُ

وبقي البوصيري مجادلاً لليهود والنَّصارى، كما في قوله مجادلاً في القرآن الكريم، ونلمح في مجادلاته غلبة النَّزعة العقليّة والمنطقيّة، كما في قوله[4]:

تبارَكَ الله عَمَّا قالَ جاحِدُه ... وجاحِدُ الحَقِّ عِنْدَ النَّصْرِ مَخْذُول

والفوزُ في أمةٍ ضوءُ الوضوءِ لها ... قد زانها غُررٌ منه وتحجيلُ

تظلُّ تتلو كتاب اللهِ ليسَ بهِ ... كسائرِ الكُتْبِ تَحْرِيفٌ وتَبْدِيلُ

فالكتبُ والرُّسلُ من عند الإله أتتْ ... ومنهمُ فاضِلٌ حَقًّا ومفضولُ

والمصطفَى خيرُ خَلْقِ اللهِ كلِّهِمِ ... لهُ على الرسلِ ترجيحٌ وتفضيلُ

محمَّد حُجَّةُ اللهِ التي ظَهَرَتْ ... بِسُنَّةٍ مالها في الخلقِ تحويلُ

نَجْلُ الأكارمِ والقومِ الذين لهم ... عَلَى جَمِيعِ الأَنَامِ الطَّوْلُ والطُّولُ

1: صالح، مخيمر، (1986)، **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري**، الطبعة الأولى، الدار العربية – عمان، ص171.

2: صالح، **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري**، ص198.

3: البوصيري، **ديوانه**، ص129.

4: البوصيري، **ديوانه**، ج1، ص211.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4.2 الرِّثاء:

الرِّثاء من الموضوعات القديمة في الشِّعر العربيّ، فالأمَّة العربيّة من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة، هي النَّدب، والتأبين، والعزاء[1].

وعلى الرّغم من كثرة المراثي في الشِّعر العربي، إلاَّ أنَّ كتاب "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي لمْ يحوِ إلاَّ القليل من شعر الرِّثاء في القرنين السادس والسابع الهجريين والنصف الأول من القرن الثامن الهجري، واحتلَّ رثاء العلماء والأدباء النَّصيب الأوفر من الرِّثاء، وذلك بسبب الحركة العلميّة النَّشطة في ذلك العصر، وتوافد الكثير من العلماء والأدباء على مصر والشَّام من بغداد والأندلس[2]، ولعلَّ كثرة العلماء أدَّت لكثرة مراثيهم، وقليل من رثاء الحكَّام والملوك، وكذلك رثاء الأبناء والأصدقاء.

ولم يعثر الباحث في الشعر موضوع الدِّراسة في كتاب (فوات الوفيات) على رثاء للمدن، على الرّغم من سقوط مدن كثيرة في أيدي الأعداء في هذه الفترة الزمنية، وقد سوّغ أحد الباحثين قلّة رثاء المدن في هذه الفترة إلى أنَّ تلك المدن لم تمت حتى تستدعي الرِّثاء، ورثاؤها – لو حدث- يعني فقدان الأمل الكلي باسترجاعها[3].

ومن رثاء الحكَّام في كتاب (فوات الوفيات)، أبيات من قصيدة رثى بها الشِّيخ جمال الدِّين ابن نباتة المصري الملك المؤيِّد إسماعيل صاحب حماة (ت732هـ)،

1: ضيف، شوقي، (1955م)، **الرثاء**، دار المعارف- القاهرة، ص5.

2: عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن، (2003م)، **فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي** الأول، الطبعة الأولى، دار الرازي – عمان، ص118.

3: الرقب، **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص292.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استهلَّها بتصوير الحزن الكبير لموت الملك المؤيِّد منكراً في بادئ الأمر موت المرثي، قبل أن يعود الشَّاعر إلى رشده في الأبيات التالية[1]:

ما لِلْنَدَى لا يُلبِّي صَـوتَ داعيـهِ أظنَّ أنَّ ابن شـاد قـامَ ناعيـهِ
ما للرجاءِ قـد اشْـتدَّت مذاهبـه ما للزمانِ قد اسْودَّت نواحيـهِ؟
ما لي أرى الملك قد فضَّت مواقفه ما لي أرى الوفدَ قد فاضت مآقيهِ

ويبكي الشَّاعر الملك المؤيد بكاءً حاراً، جاعلاً من يوم وفاته يوماً لا شبيه له ولا ثاني له إلاَّ يوم الحشر، ثمَّ يتحوَّل من إنكار موت المرثي إلى الظن، ثمَّ بعد ذلك إلى التأكيد:

نَعَى المُؤَيدُ نَاعِيْـهِ فيَـا أسَـفِي للغيثِ كيف غدت عنَّـا غواديـهِ
واروعتا لـصباحٍ عنـدَ رُؤيتـه أظنُّ أنَّ صـباح الحـشر ثانيـهِ
واحسرتاه لنظمِي فـي مدائحـهِ كيفَ استْحالَ لنظمي في مراثيـهِ
أبكيه بالدُّرِّ من جِفني ومن كَلمي والبحر أحسن مـا بالـدُّرِّ أبكيـهِ
أروي بدمعِي ثَرَى مَلِكٍ لَهُ شِـيَمٌ قد كانَ يذكرها الصَّادِي فترويـهِ
أذيل ماء جفـوني بعـدهُ أسـفاً لماء وجهي الذي قد كانَ يحميـهِ
جادٍ من الدمعِ لا ينفـكُّ يطلقـهُ من كانَ يطلقُ بالإنعـامِ جاديـهِ
ومُهجة كلَّمـا فَاهَـت بلوعتهـا قالت رزيَّـة مولاهـا لهـا إيـهِ

ويتأسَّف ابن نباته المصري على الفقيد، ذاكراً عوارفه الكثيرة التي ستبقى تذكره بالفقيد وتشعل الحرقة في فؤاده:

ليـتَ المؤيِّـدَ لا زَالـت عَوَارِفَـهُ فزَادَ قلبُ المعنَّى فـي تلظِّيـهِ
ليتَ الحمـام حبـا الأيـام موهبـةً فكانَ يفني بني الـدنيا ويبقيـهِ
ليتَ الأصاغر تفدى الأكبـرون بهـا فكانت الشهب في الآفاقِ تفديهِ
أعزز علـيَّ بـأن ألقـى عوارفَـهُ ملءَ الزمان وإنِّـي لا ألاقيـهِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص184. ولم أعثر على القصيدة في ديوانه الذي اطَّلعت عليه، ديوان ابن نباته الشيخ جمال الدِّين أبو بكر ابن نباته المصري الفارقي (ت 786هـ)، (د.ت)، الطبعة اللبنانية – بيروت، (د.ت).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعــزز علــيَّ بــأن تبلــى شــمائِلُهُ تحتَ الترابِ وما تبلى أياديــهِ
أعزز عليَّ بأن ترعى النجومُ علــى سرحٍ من الملك قد خلاَّهُ راعيهِ
هــلاّ بغيــرِ عمــاد الــدِّين حادثــة ألقت رداه وأوهت من مبانيــهِ
هلاّ ثنى الدهر غرباً عــن محاســنِهِ فكان كوكب سعدٍ فــي لياليــهِ
ترى درى الدهر مقدار الذي فقــدت من فيضِ أدمعه أحوال أهليــهِ
ترى درى الدهر ما معزى ســماحته فجاءَ مهجته فــي زيِّ عافيــهِ
لا أعتــب الــزمن المــودي بــسيِّدِهِ يكفيه ما قد تولَّى عنه يكفيــهِ

ويكثر الشَّاعر من "لهفاته" التي لا تجدي، مصوِّراً الحزن العظيم على هذا الفقيد الذي ترك وراءه فراغاً جسيماً لا يملأ من قبل أي فرد، مُظهراً تعاطفه الاجتماعي الصَّادق:

لَهْفِي وَهَلْ نَافِعِي لَهْفِي عَلَــى مَلِــكٍ بَاتَ الغُمامُ على الآفــاقِ يبكيــهِ
لَهْفِي وهل نافعي لَهْفِي علــى ملــكٍ كَسَى الزَّمَان حداداً من دياجيــهِ
لَهْفِي على الملك قد أهــوت ســناجقه إلى التراب وقد حُطَّت غواشــيهِ
لَهْفِي على الخيلِ قد وفَّت صــواهلها حقّ العزا فهو يشجيها وتــشجيهِ
لَهْفِي على ذلكَ السُّلطانِ حينَ قَــضَى من الحمام عليهِ حكــمُ قاضــيهِ
لَهْفِــي عليــهِ لممتــار ومطَّلــب بالمالِ يقريه أو بــالعلم يقريــهِ
لَهْفِــي عليــهِ لجــودٍ كــانَ يعجبــه فيه الملام كــأنَّ اللَّــوم يغريــهِ
لَهْفِي عليهِ ابن علــيّ مــن ذخــائرِهِ إلا ثناً أضــحتْ الــدنيا تواليــهِ
له لَهْفِي في عليهِ لحلمٍ كــانَ يبــسطهُ على العفاةِ ومدحٍ كــانَ يجنيــهِ

ويؤبِّن الشَّاعر الفقيد، مكثراً من استخدام (كان) المناسبة لموضوع الرِّثاء، فقد كان الفقيد راعياً للآداب والشِّعر، ومطعماً للفقير، ومفزعاً للملهوف، عالماً صاحب تصانيف، يقول:

كــانَ المــديحُ لــه عرســاً بدولتِــهِ فأحــسن الله للــشعرِ العــزا فيــهِ
كانَ الفقيــرُ إذا أمــرَ الزمــان بغــى عليــهِ قــامَ إلــى الــسُّلطانِ يُنهيــهِ
كانَ المؤيدُ فــي يــومي نــدى وردَى غيثــاً لراجيــه أو غوثــاً للاجيــهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُرْوَى صحاحُ القَضَايَا عــن بَراعتِــهِ والنَّصْر في الحَرْبِ يَرْوِي عَن عَوَاليــهِ
مَــنْ لِلعُلُــومِ وللأعْــلامِ يَنْــشُرُهَا ولِلْــوَغَى وَرِدَاء الخَــوْفِ يَطْوِيــهِ
من للكــسيرِ مــن الأهــوالِ يجبــرهُ وللطريــدِ مِــنَ الأيَّــامِ يَأوِيــهِ
من للتصانيفِ أمثــال الكواكــب فــي ليــلِ المــداد لــساري الفِكْــرِ يَهْدِيــهِ

ولعلَّ اعتقاد الشَّاعر بأنَّه لم يفِ الفقيد حقَّه من البكاء، عاد للحديث عنه والبكاءِ عليه مرَّة ثانية:

مضَى وقد كانَ عضباً للزمانِ فيــا لهفي على مغمدٍ في التربِ ماضيهِ
لو أمكنَ الصبر عنهُ ما أنستُ بــه فكيفَ والحزنُ من أحشاي ينعيــهِ
آهــاً لأحمــر دمــعٍ بعــد أشــهبه أجراهُ حتَّى لقــد أفنــاه مجريــهِ
أفنى المؤيد تبر الدمع من بــصرِي وتلكَ عادتــه فــي التبــرِ يفنيــهِ
كيفَ السلوُّ وحولِي مــن صــنائعه ما يمنع الصخر من أدنى تــسلّيهِ

ويعرج الشَّاعر على وصف حماة يوم وفاته، وكأنَّ الشَّاعر وللعلاقة الوثيقة التي تربطه بالملك المؤيِّد أراد من كل مكوِّنات الحياة، حيَّة وغير حيَّة، أن تحزن على هذا الفقيد:

هذِيَ حُماة أغصَّ الهمُّ وادِيهــا وطاوعَ الحُزْنُ فِيهِ دَمْع عاصيهِ
كأنَّه استْشعرَ الأحزانَ من قدمٍ فللنواعيرِ نــوح فــي نواحيــهِ
هذي المنازل والدُّنيا معطلــة كأنها اللفظ خالٍ مــن معانيــهِ

ويدعو الشَّاعر بالسُّقيا للقبر والرَّحمة للفقيد، مخبراً بمصير المرثي الذي سيلقى ما يستحقه من جزاء، ومصير من خلفه الذين يصطلون بنارِ بعده:

جادَ الحيا قبرهُ الزَّاكي فلا بَرِحَــتْ سحائبُ العفو والرضوان تسقيهِ
نِعم السحائب تسقي صوب وابلهــا نعم الضريح ونعم المرء ثاويــهِ
مهنَّــأ بجنــانِ الخُلْــدِ دَانِيــه وَنَحْنُ نَصْلَى بِنَارٍ مــن تنائيــهِ
من كانَ يتعب في المعروفِ راحتهِ فَهْوَ المُنَــى بِتَرحِيــبٍ وترفيــهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويعزِّي الشَّاعر الأسرة الأيوبيَة، وهو عزاء مستوحى من منطق العقل؛ فالموت كأس سيشرب منه جميع الناس[1]:

يَا آل أيوب صـــبراً إنَّ إرثكمـــو ... من اسم أيوب صبر كانَ ينجيـــهِ
هي المنايا على الأقـــوامِ دائـــرةٌ ... كلٌّ ســـيأتيه منهـــا دورُ ســـاقيهِ
هيَ المقادير هذا الأصل تنزعُـــهُ ... بعد النموِّ وهـــذا الفـــرع تُنَمِّيـــهِ

ويعزي الشَّاعر الملك الأفضل، وهو عزاء يغلب عليه روح المدح أكثر من الرِّثاء، وكأنَّ الشَّاعر يقدِّم نفسه شاعراً للحاكم الجديد، يقول:

كـــأنَّني بـــسليلِ المكرمـــات وقَـــدْ ... سَعَى بِحَقِّ تُرَاثِ الملك ساعيهِ
مُحَمَّـــدٌ وَهْـــوَ اســـمٌ عَنْـــهُ مُـــشْتَهر ... ولَى بِهِ بيتَ إسماعيل ينـــشيهِ
يا ناصرَ الدِّين أنتَ الملك قد قـــرأت ... علائمُ الملكِ فيه عين رائيـــهِ
ومـــن أبيـــكَ تعلَّمـــت الثَّبـــاتَ فمـــا ... تحتاج تذكُّر أمراً أنتَ تدريـــهِ
لا تخشَ بيتكَ أن يلوِي الزَّمـــان بـــهِ ... فإنَّ للبيتِ ربًّا سوفَ يحميـــهِ

ورثى الشُّعراء العلماء الذين قضوا نحبهم، كما في القصيدة التي رثى بها الشَّاعر نجم الدِّين ابن إسرائيل الحريريّ شيخ الطَّائفة، ولد بدمشق سنة 603هـ، وتوفي بها سنة 677هـ، مصوِّراً موته حادثاً جللاً وخطباً عظيماً، وكيف أنَّ مظاهر الكون قد شاركت النَّاس أحزانهم في هذا الفقد، وأنَّ موت الحريري كان ثلمة للمثل الدِّينيّة والخلقيّة، وخسارة للعلم والعلماء[2]:

خَطْـــبٌ كَمَـــا شَـــاءَ الإلـــهُ جَلِيـــلٌ ... ذُهِلـــتْ لَدَيْـــهِ بَـــصَائِرٌ وعُقُـــولُ
ومصيبةٌ كُسِفَتْ لَهَا شَمْسُ الـــضُّحَى ... وَهَفَـــا بِبَـــدْرِ المكرمَـــاتِ أفُـــولُ
وَكَبَا زِنَادُ المَجْدِ وانفصمتْ عُرَى الـــ ... عَلْيَاءِ واغْتَـــالَ الفَـــضَائِلَ غُـــولُ
وتَنَكَّرَتْ سُـــبلُ المَعَـــارِفِ واغتـــدتْ ... غفلاً وأقفـــرَ رَبْعُهَـــا المَـــأهُولُ
ومَضَتْ بَشَاشَةُ كُلُّ شَيءٍ وانْقَـــضَتْ ... فالوَقْتُ قَـــبضٌ والزَّمَـــانُ عَلِيـــلُ
وعَـــلا ملاحـــاتِ الوُجُـــوهِ سَـــمَاجَةٌ ... وَخَفِيـــفُ تِلْـــكَ الكائِنَـــاتِ ثَقِيـــلُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص185.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص11.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والــرَّوْضُ أغبــرُ والمُيَــاهُ أوَاجِــنٌ ومَعَاطِفُ الأغصانِ لَــيسَ تَمِيــلُ
والــشَّمْعُ والألحــانُ لا نُــورٌ وَلا طَرَبٌ وَلَيْسَ على الشُّهُودُ قُبُــولُ
خَطــبٌ أَلــمَّ بِكــلِّ قَطــرٍ نَعْيُــهُ كَادَتْ لَــهُ شُــمُّ الجِبَــالِ تَــزُولُ
فَعَلَــى المَعَــانِي والعُلُــومِ كَآبَــة وعلى الحَقَــائِقِ ذلــةٌ وخُمُــولُ
والــسَّالِكُونَ سَــطَتْ عَلَــيهِم حيــرةٌ وَغَوى لَهُم نَهْجٌ، وضــلَّ سَــبيلُ
والعَــارِفُونَ تَنكَّــرتْ أحْــوَالهم فحجابُ عــين قُلُــوبُهُم مَــسْدُولُ
ودنانُ خمرِ الحُبِّ قَــد خَتَمــتْ وَبَــا بُ ألحانِ مهجورِ الفنــا مَمْلُــولُ
ما كُنْــتُ أعْلَــمُ والحَــوَادِثُ جمــةٌ والنَّــاسُ فــيهم عَــالِمٌ وَجَهُــولُ
إنَّ الــدُّجَى لَــيْسَ الحــدادُ تَوَقُّعَــاً لمــصابهِ قــدماً وذَاكَ قَلِيــلُ
أو أنَّ صَوْبَ المزنِ حِين هَمَى علــى عفر الثَّرَى دَمــعٌ عَليــهِ يَــسِيلُ
أو أنَّ صَــوتَ الرَّعْــدِ حنــةُ فَاقِــدٍ فَقــد العُــلا فَلَــهُ عليــهِ عَوِيــلُ
أو أنَّ قلبَ البــرقِ يُحقــقُ روعــةً لسماعِ ما نــاعي عَــلاه يَقُــولُ

ويؤبِّن الشَّاعر المرثي، تأبيناً يبين فيه الفراغ الذي تركه في الأمة، ولاسيما لدى أرباب التصوُّف[1]:

أإمامنا يا أوحدَ العــصرِ الــذي ما إنْ لــه فــيمَنْ نَــرَاهُ عَــدِيلُ
يَا سَــيِّدَاً مَلَــكَ القُلُــوبَ فَكَلَّهــا عن حقِ طاعــةِ أمــرِه مَــسْئُولُ
من يبردُ المهجَ الحِرارَ ومنْ لَهــا بِبُلُــوغِ آمــالِ الوِصَــالِ كَفِيــلُ
أمن يدلُ الــسَّالِكِينَ إلــى حِمَــى لَيْلَى وقَــد ضَــلَّ الــسَّبِيلَ دَلِيــلُ
أمن يقــولُ الحــقَّ لا مُتَخَوِفَــاً حيثُ النُّفُوسِ على السُّيُوفِ تَــسِيلُ
أمن يحــلُّ المُــشْكِلاتِ بِلَفْظِــةٍ يَرضَى بِهَا المَنْقُــولُ والمَعْقُــولُ

ويتوسَّل الشَّاعر بالأفكار الصُّوفيّة حين يتحدَّث عن موت الشَّيخ الحريري، فموته ليس كموت سائر النَّاس، وإنَّما دعاه الله إليه فاستجاب لدعوة هذا الحبيب، وهو -

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص11.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي الموت- حنين الرُّوح للخلاص من أسر الجسد والشوق للعودة إلى منزلها الأول، يقول[1]:

حاشَا عُلاكَ مِــنَ المَمَــاتِ وإنَّمــا هِيَ نَقْلَةٌ فِيها المُنَى والسولُ
نــــاداكَ مـــن أحببتِـــهِ فَأَجْبْتِـــهِ وأتَاكَ مِنهُ بالقُبُولِ رَسُــولُ
وحننتَ نَحْوَ حِماكَ حنَّــةَ صَــادقٍ لَمْ يقتطِعْهُ عن حِمَاكَ بَــدِيلُ
فخلعتَ هيكلَــكَ الــسَّعِيد مطهــراً تَبْدُو عليهِ نــضرةٌ وَقُبُــولُ
جسدٌ خَــلا وحَــلا وخَــفَّ كأنَّمــا قد ضَمَّ مِنه الحَامِلُ المَحْمُولُ
حتَّى حَلَلْتَ مَحلك الأعْلَــى الــذي ما بعــدهُ بُعــد ولا تحويــلُ
فهنــاكَ عــرسٌ للوصــالِ مجــدّدٌ وسعادةٌ تبقى وليسَ تــزولُ

ويختم الشَّاعر قصيدته بالدُّعاء للمرثي، عادة ما يكون الدُّعاء بطريقة غير مباشرة، فيكون لثرى المرثي أو لقبره قارناً بينهما والمطر والسَّحاب والدُّموع:

جَادَتْ ثَراكَ من السَّحابِ ثــرَّةٌ وكَفَّتْ دُموعُ قد وكفَن همــولُ
وتعاهــدتك تَحِيَّــةٌ وكرامــةٌ منه يروحُ بِهَا صــباً وقَبُــولُ
وعدتْ عَلينا مِنْ حِمَــاكَ تحيــةٌ وبحَسبِنا مــن تربِــكَ التَّقْبِيــلُ

ومن قصائد رثاء العلماء الواردة في كتاب (فوات الوفيات)، قصيدة لصلاح الدِّين الصفدي يرثى بها ابن غانم[2]، فاستهل قصيدته بتصوير أدوات الكتابة وهي تندب ابن غانم، الذي توفي وهو في مقتبل العمر[3]:

تَبْكِي الطُّروسُ عليكَ والأقلامُ وينوحُ فيكَ على الغُصُونِ حمامُ
يَا مَنْ حَوَاهُ اللَّحدُ غُصْناً يَانِعاً وكَذَا كُسُوفُ البَدْرُ وَهْــوَ تَمَــامُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص12.

2: ابن غانم، (711-744هـ)، عبد الله بن علي بن محمَّد بن سليمان بن حمائل، جمال الدِّين ابن الشيخ علاء الدِّين ابن غانم، الكاتب النَّاظم، النَّاثر الفاضل المترسّل، كان شاباً ظريفاً، مليح الوجه نظيفاً. انظر: الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن ايبك (ت 764هـ)، (1998م)، **أعيان العصر وأعوان النصر**، دار الفكر المعاصر- بيروت، ج1، ص431؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص207.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص207.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتحدَّث الشَّاعر عن الآثار النَّاجمة عن فقدان المرثي، لاسيما في مجال عمله الذي تميَّز به، وأدَّاه على أحسن وجه[1]:

يَا وَحْشَةَ الدِّيوانِ مِنكَ إذا غَـدَتْ ... فيهِ مُهِمَّـاتُ البريـدِ تُـرامُ
مَنْ ذَا يُوفِّيهَـا مَقاصِـدها علـى ... ما يَقتَضيهُ النَّقْضُ والإبـرامُ
هَيهاتَ كُنْتَ لَـهُ جَمَـالاً بَـاهِراً ... فَعَلَيْهِ بعدَكَ وَحـشةٌ وَظَـلامُ
أسَفِي عَلى الإنْشَاءِ وَهْـوُ بجلَّـقٍ ... نَـشاؤهُ قَـدْ مَـاتَ والنظَّـامُ

ويؤبِّن الصَّفدي مرثيه جمال الدِّين ابن غانم بما اشتهر به من نظمٍ ونثرٍ مستمدًّا ذلك من حياة المرثي، مُظهراً تعاطفه الاجتماعي مع أهل الفقيد[2]:

كَمْ مِنْ كتابٍ سـارَ عنـكَ كأنَّـه ... بردٌ أجادَ طِـرازَهُ الرقـامُ
إنْ كانَ في شرٍّ فَقَـدْ رَدَّ الـرَّدَى ... وبه تَرفَّـهَ ذابِـلٌ وحـسامُ
لم لا يـردُّ البـأسَ مـا ألفاتُـهُ ... مثلُ القنا واللـلامُ منـه لامُ
أو كانَ في خيـرٍ فكـلُّ كلامـه ... درٌّ يؤلّـفُ بيـنهنَّ نظـامُ
وكأنَّمَا تلـكَ الـسُّطُورُ إذا بَـدَتْ ... كأسٌ ترشفُ رَاحَها الأفهـامُ
يهتزُّ عِطْفُ أولي النُّهَـى لبيانِـهِ ... فكأنَّ هاتيكَ الحروفَ مـدامُ
كَمْ فِيْهِ وَجْهٌ سَافرٌ مثلُ الـضُّحَى ... وعليهِ من ليلِ السُّطورِ لِثامُ
ولَكَـمْ كَتَبـتَ مطالعـاتٍ خـدَّها ... قانٍ وثغرُ فـصولُها بَـسَّامُ
وكأنَّمـا ألفاتُهـا قُـضُبُ اللِّـوَى ... وكأنَّمـا هَمـزاتُهنَّ حِمَـامُ
صلَّى وَرَاءكَ كلُّ مَنْ عَاصَـرْتَهُ ... عِلْمَاً بأنَّكَ في البيـانِ إمـامُ

ويصوِّر الشَّاعر قبر المرثي قصراً في عيون ناظريه، كأنَّه بذلك يدلِّل على حسن خاتمة المرثي، فما عرف عنه يؤهِّله ليكون قبره قصراً، كما صوَّر بعض المشاهد التي تدلُّ على مكانتهِ وأثره في مجتمعه، حتى أنَّ بعض النَّاس أغمي عليهم يوم دفنه، يقول [3]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص207.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص207.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص208.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكأنَّ قَبْــرَكَ للعيــونِ إذا بَــدَا قَصْرٌ عليه تحيَّــةٌ وسَــلامُ
لما تَغَيَّبَ في التُّــرابِ جَمــالهم قعدوا لهولٍ عاينُوهُ وقــامُوا
ما كُنْتَ إلا فارسَ الكُتْبِ التــي فيها تعرَّق صنعُها الأقــلامُ
ما محنَةٌ نَزَلَــتْ بعتــرةِ غــانمٍ هانوا وهم في العالمينِ كرامُ
يا قبرَه لا تَنْتَظــر سُــقْيَا الحيَــا حُزْنِي ودَمْعِي بَارِقٌ وغمــامُ
لي فيك خِلٌّ كم قطعــتُ بقربِــهِ أيَّامَ أُنسٍ والخُطــوبُ نِيَــامُ

ويتحدَّث الشَّاعر في خاتمة القصيدة عن فلسفة الحياة والموت، وأنَّه لا بُدَّ لكل حي أن يموت، وأنَّ الموت لا يعرف كبيراً ولا صغيراً، فالمرثي أصغر من الرَّاثي، بل أنَّ الرَّاثي توقَّع أن يرثيه المرثي، ثمَّ يدعو له بالعفو والمغفرة، ملتفتاً إلى حالته بعد الفقيد الحزينة المؤلمة[1]:

يَا مَــنْ تُقَــدِّمُنِي وَســارَ لِغايَــةٍ لا بُدَّ لــي منهــا وَذَاكَ لــزامُ
قد كنتُ أحــسبُهُ يرثّينــي فَقَــدْ عكست قضيَّتَهُ مَعِي الأحْكَــامُ
أنَا ما أراكَ على الصِّراطِ لأنَّــهُ بيني وبَيْنَكَ في الأنَامِ زِحــامُ
إذ قد سَبَقتَ خَفيفَ ظهرٍ لا كمن قد قَيّــدَتْ خطواتــهِ الآثَــامُ
فازَ المُخفُّ وقــد تَقَــدَّم ســابقاً وشَــفيعُهُ لإلهــهِ الإســلامُ
فاذهبْ فأنتَ وَدِيعَةُ الرَّحمنِ لِــي يَلْقاكَ منــه البــرُّ والإكــرامُ
ويجودُ قبرَكَ مِنهُ غيثُ ســماحةٍ بالعفو صَيِّبُ وَدْقِهــا سَــجَّامُ
ولقد قضيتكَ حَــقَّ ودّكِ بالرّثــا والحرُّ مَنْ يُرْعَى لَديهِ ذِمــامُ
خلقتَنِي رهــنَ التَنَــدُّمِ والأسَــى تعتــادني الأحــزانُ والآلامُ

ورثى شهاب الدِّين محمود الحلبي شرف الدِّين ابن فضل الله العمري[2] بقصيدة بعث بها إلى القاضي محي الدِّين أخيه، بدأها بندب ممزوج بتأبين الفقيد، فالشَّاعر

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص208.

2: ابن فضل الله العمري (700 – 749هـ)، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدِّين: مؤرِّخ، حجة في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان، إمام في الترسُّل والإنشاء، عارف بأخبار رجال عصره وتراجمهم، غزير المعرفة بالتاريخ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يندب وينتدب لمرثيه من جهة، ويؤبِّنه من جهة أخرى، وهذا التأبين مأخوذٌ من سيرة المرثي، فهو محسن، حليم، صاحب فضائل، قليل أمثاله، صاحب تدبير ورأي حكيم، شجاع، ملجأ للمحتاج والملهوف[1]:

لِتَبْكِ المَعَالِي والنُّهَى الشَّرَف الأعْلَى ... وتبكي الورى الإحسانَ والحلمَ والفضَلا
وتَنْتَحِبُ الدُّنيا لِمَنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ ... وإنْ جَهدتْ فِي حُسْنِ أوْصَافِهِ مَثَلا
ومن أتعبَ النَّاسَ اتِّبَاع طريقِهِ ... فكفُّوا وأعيتهم طريقته المثلَى
لقد أثكلَ الأيَّامَ حتى تَجَهَّمَتْ ... وإنْ كانت الأيَّامُ لا تَعْرِفُ الثكَلا
وفارق منه الدستُ صدراً معظَّماً ... رحيباً يردُّ الحَزْنَ تدبيرُه سَهْلا
فكم حاط بالرأي الممالكَ فاكتفتْ ... له أن تعدُّ الخيل للصون والرَّجْلا
وكم جرَّدَتْ أيدِي العِدَا نَصْلَ كَيْدِهُمْ ... فردَّ إلى أعناقِهم ذلك النصَلا
وكم جلَّ خَطْبٌ لا يُحَلُّ انعِقَادُهُ ... فأعملَ فيه صائبَ الرَّأي فانحَلا
وكمْ جاءَ أمرٌ لا يُطَاقُ هُجومُهُ ... فلمَّا تَوَلَّى أمرَ تدبيرِهِ ولَّى
وكمْ كَفَّ مَحْذُوراً وكمْ فَكَّ عانِياً ... وكمْ رَدَّ مَكْرُوهَاً وكمْ قَدْ جَلا جُلَّى
وقد كانَ لِلأَجِين ظِلاً فقلصت ... يدُ الموتِ عَدْواً عنهم ذلكَ الظِّلا

والشَّاعر لم يقنع بندب الفقيد بشكلٍ عام، ولكنَّه عاد ليندبه بشكلٍ خاص، والسبب في ذلك لعلَّه للعلاقة الحميمة التي جمعته مع المرثي الذي صار كالأب له، عدا عن الفائدة العلميّة التي نالها من هذا الفقيد[2]:

سَأَنْدبُهُ دَهْرِي وأرْثِيهِ جَاهِدَاً ... وأكثرُ فيه من بُكَائِي وإنْ قَلا
ولِمَ لا وقد صاحبتهُ جُلَّ مدَّتي ... أراه أباً براً ويَعْتَدَّني نجلا

مولده ومنشأه ووفاته في دمشق، من مؤلفاته: (مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، التعريف بالمصطلح الشريف، وغيرها). انظر: ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدِّين يوسف بن تغري بردي الظاهري، (ت 874هـ)، (2002م)، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق: محمَّد محمَّد أمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج2، ص153.

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص423.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص423.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولَمْ يَرَنَا فِي طُولِ مــدّتنا امــرؤ فيحـــسَبُنا إلاَّ الأقـــاربَ والأهـــلا
وكم أرشدتني في الكتابــةِ كتبــه ولو زلَّ عن إرشادها خــاطِري ضَــلا
وكم مشكلاتٍ لم تَــبِنْ لمحــدِّقٍ إليها جَلاهَا فانجلــتْ عنــدَ مــا أملــى
فَمَنْ هذه حــالي وحالتــهُ معــي أيحــسن أن أبكــي علــى فَقْــدِهِ أمْ لا

ويصف الشَّاعر حالته بعد موت المرثي الذي يحتلّ منزلة الأب لديه، وهي حال كئيبة حزينة لا أُنس فيها[1]:

لقدْ كانَ لِي أُنــسٌ بِــه وَهْــوَ نَــازِحٌ كانَ التنائِي لَــمْ يفــرّقْ لنــا شَــمْلا
وقد زالِ ذاك الأنسُ واعتضتُ بعــده دموعاً إذا أنــشأتها أنْــشَتِ الــوبْلا
فلا مدمعي الهامي يجفُّ ولا الأسَــى يخفُّ جَــواه إنْ أقــلْ لهمــا مهْــلا
ولا حُرقي تخبو وإن يُطْــفَ وَقْــدُها بماء دموعي صار فيها غضاً جــزْلا

ويشكو الشَّاعر من الموت الذي أبعد عنه كثيراً من أصدقائه، ومن هؤلاء الأصدقاء ابن فضل الله:

إلى اللهِ أشْــكُو فَقْــدَ صــحب رزئــتهم وفقدُ ابن فضل الله قد عَدَلَ الكَلا
ولم يترك المــوتُ الــذي حُــمَّ مــنهمُ حميماً ولا خَلَّى الرَّدى منهم خِلا
وعمهــم داعــي الحمــامِ فأســرعوا جميعاً وألغــى قولنــا فــيهم إلا
وكم يُرْجئ السَّاري النَّوَى عــن رفاقِــهِ إذا ركْبهم يومــاً بــدارهم حَــلاّ
أيطمعُ من قد جــازَ معتَــركَ الــرَّدَى بإبطائــه عَمَّــنْ تقدمَــهُ؟ كَــلا
ولاســيَّما مَــنْ عــاودَ الــدَّاءُ جــسمَهُ يعــاوده بَــدْءاً إذا ظنّــه ولَّــى

ويعزي الشَّاعر أخا المرثي، وهو عزاء مستمدّ من الدِّين الإسلامي، فالمرثي قد أدَّى كل واجباته تجاه ربِّه، طالباً منه الصَّبر حتى ينال أجره وفضله، فإرادة الله لا رادَّ لها، خاتماً قصيدته بالدُّعاء للميّت[2]:

عَزاؤك محيي الدِّين في الذاهبِ الــذي قَضَى إذْ قضى فرضَ المناقِبِ والــنفلا
فمثلُكَ مَــنْ يلقــى الخطــوبَ بكاهــلٍ يُقِلُّ الــذي تَعْيَــا الجبــالُ لــه حمــلا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص423.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص424.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصبر أجرٌ أنت تعـرفُ فـضلَهُ وآثارَهُ الحـسنى فـلا تَـدَعِ الفـضلا
وسـلّمْ لأمـر الله وارضَ بحكمـهِ تحزْ منه فضلاً ما برحـت لـه أهـلا
ولا زالَ صوبُ المزنِ والعفـوُ دائمـاً يؤمانَـهِ حتَّـى إذا وَصَـلا انهـلا

ونجد في بعض قصائد رثاء العلماء تضمين لمعاني الشِّعر القديم، مثل الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، كما في أبيات الشَّيخ جمال الدِّين ابن نباته يرثي من خلالها الشَّيخ كمال الدِّين ابن الزملكاني، إذْ قال[1]:

بَلِّغَـا القَاصِـدِينَ أنَّ اللَّيَـالِي قَبضتْ جُملةَ العُـلا بالكَمَـالِ
وقفا في مـدارسِ العقـلِ والنقـ ـل ونوحا معي على الأطلالِ
سَـائِلُهَا عَـسى يُجِيـبُ صَـدَاها أينَ ولّى مُجيب أهلِ الـسؤالِ

ثمَّ ابَّن الشَّاعر المرثي مصوِّراً خسارة العلم والعلماء بهذا الفقيد، إذْ قال[2]:

أيْنَ ولي بحرُ العلـومِ وأبْقَـى بـينَ أجْفَاننـا الـدُّموعَ لآلِـي
أينَ ذاكَ الذِّهْنُ الذي قد ورَثْنَـا عَنْهُ ما في الحَشَا من الاشْـتِعَالِ
أينَ تِلكَ الأقلامُ يـومَ انتـصارٍ كعوالِي الرِّمَـاحِ يـومَ النِّـزَالِ
ينقل الناسُ عن حـديثِ هـدَاها طُرُقَ العلم عن متـونِ العـوالِي
وتفيد الجنى من اللفـظ حلـواً حين كانت نوعـاً مـن العَـسَّالِ

ومن رثاء الأدباء، قصيدة رثى بها السرَّاج الورَّاق أبي الحسين الجزَّار، استهلها بمقدمة فلسفيّة عرّج فيها على قضية الحياة والموت، كأنَّ الشَّاعر بذلك يسلي ويعزي نفسه[3]:

أغَايَتُنَـا لِهـذَا يَـا فُـلانُ تَأمَّل لَيسَ كـالخبرِ العَيَـانُ
أمَانِيُّ النُّفُوسِ لهـا خِـداعٌ وليسَ من المخوفِ لَها أمانُ
ومن بعد الحراكِ لها سُكونُ وصَمْتٌ بعدمَا مزحَ اللِّـسانُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص11.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص11.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص282.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيا من جدَّ للآمالِ ركــضا تأنَّ ففي يدِ الأجــلِ العنــانُ
ترُوقُكَ زَهرةُ الدُّنيَا ومنهــا جَنى ثمرَ الرَّدَى إنسٌ وجانُ
وتخدعُ لامساً منهــا بلــينٍ أيؤمِنُ إذْ يمــيسُ الأفعــوانُ

ويوائم الشَّاعر بين معاني الرِّثاء وشخصية المرثي مواءمة دقيقة، فصور القوافي حزينة باكية، وكذلك النَّحو يصيح باكياً، بل إنَّ بحور الشِّعر كلّها تذرف الدُّموع على هذا الفقيد[1]:

إلا عزَّ القوافي اليومَ عن من بكتهُ البِكْــرُ منهــا والعــوانُ
لها إيطاءُ حُزنٍ بعــد حُــزنٍ وإكفــاءٌ لــدمعٍ لا يُــصانُ
وإقــواءٌ برفــعٍ فــوقَ نعــشٍ وخفضٌ في اللحود له مكــانُ
وناحَ النَّحو بعدك، والمَعَــانِي لها مع كــلِّ نائحــةٍ جنــانُ
فَلا بدلٌ لخــلٍّ عنــكَ يُرْجَــى ولا عطفٌ لمن غدروا وخانُوا
ولو نزفت بحورُ الشِّعرِ دَمعــاً وكانَ على الخليلِ لَهَا ضَمانُ
لمَّــا وفتَّــهُ لا وأبِيــهِ حَقَّــاً ولو بِسلُوكِهَا نَظْــمُ الجمــانُ
كفاها ذوقُــهُ التقطيــعَ فيمــا يُجَــوِّزُهُ ويأبــاهُ الــوزانُ
ولجَّجٌ سَالِكاً فــي كــلِّ بحــرٍ غَنائِمُــهُ جــواهِرُه الحِــسَانُ
فَنَالَتْ منــهُ فاصــلةُ الرَّزَايَــا ودائرةُ الحمــامِ ولا اعتِنَــانُ

ويبدو أنَّ حماسة الشَّاعر المبالغ فيها، قد دعاه للانجرار وراء عاطفته المتوقِّدة، كما أنَّ علاقته التي تربطه بالمرثي انعكست بشكلٍ جلِّيٍ في ثنايا الأبيات، لاسيَّما أنَّ المرثي لم يهجِ أحداً، وحتى يصوِّر الشَّاعر عظمة الفقيد، فإنَّه راح يقارن شخصيّة المتوفّي بشخصيَّات تبوَّأت مكانة سامية في التُّراث العربيّ والإسلاميّ[2]:

فَيَا أسَــفَ البَــدِيعِ علــى بَــديعٍ لكــلِّ فُنُونِــهِ منــه افْتِنَــانُ
إذَا الْتَفَتَ استَطالَ علــى جَرِيــرٍ وأخرسَ من فرزدقــهِ اللِّــسانُ
فــلا تَقِــسَا بِــهِ ســحبانَ يَومــاً ولا قُــسَّاً إذا ذُكِــرَ البَيَــانُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص282.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص282.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولـــو هـــرمٌ رَآهُ سَـــلا زُهَيْـــرَاً وكـــانَ لَـــهُ عَليـــهِ ثَـــمَّ شـــانُ
جمالَ الدِّين أنْـــتَ جميـــلُ ظَـــنٍّ بِربِّـــك جَـــلَّ ديانـــا يُـــدانُ
وعفـــوُ اللهِ أكثـــرُ مِـــن ذُنـــوبٍ لَنا وعلى الشَّفيعِ لَنا الـــضَّمَانُ

ونجد في رثاء العلماء ما يعبِّر عن الأمور النَّاجمة عن وفاتهم، لاسيَّما في المجال العلميّ الذين تميَّزوا به، كما في رثاء عز الدِّين الضَّرير الأربلي الغنويّ لشمس الدِّين الخسروشاهي، حيث صوَّر الشَّاعر الفضائل مفقودة، وكذلك العلوم، بل الشَّمس فقدت، إذْ يقول[1]:

بموتِكَ شـــمسَ الـــدِّين مـــاتَ الفـــضائلُ وأقفرَ مـــن ذكـــرِ العلـــومِ المَحَافِـــلُ
أصابَ الرَّدَى شمسُ الورَى عِندَما اسْتَوَتْ وأودَى بِبدرِ الفَضْلِ والبـــدرُ كامـــلُ
فتـــىً عـــالمٌ بـــالحَقِّ، بـــالخيرِ عَامـــلٌ وما كلُّ ذِي علمٍ مِن النَّـــاس عَامِـــلُ
فتـــىً بـــذَّ كـــلَّ العـــالمينَ بِـــصَمْتِهِ فَكيـــفَ إذا وَافيتَـــهُ وَهْـــوَ قَائِـــلُ
فربعُ الحَجَى مَنْ بعـــدهِ اليـــومَ قَـــدْ خَـــلا وجيد المَعَالِي من حَلى الفَضْلِ عاطلُ
أتَـــدْرِي المَنايَـــا مَـــنْ رَمَـــتْ بِـــسِهَامِهَا وأيُّ فتـــىً أوْدَى وَغـــالَ الغَوائِـــلُ
رمـــتْ أوحـــدَ الـــدُّنيا وبحـــرَ عُلومِهـــا ومن قصَّرْتْ في الفضلِ عَنهُ الأوَائِلُ

ويصوِّر الشَّيخ شرف الدِّين الحصني الخسارة العلميّة إثر فقد الشَّيخ جمال الدِّين ابن مالك بأبيات، حيث قال[2]:

يـــا شـــتاتَ الأســـماءِ والأفعـــالِ بعدَ مَوْتِ ابن مالكِ المفْضَالِ
وانحرافَ الحُروفِ من بعدِ ضَبْطٍ منهُ في الانفصالِ والاتِّصَالِ
مصدراً كانَ للعلومِ بـــإذنِ اللـــ ـــهِ من غيرِ شبهةٍ ومِحَـــالِ
عدم النَّعـــتُ والتَعَطُّـــفُ والتَّـــو كِيدُ مـــستبدلاً مـــن الإبـــدالِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص258.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص408.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

5.2 **شعر الوصف**:

يُعدُّ الشِّعر وصفاً؛ فأغراض الشِّعر المختلفة ترتكز على الوصف بالدرجة الأولى، ولا يمكن الاستغناء عنه في أي غرض من الأغراض الأخرى، ولذلك ذهب أكثر من واحد، فابن رشيق القيرواني، يقول: "الشعر - إلاَّ أقلَّه- راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه"[1]، والحال كذلك عند عبد العظيم قناوي، فذكر: "أنَّ الوصف في حقيقة الأمر هو عماد الشعر"[2].

ويتميَّز الوصف عن باقي الأغراض الشعريّة الأخرى؛ لأنَّ المحِّرك لهذا الغرض هو الإعجاب الصَّادق الحقيقي، على خلاف الأغراض الشِّعرية الأخرى التي يدفع إليها دافع ما؛ فالمدح يراد به التكسُّب المادي أو المعنوي أو كليهما، والغزل قد يقود إليه شعور كاذب غير صادق، يكون للمتعة ليس غير، والهجاء توجده العداوة والبغضاء يكون هدفه النيل من الخصوم والانتقاص من قيمهم، والرِّثاء قد يكون للتقرُّب من نسل المرثي لاسيَّما الحكَّام والسَّلاطين، بينما نجد شعر الوصف "لم يدفع إليه إلاَّ الهوى النفسي والشُّعور الفطري المتفجِّر من قلبٍ صادقٍ، وعاطفةٍ غير مدفوعةٍ بهوى خارجي"[3].

وفي كتاب (فوات الوفيات)، نجد لوحات عديدة رسمها الشُّعراء للعديد من العناصر الجامدة والحيّة، السَّلبيّة والايجابيّة، منها ما جاء في سياق الأغراض الشِّعريّة الأخرى، ومنها ما جاء في مقطوعات مستقلّة أظهر من خلالها الشُّعراء إبداعاتهم النَّابعة من قلوب صادقة.

1: ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني،(ت 463هـ)، (1964م)، **العمدة في محاسن الشعر ونقده** تحقيق: محمَّد محي الدِّين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ج2، ص294.

2: عبد العظيم علي قناوي، (1949م)، **الوصف في الشعر العربي**، شركة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، ج1، ص42.

3: قصي الحسين، (2006م)، **الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني**، المؤسسة الحديثة، طرابلس، لبنان، ص258.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد وصف أيدمر المحيوي روضة غنّاء، وما فيها من أنواع الأزاهير، وحركتها المتماوجة عندما يهبّ النَّسيم عليها، وانعكاس شعاع الشَّمس على ألوانها الزَّاهية، فتبدو نوراً على نور، وممّا زاد هذه الروضة جمالاً تغريد الطيور على أغصانها التي تتثنَّى طرباً لهذا الغناء البديع، إذْ يقول[1]:

الرَوض مُقتبلُ الشَبيبةِ مونِقُ ... خِضلٌ يَكاد غَضارةً يَتَدفَّقُ
نَثَر النَدى فيهِ لآلِئَ عِقدِهِ ... فَالزَّهرُ منهُ متوَّجٌ ومُنطَّقُ
وارتاعَ مِن مرِّ النسيم بِهِ ضُحىً ... فَغَدت كَمائمُ زَهرِهِ تَتفتَّقُ
وَسَرى شُعاعُ الشَمسِ فيهِ فَالتَقى ... مِنها وَمنهُ سنا شموسٍ تُشرِقُ
وَالغُصنُ ميّاسُ القوامِ كَأنه ... نشوانُ يَصبح بِالنَعيم وَيَغبقُ
وَالطَيرُ يَنطِق معرِباً عَن شَجوه ... فَيكاد يُفهَمُ عَنهُ ذاكَ المنطقُ
غِرداً يغنّي للغصون فَتنثَني ... طَرَباً جيوبُ الظلِّ مِنهُ تَشقَّقُ
وَالنَهرُ لَمّا راحَ وَهُوَ مسلسَلٌ ... لا يَستَطيع الرَقصَ ظلَّ يُصفِّقُ

وأخرج بعض الشُّعراء وصف الطبيعة في هيئة حوار، كما في الأبيات التالية التي أجرى فيها جوبان القواس (ت 680هـ) حواراً بين البان والنَّرجس، إذْ يقول[2]:

نفّش غصن البان أذنابه ... واهتزّ عند الصبح عجباً وفاحْ
وقال من في الروض مثلي وقد ... تعزى إلى غصني قدود الملاحْ
فحدّق النرجس يهزا به ... وقال حقّاً قلته أو مزاحْ
بل أنت بالطول تحامقت يا ... مقصوف عدواً بالدعاوى القباحْ
قال له البان: أما تستحي ... ما هذه إلاّ عيونٌ وقاحْ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص208؛ ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر، (ت809هـ)، (1931م)، **مختار ديوان علم الدِّين أيدمر المحيوي**، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة، ص1.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص305.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووصف بعض الشُّعراء زهرة بعينها، كما في قــول ابــن قــسيم الحمــوي (ت541هــ)، يصف زهرة باقلاء، إذْ يقول[1]:

للهِ فِي زمنِ الرَّبيع وصائفٌ حيَّتْ بزهرةِ بــاقلاءِ مُبهجــهْ
ولوت بمفرقها عصابةَ لؤلؤ وكأنَّ شَمْسَاً بالنُّجُومِ متوَّجــهْ
وكأنَّ أنملها حَبَتــك بــدرَّةٍ بيضاء مطبقةٍ على فيروزجهْ

ولعلَّ أجمل الوصف ما جاء مشرباً بمشاعر الحنين، ومن ذلك قصيدة ابن الظهير الأربلي التي قالها وهو في مصر يتشوَّق إلى دمشق، ومطلعها[2]:

لعلَّ سَنَا بَرْقُ الحِمَــى يتَــألَّقُ على النَّأي أو طَيْفَاً لأسْمَاءَ يطرقُ

ويستعين الشَّاعر في التعبير عن هذا الحنين بأساليب متنوعة (برق الحمــى، الطيف، النار، الرياح الهوج) مركِّزاً ذلك في صورة (أسماء) التي لعلّها كانت رمزاً لدمشق، يقول:

لعلَّ سَنَا بَرقُ الحِمَــى يَتَــألقُ على النأيِ أو طَيفاً لأسماءَ يطْرقُ
فلا نارها تبــدو لمرتقــبٍ ولا وعودُ الأمانيِّ الكواذب تــصدقُ
وعلَّ الرِّياح الهوج تهدي لنازحٍ عن الشامِ عَرفاً كاللَّطيمةِ يعبــقُ

ويعلّل الشَّاعر نفسه وهو في غربته باسترجاع ذكرياته فــي دمــشق، حيــث كانت الأيام (تحنو عليه وتشفق)، ويشرب رحيق العيش لذيذاً، ويمعن في اللَّهو مــع أصحابه، إذْ يقول:

ديارٌ قَضَيْنَا العَيشَ فيها مُنَعَّمَــاً وأيَّامُنَا تَحْنُو عَلَيْنَــا وتُــشْفِقُ
سَحَبْنَا بِها يرُد الشَّبابِ وَشُــربْنَا لَذِيذٌ كما شئنا مُصَفَّىً مُــصفقُ
مَوَاطِنُ فِيْهَا السَّهمُ سَهْمِي فُكُلُّنا نحثُ مَطايَا اللَّهوِ فِيهِ ونُعنــقُ
كِــلا جَانِبَيْــهِ مُعْلَــمَ مُتَجَعِّــدٌ مِنَ الماءِ فِي أطْلالِــهِ يَتَــدَفَّقُ

1: الكتبي، فوات الوفيات، ج4، 136؛ ابن قسيم، الحموي، (1995م)، **ديوان ابن قسيم الحموي من شعراء نور الدِّين زنكي**، تحقيق: سعود محمود عبد الجابر، دار البشير، الطبعة الأولى، عمان – الأردن، 1995، ص35.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص 304؛ ابن الظهير الاربلي، **ديوانه**، ص 52 وما بعدها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتغنَّى الشَّاعر في قصيدته بجمال البيئة الدمشقيّة الخلاَّبة، وصوَّر جوانب الإثارة فيها، فيصف قاسيون، والنيرب والربَّوة الشمّاء ونهر بردى، والمزة والفيحاء...؛ حتى تغدو القصيدة في كثير من أبياتها وصفاً جميلاً لأماكن دمشقية بعينها، على شاكلة قوله يصف منظر غروب الشَّمس عن جبل قاسيون، حيث قال:

أطَلَّ عليه قَاسيونُ كَأَنَّه غمامُ معلّى أو لغامٌ معلقُ
تسافرُ عَنْها الشَّمْسُ قَبْلَ غُروبِها وَتَرْجِفُ إجْلالاً لَهُ حينَ تُشْرِقُ
وتصفّرُ مِن قَبْلِ الأصيلِ كَأَنَّها مُحِبٌّ من البينِ المُشَتَّتِ مُشْفِقُ

ويصف تعانق القديم والمحدث في النيرب، من ذلك المشهد التالي الذي يبدي فيه افتتانه بالقصور البديعة، والجداول المتدفَّقة، والبرك المتألقة، والمنازل المتألقة، إذْ يقول:

وَفِي النيربِ المَرْمُوقِ للبّ سَالبٌ من المنظرِ الزَّاهِي وللطَّرف مونقُ
بَدَائِعُ مِن صُنْعِ القَديمِ ومحدثٌ تَأَلَّقَ فيه المحدثُ المُتَأنِّقُ
وقصرٍ يَكلُّ الطَّرْفُ عَنْهُ كَأَنَّهُ إلى النِّسْرِ نسرٌ فِي السَّمَاءِ مُحَلِّقُ
زَهَا بِبَدِيعِ الوَشْيِ حُسْنَاً كَأَنَّمَا مُدبجٌ رَوضٍ فِي نَواحِيهِ مُلْصَقُ
وَكَمْ جَدْوَلٍ جَارٍ يُطَارِدُ جَدْوَلاً وكَمْ جُوسقٍ عالٍ يُوَازِيهِ جَوْسَقُ
وَكَمْ بِرْكَةٍ فِيهِ تُضَاحِكُ بِرْكَةً وكَمْ قَسطلٍ فِي المَاءِ لِلمَاءِ يَدفُقُ
وَكَمْ مَنْزِلٍ يَعشِي العُيُونَ كَأَنَّمَا تَأَلَّقَ فِيهِ بَارِقٌ يَتَأَلَّقُ

ويقف الشَّاعر طويلاً في وصفه للمسجد الأموي في دمشق، وكيف أنَّ منظره البهيّ يسرّ النَّاظرين، وأنَّه يعمر بالمصلِّين والعابدين، وتسمع فيه حنين المسبِّحين والذَّاكرين، وترى فيه طلاَّب العلم وقد تحلَّقوا حول مشايخهم مصغين...، إذْ يقول:

لجامعِها المعمورِ بالذِّكْرِ بَهجةٌ ومَرْأى يَسرُّ النَّاظِرِينَ ورَوْنَقُ
محاسنُهُ بكرُ الزَّمانِ فصرفه عَلينَا مَدَى الأيَّامِ حَانٍ وَمُشْفِقُ
بِهِ زَجَلُ التَّسبِيحِ عَالٍ بهيجه حنينٌ إلى ذاكَ الحِمَى وَتَشوقُ
وللعلمِ فيهِ والعِبَادةِ مَعْلَمٌ جَديدٌ على مرِّ الجَدِيدَينِ مُونُقُ
وفيهِ لأربابِ التلاوةِ لِذَّةٌ إذا أخذوا فِي شَأنِهم وتحلقُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كأنَّ مجَاجَ النَّحلِ فِي لَهَــواتِهم إذا رجعوا الأصواتَ فيها وأطلقُوا

ويتخلَّل ذلك كلّه حنين دافق إلى مدينة دمشق، حتى غدت رؤيتهــا والعــودة إليها أقصى أماني الشَّاعر، إذْ يقول:

دمــشقُ أذاقَتْنِــي اللَّيَــالِي فراقُهــا وقدْ كُنْتُ أخْشَى مِنهُ قدماً وأفــرقُ
هِي الغَرَضُ الأقْصَى وَرُؤيتُها المُنَى وَســكَانُها ودي لهــم متوثــقُ
ولَو لَمْ تَكُنْ ذات العمادِ لمــا غَــدَتْ وليسَ لَها مِثلٌ على الأرضِ يخلقُ
حَنِيْنِي إليهــا مَــا حَيِيْــتُ مَرْجَّــعُ وقلبي أسيرُ الشَّوقِ والدَّمعُ مطلــقُ
عَلَيْهَــا تَحِيَّــاتِي غَــوادٍ رَوَائِــحُ بِهَا الرِّيحُ تَجرِي والرَّكَائبُ تخفــقُ

ووصف الشُّعراء الكثير من العناصر المتناثرة في الحياة العامة، فقد وصــفوا الأدوات التي يستخدمونها صغيرة أو كبيرة، مثل وصــف ابــن عــز القــضاة (ت 689هــ) للشُّموع[1]:

وَزُهْرِ شُــمُوعٍ إنْ مَــدَدْنَ بَنَانِهَــا بِمحو سُطُورِ اللَّيلِ نَابَتْ عَن البَدْرِ
وفــيهنّ كافوريّــةٌ خلــتُ أنَّهــا عَمُودُ صَباحٍ فَوْقَهُ كَوْكَــبُ الفَجْــرِ
وَصَفْرَاءُ تَحكُّ شَاحِباً شَابَ رَأسَــهُ فأدْمُعُهَا تَجرِي على ضَيْعةِ العُمْــرِ
وَخَضْرَاءُ يَبدُو وقدَها فَــوْقَ قَــدّهَا كَنَرْجسةٍ تُزْهَى عَلى الغُصْنِ النَّضْرِ
وَلا غَرو أنْ تَحكِي الأزَاهرُ حُسْنَها أَلَيْسَ جَنَاها النَّحلُ قدماً مِنَ الزَّهْــرِ

ويرسم السرَّاج المحار (ت 711هــ) لوحة معبِّرة لقنديل، جاعلاً من هذا القنديل كوكباً متوقِّداً [2]:

يَا حسنُ بَهْجة قنديلٍ خَلَوْت بِــهِ واللَّيلُ قَد أسلَت منَــا سَــتائِرُهُ
أضاءَ كالكَوكَبِ الدُّرِّي مُتَّقِــداً فراقَ باطنُهُ نُــوراً وظــاهرُهُ
تزيدهُ ظُلمةُ اللَّيل البَهِــيمِ سَــناً كَأنَّما الليلُ طَرفٌ وَهو بَاصرُهُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص181.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص148.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويبرع فخر القضاة ابن بصاقة (ت 650هـ) في وصف خيمة، حيث يفصّل القول فيها مستغلاً قدرته اللُّغوية في رسم صورة طريفة للخيمة، ذاكراً الفوائد المجنيَّة منها، إذْ قال [1]:

ومَرْفوعةٍ منصوبةٍ قَد نَصبتُهَا ... وَلكنَّهُ رفعٌ يَؤُولُ إلى خَفْضِ
تُعِينُ على حَرِّ الزَّمانِ وَبَرْدِهِ ... بِلا حَسبٍ زَاكٍ ولا كَرَمٍ مَحْضِ
وتصبحُ للأَجْيِ إليها وقايةً ... لبعضِ الأذَى الطَّارِي عَلى الجِسْمِ لا العَرْضِ
تقومُ على رِجلينِ طَوْرَاً وَتَارَةً ... تَقُومُ عَلى رِجْلٍ بِلا عَرَجٍ مُنْضِ
إذَا حضرتْ كَانَتْ عَقيلةَ خَدْرَها ... وإنْ تُبْدُ لَمْ تَلزمْ مَكانَاً عَلى الأرْضِ
قصدتُ كريماً خيمهُ ليبينها ... وقصدُ الكريم الخيم من جُملةِ الفرضِ

ويصوِّر جوبان القواس (ت 680هـ) "شبَّابة" تصويراً جميلاً، إذْ قال[2]:

وناطقةٍ بأفْواهٍ ثمانٍ ... تميلُ بعقلِ ذي اللبِ العفيفِ
لكلّ فمٍ لسانٌ مُستَعارٌ ... يُخالِفُ بينَ تقطيعِ الحُرُوفِ
تُخَاطِبُنَا بِلَفظٍ لا يَعِيهِ ... سِوَى مَن كانَ ذَا طَبْعٍ لَطِيفِ
فضيحةُ عَاشِقٍ وَنديمُ راعٍ ... وهيبةُ موكبٍ ومدامُ صُوفِي

وكما في قوله أيضاً يصف "طاسة"، ويبدو أنَّ الشَّاعر وفِّقَ في وصفه، فقدَّم صورة متكاملة لهذه الطاسة، مضفياً على وصفه مسحة من الحياة، إذْ يقول:

ومعشوقةٍ تَسْقِي المُحِبَّ رُضابها ... بلثمٍ هنَيٍّ الرَّشفِ غيرِ ممنّعِ
إذَا استَوْدَعتْ ردت بغيرِ خيانةٍ ... وإن ضُرِبَتْ أنَّتْ بِغيرِ توجعِ
مبذلةٌ لم تحمَ عن لثمٍ لاثمٍ ... وصَاحبُها في غِبطةٍ بالتمتعِ
تجودُ بِمَا تَحْوِي فَتُحْيِي بِبَذْلِها ... وتنقلُ ما تملا وَتَحْفَظُ مَا تعِي
تقبّلها الأفواهُ من كلّ جانبٍ ... فما خُصَّ منها موضعٌ دون موضعِ

ويجعل سبط ابن عبد الظاهر (ت 733هـ)، من السجادة نباتاً، يروى من ماء وجوه المصلِّين:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص189.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص306.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَجِبُوا إذا رَأوا بَديعَ اخضرارٍ ضِمنَ سِـجَّادةٍ بظـلٍ مديـدِ
ثُمَّ قَالُوا: من أي مَاءٍ تـروَّى؟ قُلتُ: ماءُ الوُجُوهِ عِنْدَ السُّجُودِ

ووصف الشُّعراء أدوات الكتابة لاسيَّما أربابها، كما في وصف القاضي نجم الدِّين ابن البارزي (ت683هـ) للقلم[1]:

ومثقفُ للخـطِ يَحْـكِي فعـل سمـرِ الخطِ إلاَّ هذَا أصفرُ
فِي رَأسِهِ المسودِّ إنْ أجْرُوهُ فِي الـ مبيضِ للأعداءِ مَوتٌ أحمـرُ

ويبدو أنَّ الحروب الصليبية التي دارت رحاها آنذاك كان لها انعكاسها في شعر الوصف، فقد جعل فخر القضاة ابن بصاقة (ت 650هـ) من الرُّمح صاحباً، شجاعاً، مقداماً، يلوذ عن صاحبه كل مكروه[2]:

ولِي صَاحبٌ قَد كَمَّـلَ اللهُ خلقَـهُ ولَيْسَ بِهِ نَقْصٌ يُعـابُ فيـذكرُ
عَصِيٌّ ثَقِيـلٌ إنْ أطيـلَ عنانَـهُ مُطيعٌ خَفيفٌ الكلِّ حينَ يَقـصرُ
يُسابِقُنِي يومُ النِّزَالِ إلـى العِـدَا فإنْ لَـمْ أوخْـرهُ فَمَـا يَتَـأخرُ
ويؤمنُ منهُ الشرُّ مَـا دَامَ قَائِمَـاً ولكن إذَا مَا نَامَ يُخْشَى وَيُحْـذرُ
أنالُ بِهِ فِي الرَّوْعِ مَهْمَا اعتقلتـهُ مرامـاً إذَا أطْلَقْتُـه يَتَعَـذّرُ
تَعَـدَّى علَـى أعْدَائِـهِ مُتَنَـصِّلاً إليهم ومَا أبْدَى اعْتِذَاراً فَيعـذرُ
تَرَى منْهُ أميّاً إلى الخَـطِّ يَنْتَمِـي ومغرىً بِغَزوِ الرُّوم وَهْوَ مزنّرُ
عَجبتُ لَهُ من صَامتٍ وهو أجْوَفٌ وَمْن مُستطيلِ الشَّكلِ وَهْوَ مُدَوَّرُ
وَمِن طَاعنٍ فِي السِّنِّ لَيسَ بمنحنٍ وَمن أرعنٍ مُذْ عَاشَ وهو مُوقّرُ

ووصف الشُّعراء كسابقيهم الحيوانات المختلفة، فهي الوسيلة المعينة لهم في حياتهم، لكن الحيوانات الأكثر ذِكراً عادة هي القريبة من الإنسان، مثل النَّاقة والفرس، فهما الوسيلتان السريعتان اللَّتان تستخدمان في قطع الفيافي، كما في وصف جمال الدِّين الشَّاعر (ت 750هـ) لفرس أدهم، وقد بالغ في ذلك[3]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص307.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص188.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص346.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأدهمِ اللَّون فاتَ البَرْقَ وانتظــره فَغارَت الرِّيحُ حتَّى غيَّبَتْ أثرَهْ
فواضعٌ رِجْلَهُ حَيثُ انْتَهَــتْ يَــدُه وَوَاضِعٌ يَدَه أنَّى رَمَى بَــصرهْ
سَهْمٌ تَراهُ يُحَاكِي الــسَّهمَ مُنْطَلِقــاً وَمَا لَهُ غَرَضٌ مُستوقِف خَبَرُهْ
إذَا توقلَ قُطْبُ الــدِّين صَــهْوَتهُ أبصرتَ لَيْلاً بِهِيماً حَامِلاً قَمرُه

وقد يكون غاية الوصف الهزل أو الإضحاك، كما في قول عرقلة الدْمــشقي (ت 567هــ)، يصف معشوقه الطويل، فنلحظ الروح الفكاهية الطاغية علــى هــذه الأبيات، إذْ قال[1]:

لي حَبيبٌ قَــدُّهُ قُــد دَّ مِنَ السُمرِ الرِقاقِ
مَــــن رَآهُ وَرَآنـــــي قالَ ذا غَيرُ اِتِّفــاقِي
أَعوَرُ الدَجّالِ يَمــشي خَلفَ عَوجِ بنِ عُناقِ

6.2 الألغاز والأحاجي:

الألغاز من موضوعات الشِّعر ولون من ألوان الدَّعابة التي تحتاج إلى إعمال الفكر وإجهاده في صياغتها، أو في حلِّ رموزها وأسرارها [2]، وهي من أخفى الإشارات؛ لأنَّنا نرى فيها للكلام ظاهراً عجباً غير ممكن، فإذا أعملنا الفكر وأمعنا النَّظر وجدنا له باطناً ممكنا غير عجيب[3]، لذلك عدَّها أحمد بدوي من أدب الكنايات[4]، كما تدلُّ على مدى قدرة الشَّاعر وتمكُّنه، وكانت مجالاً يتبارى فيها

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص317؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص67.
2: الهيب، **الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء**، ص155.
3: ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني، (ت 463هــ)، (1964م)، **العمدة في محاسن الشعر ونقده**، تحقيق: محمَّد محي الدِّين محمَّد، المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة، الطبعة الثالثة، ج1، ص307.
4: بدوي، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية**، ص106.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأدباء[1]، والألغاز لم يسلم منها شاعر، ولم يخل منها ديوان[2]، كما أنَّها وسيلة جميلة للتسلية[3].

ويبدو أنَّ أشعار الألغاز كانت تلقى على عامّة النَّاس؛ أي أنَّها كانت مطروحة للجميع، مع أن هناك قسماً منها كان يوجَّه لشخصٍ بعينه، حين كان الشَّاعر ينظم قصيدة أو مقطوعة ويبعث بها إلى شخص محدَّد في العادة يكون بينهما ودّ أو علاقة ما.

وعند النَّظر في الألغاز المطروحة للجميع "الألغاز العامة" فإنَّها تبدو أقل تكلُّفاً من الألغاز الموجَّهة لشخصٍ معيَّن "الخاصة"، أضف لذلك أنَّ الألغاز العامة غالباً تتطرَّق للحديث عن أمور ماديّة عامة ملتقطة من الحياة اليوميّة، بينما الألغاز الخاصّة تبدو أكثر تكلُّفاً، يغوص صاحبها في دقائق الأمور خاصة الألغاز المتبادلة بين الشُّعراء وعلماء اللُّغة والأدب.

أمَّا من حيث الحجم، فعدد أبيات الألغاز العامّة أقل من أبيات الألغاز الخاصّة، وقد يكون مردّ ذلك للتعقيد الذي يتعمَّده أصحاب هذا اللَّون من الألغاز وحاجتهم للتفصيل المفضي إلى إبعاد السَّامع عن المراد الحقيقي باللُّغز ممَّا يضطرهم لمساحة أكبر.

وفي كتاب (فوات الوفيات)، تطالعنا بعض الألغاز الشِّعرية التي تأخذ غالباً شكل النتف والمقطوعات، كما في قول شرف الدِّين المقدسي (ت 694هـ) في الدولاب[4]:

وَمَا أُنْثَى وَلَيْسَتْ ذَاتُ فَــرْجٍ ... وَتَحْمُلُ دَائماً مِن غَيــرِ فَحْــلِ
وتَلقِــي كُــلَّ آونــةٍ جَنِينَــاً ... فَيَجْرِي فِي الرِّيَاضِ بغيرِ رِجْلِ
وَتَبْكِي حِــينَ تُلْقِيــهِ عَلَيــهِ ... بِصوْتٍ حَزِينــةٍ ثَكْلَــى بِطِفْــلِ

1: زغلول، **الأدب في العصر الأيوبي**، ص343.

2: موسى، **الأدب في بلاد الشام عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، ص597.

3: الهيب، **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**، ص354.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص58.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما في قول محيي الدِّين بن عبد الظاهر(ت 692) ملغزا في شبرية[1]:

وهنديةٍ موطوءةٍ غيــر أنَّهــا إذا افترشتْ أغرَّتك بالبِيضِ والسمرِ
تُعانِقُ من أعطافِهــا خيزرانــةً وتَلْمحُ من أزرارِهَا طَلعــةَ البَــدْرِ
على أربَعٍ أمستْ تُنامُ وإن تَقُــمْ تَفُوتكَ طُولاً وَهِي تُعْزَى إلى الشبرِ

وكما في قول سيف الدِّين المشد (ت 656هــ)، وقد نظم لغزاً في الرُّمح،[2]:

أيُّ شيءٍ يكونُ مالاً وذُخــراً راقَ صُنعاً عِنْدَ اللِّقاءِ ومَخْبَرْ
أسمرُ القدِّ أزْرَقُ السنِّ وَصْــفَاً إنَّمَا قَلْبُهُ بِــلا شَــكَّ أحْمَــرْ

ونظم علاء الدِّين ابن الكلاس (ت730هــ) لغزاً في رغيف مركِّزاً على صفاته، فقال[3]:

ومستديرِ الوجهِ كــالتُّرسِ يجلسُ للنَّاسِ على كُرسِي
يدخلُ مِثْلَ البَدرِ حمامــه وبعدها يخرجُ كالــشَّمسِ
يوصلُ السُّلطانَ فِي دستِهِ واللِّصِّ في هاويةِ الحَبْسِ
لوْ غابَ عن عنترةٍ ليلــةً وهتْ قوَى عَنْتَرةُ العَبْسِي

ومن هذه الألغاز ما قاله شهاب الدِّين ابن الخيمي (ت 685هــ) لغزاً في الملعقة[4]:

ومم ـــدودةٌ كَيــدَ المجتــدَي بكفٍّ على ساعدٍ مسعدِ
تَرَى بعضَها في فَمِي كاللِّسَانِ وجملتها في يَدِي كاليدِ

وتظهر في الألغاز إجهاد النَّاظم نفسه في النظم على الرّغم من قلّة الأبيات المنظومة، كما في قول فخر القضاة ابن بصاقة (ت 650هــ) لغزاً في البيضة[5]:

ومولــودةٍ لا روحَ فيهــا وإنَّهــا لتقبل نفخَ الرُّوحِ بعد ولادِهَا
وتَسْمُو على الأقرانِ في حومةِ الوَغَى ولكن سمواً لم يكنْ بمرادِهَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج2، ص191.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج3، ص54.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص94.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص423.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص187.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا جُمعتْ فالنقصُ يعــرو حروفَهــا ولكنَّها تزدادُ عندَ انفرادِهَــا

ويتلاعب الأديب بدر الدِّين الذَّهبي (ت680هـ) بالألفاظ ليخرج لغزاً جميلاً عن "السرطان"[1]:

مَا اسمٌ إذَا مَا أنْــتَ صــحَّفتَهُ صَارَ مُثَنَّى باعتبــارينِ

في الراسِ والعينِ يُرى دَائمــاً وَهْوَ بِلا راسٍ ولا عَيْنِ

ويلاحظ أنَّ أغلب المقطوعات السابقة تتَّصف بأنَّها "صناعة فنيّة عقليّة بعيدة عن الشُّعور والعاطفة، وصياغتها تتوسَّط بين الإشادة إلى الشيء الملغز، وبين التعمية عنه"[2].

وقد تأخذ الألغاز جانباً غزليّاً كما في قول أبي جلنك الشَّاعر (ت 700هـ)، فقد نظم مقطوعة في اسم محبوبة، جاءت على النَّحو الآتي[3]:

اسمُ الذي أهواهُ فــي حُروفِــهِ مــسـألةٌ فــي طيّهــا مَــسـائِلُ

خُمْسَاهُ فِعْلٌ وَهْوَ في تَــصْحِيفِهِ مبيّنٌ والعــــــكسُ سَــــمٌّ قَاتِلُ

تُضِيء بَعدَ العَصْرِ إنْ جِئتَ بِهِ مُكَــرَّرَاً مــن عَكْــسِكَ المَنَــازِلُ

وهْــوَ إذَا صَــحَّفْته مُكــرَّراً فاكِهَــةٌ يلتــذُّ منْهَــا الآكِــلُ

وفيهِ طيــبٌ مُطــربٌ وَطَالَمَــا هاجَــتْ عَلَــى أمثالِــهِ البَلابِــلُ

وكما في قول ابن نفادة (ت 601هـ)، فقد نظم لغزاً في اسم محبوبة "يوسف"، حيث يقول[4]:

يَا سَائِلِي ما اسم الذي أحْبَبتهُ إنّي بسرِّ هواهُ غير مُــصرِّحِ

لكن إذَا فَكَّرْتَ فِيــهِ وَجدتَــهُ مَعْكُوسَ سَابع لفظةٍ في سبحِ

ومن الألغاز المتبادلة بين الشُّعراء أبيات بعث بها السرَّاج الورَّاق للشهاب محمود، ملغزاً في سجادة، وفي هذا النوع من الألغاز غالباً ما يستهل الشُّعراء

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص380.

2: الهيب، **الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء**، ص155.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص60، 61.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص84.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قصائدهم بمدح المرسل إليه اللُّغز بأبيات قليلة عادة لا تتجاوز البيتين، ثمَّ يتبعه بأوصاف تبدو بعيدة عن الشيء الملغز، ويجري على هذا النَّسق حتى نهاية القصيدة[1]:

يَا إماماً ألفَاظه الغُرّ فِي الأسْـ ـماعِ تَزْرِي بِالدُّرِ فِي الأسْمَاطِ
وشهاباً يجاوزُ الـشُّهب قَـدراً فَغَدتْ عَن علاهِ ذاتَ انحطَـاطِ
أي أنْثَى وَطَئْتُ مِنْهـا حَـلالاً مُسْتَبيحَاً مَـا لا يُبَـاحُ لِـواطِي
لمْ أحاولْ تَقبيلها غيرِ خمـسٍ حَالَ زُهْدي فِيها وَحَال اغتباطِي
وَهِيَ مَمْلُوكـةٌ وَعنـدَ أنَـاسٍ هِيَ سِتٌ عَلى اختلافِ التَّعَاطِي
وَهِيَ فِي صُورَةٍ خُمَاسِيَّةٍ مَـا فهقـت لا ولا دَنَـتْ للبُـواطِي
وتصيبُ الإيمانَ يَسْعَى إليهـا طالبُ اللهَ وَهْـوَ عبـدٌ خَـاطِي
وأرَى أن تحلّهـا بِيَمـينٍ وَيسارٍ فَقَدْ غَـدَتْ فِـي رِبَـاطِ

ويردّ الشهاب محمود على لغز السراج بأبياتٍ جرى فيها على غرار الأبيات المرسلة، فبدأها بمدح المرسل والثَّناء عليه، ثمَّ تبع ذلك بحل اللُّغز – وإنْ كانت بعض المعاني تكاد تشكِّل تكملة للُّغز لبعدها عن المراد:

يَا سِرَاجَاً لَمَّا سَمَتْ باسمِهِ الشَّمـ ـسُ غَدَا البَدرُ دونَها في انحِطاطِ
أنتَ بحـرٌ نـداكَ مـوجٌ وألفَـا ـظُكَ درُ وصنعُ يُمناكَ شَـاطِي
لا تَلُمْنِـي إذَا نَظمـتُ معانيـ ـكَ فَمِن دُرُ فِيكَ كانَ التقَـاطِي
أنْتَ ألغزتَ في اسمٍ ذَاتِ رِقَـاعٍ لَمْ تُجَاهِدْ وكَمْ غَدَتْ فِـي رِبَـاطِ
خُمْسَاهَا عـشر وَللعُـشر فيهـا خطـواتٌ براحـةٍ وانْبِـسَاطِ
حَازَها تَابعُ المجلّي فَحَـازَ الـ ـسبقَ من دونِهِ بغيـرِ اشـتراطِ
مذ عَلاها في أوَّلِ الصَّفِ أضحى كـسليمانَ فـوقَ مـتنِ البِـسَاطِ

وتبادل الشيخ صلاح الدِّين الصَّفدي وجمال الدِّين الشَّاعر (ت750هـ) الألغاز، فبعث الشيخ بقصيدة ملغزاً في "مكوك الحائك"، استهلَّها بمدح المرسل إليه اللُّغز، وهو مدح بصفات تقليديّة، لكنَّه يستشفّ من هذا المدح تهيئة المرسل إليه لحل

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص82.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللُّغز، وكأنَّ المرسل يقول في هذا المدح: لولا تميّزك بهذه الصفات والميِّزات لِمَ بعث لك بهذا اللُّغز[1]:

أيَا مَن فَاقَ فـــي الآدابِ حتَّـــى ... أقرَّ بفضلهِ الجـــمُّ الغفيـــرُ
وأحرزَ فِي المُنَى قصباتِ ســـبق ... فَدون محلهِ الفُلـــكُ الأثيـــرُ
وأطلعَ فِي سَماءِ الـــنَّظْمِ زَهْـــرَاً ... يَلُوحُ فَمَنْ زُهيرٌ أو جَرِيْـــرُ
قطعتَ أولي النُّهَى وافضل بحثاً ... فمالك في منـــاظرةٍ نَظيـــرُ
إذَا أعربتَ فِي الإعْرَابِ وَجْهَـــاً ... فَكَمْ ثَلجتْ بِمَا تبدي صُدُورُ
وإنْ قِيـــلَ المعمـــيّ والمـــورَّى ... فذهنُكَ نَاقِـــدٌ فِيـــهِ بَـــصِيرُ
وَهَا أنَا قَـــد دَعَوْتُـــكَ للتَّحَـــاجِي ... لأنَّكَ فِي الحَجَا طَبٌ خَبِيـــرُ

ويحشد الشَّاعر من الصِّفات البعيدة للغز بهدف أبعاده عن السَّامع، لكن إذا ما تمهَّلت وتفكَّرت وجدت هذه الصِّفات ممكنة غير بعيدة، ويبدو أنَّ الشُّعراء في هذا الغرض ينظمون لإظهار القدرة والتمكُّن والتسلية بعيداً عن العواطف والمشاعر والأحاسيس، كما في هذه الأبيات التي لا تخرج عن وصف مبهم لمكُّوك الحائك:

فَمَا ساعٍ يَرَى فِي غيـــرِ أرضٍ ... وَلا هُوَ فِي السَّمَا مِمَّا يَطيرُ
وَيُسْمَعُ منهُ عِندَ الجَرْيِ صَوتٌ ... لَهُ فِي صَدرِهِ مِنْـــهُ خَرِيـــرُ
قليلُ المَكْثِ كَمْ قَدْ بَاتَ تُطْـــوَى ... لَهُ مـــن شـــقةٍ لَمَّـــا يَـــسِيرُ
ويفتـــرشُ الحريـــرَ ويَرْتَدِيـــهِ ... غِطاءً وَهْوَ مَع هَـــذا فَقِيـــرُ
وتظهرُ فِـــي جَوانِبَـــهِ نُجُـــومٌ ... وَفِي أحْـــشَائِهِ فُلَـــكٌ يَـــدُورُ
فأوضحْ مَا ذَكرتُ فغيرِ خَـــافٍ ... على مَجموعِ فضلِكَ ما أشيرُ
ودمْ فِي نعمـــةٍ وســـعودِ جـــدٍّ ... وَعِزٍ ما سَقَى رَوْضَاً غَـــدِيرُ

وكان من الطبيعي أن تأتي قصيدة الردِّ على اللُّغز موازية للقصيدة المرسلة، فبادر الشَّاعر إلى مدح صاحب اللُّغز، تلا ذلك إسهاب في وصف الملغز لعلَّ الشَّاعر

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص347.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أراد بذلك إثبات قدرته وتمكّنه من إشباع الملغز بالأوصاف التي تؤدّي إلى تقريبه إلى ذهن السَّامع، لذلك استغرق حل اللُّغز مساحة كبيرة من القصيدة[1]:

أوجهُـــكَ لاحَ أمْ قمـــرٌ منيـــرُ ... وَذِكْرُكَ فَاحَ أمْ نَفِـحَ العَبِيـرُ

طلعتَ طُلوعِ شمسِ الصّحُو صُبْحَاً ... عَلى فَرسٍ حكَى فُلْكَـاً يَـسِيرُ

ويـــا للهِ روضٌ ضـــمن طـــرسٍ ... زهيرٌ فِـــي جَوانِبِـــهِ جَرِيـــرُ

رميـــتَ بِـــهِ إلـــيَّ فَقُلْـــتُ هَـــذَا ... شُعَاعُ الشَّمسِ مَأخَـــذَهُ عَـــسِيرُ

أرَانِي رَمـــزهُ الوَضَّـــاحَ حُـــسْناً ... يُنَبِّهُنِـــي عَلَـــى أنِّـــي حَقِيـــرُ

وأنـــي ملحـــق بأقـــلِّ صَـــنْفٍ ... إذَا مَـــا حَقَـــقَّ الجـــمُّ الغَفِيـــرُ

فَمُـــذْ صَـــحَّفْته فِكْـــرِي مكـــوك ... وَمُذْ نَـــشَّرته بَـــاعِي قَـــصِيرُ

هُـــوَ المَأسُـــورُ بالماســـورِ لكـــن ... لَهُ فِـــي أسْـــرِهِ مَـــرجٌ كَثِيـــرُ

نـــشيطٌ أيّـــدٌ ويعـــادُ طَوْعَـــاً ... بِخـــيطٍ متنُـــهُ واهٍ طَرِيـــرُ

يـــــراعُ لأنَّ مُهجتِـــــهِ يـــــراعٌ ... لَهُ في الجوفِ مِن خَوفٍ صَفِيرُ

يحورُ إلـــى يمـــينٍ مـــن شـــمالٍ ... وما يَعْيَـــا بِـــذَا لكـــن يَخُـــورُ

غَـــدَا يَـــسْعَى بأربعـــةٍ سِـــراعٍ ... ولـــيسَ لِمَـــشْيِهِ بِهِـــمُ نَظِيـــرُ

يُخـــالِفُ بَـــينَ رِجْلَيـــهِ فَيَجْـــرِي ... وَتَرْفَعُـــهُ يَـــدَاهُ فَيَـــسْتَطِيرُ

لـــهُ نـــولٌ يـــسيرُ لِكُـــلِّ حَـــيٍّ ... ومِيـــتٍ مِنْـــهُ إحـــسان كَثِيـــرُ

إذَا أسْـــدَى إليـــهِ الخيـــرَ مُـــسْدٍ ... جَزَاهُ عَلَيهِ وَهْـــوَ بِـــذَا قَـــدِيرُ

كذاكَ صِـــفَاتُكَ الحُـــسْنَى وَلَكـــن ... بَدأت تطـــولاً وَبِنَـــا قُـــصُورُ

فغفـــراً ثـــمَّ ســـتراً ثـــمَّ قـــصراً ... فأينَ الثمـــدُ والبَحْـــرُ الغزِيـــرُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص349.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

الدِّراسة الفنيّة

1.3 بناء القصيدة:

تصدَّى النقَّاد القدماء للقصيدة العربيّة وقسَّموها إلى عناصر هي: المقدِّمة، والموضوع، والتخلُّص، والخاتمة، فقد أشار الجاحظ في معرض حديثه عن جيِّد الشِّعر إلى مدى أهميّة تلاحم وترابط هذه الأجزاء لِمَ لهذا الترابط من أثر طيِّب عليه، إذْ قال: "أجود الشِّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، كأنَّه قد سبك سبكاً واحداً، وأفرغ إفراغاً واحد، فهو يجري على اللِّسان كما يجري فرس الرِّهان"[1].

وفي هذا الصَّدد أدلى ابن طباطبا برأيه، حيث قال: " وأحسن الشِّعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً، يتَّسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإنْ قدَّم بيتاً على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل...، فإنَّ الشِّعر إذا أسس تأسيس فصول الرَّسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلّة بذاتها، والأمثال السَّائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلّها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشَّاعر من كل معنى يضعه إلى غيره خروجاً لطيفاً، حتى تخرج القصيدة كلّها مفرغة تفريغاً، لا تناقض في معانيها، ولا وَهْيَ في مبانيها"[2].

1: الجاحظ، (ت 255هـ)، (1968م)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السَّلام هارون، مطبعة الخانجي- القاهرة، الطبعة الثالثة، ج1، ص67.

2: ابن طباطبا، محمَّد بن أحمد بن طباطبا العلوي، (322هـ)، (1982م)، **عيار الشعر**، شرح وتحقيق: عبَّاس عبد الساتر، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ص131.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعدُّوا الشَّاعر الحاذق من يجيد في تحسين هذه العناصر، فقد قال الجرجاني: "الشَّاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلُّص وبعدهما الخاتمة، فإنَّها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء"[1].

وتناول بعض الدَّارسين المحدثين هذا الأمر، فذكر أحد هؤلاء الباحثين أنَّ الحديث عن الابتداءات الحسنة وحسن التخلُّص، ثمَّ الخاتمة هو حديث عن الوحدة في القصيدة العربية[2]، كما ذكر بعضهم معلِّقاً على ما وصلهم عن النقَّاد القدماء "إنَّ النقاد بذلك يَعدُّون القصيدة متماسكة لا انفصال بين مقدِّمتها وموضوعها، إذْ هما متَّصلان اتصالاً يفضي إلى ما يشبه الوحدة العضوية"[3]. كما علَّق آخر على ذلك قائلاً: "هذه الوحدة وحدة شكليّة تقوم على التدرُّج أو التسلسل الذي يفضي فيه موضوع إلى موضوع آخر بعلاقة تسمَّى التخلُّص، بحيث تتركَّب القصيدة في أقسام أساسية"[4].

وأولى النقُّاد المطالع اهتماماً بيِّناً؛ ذلك لأنَّها أول ما يقرع السمع[5]، وأرشدوا الشُّعراء إلى الطريق السَّليم في هذه المطالع، ولذلك على الشَّاعر "الاحتراز في مفتتح أشعاره ممَّا يتطيّر به أو يستجفى من الكلام، ولاسيَّما في المدائح أو التهاني"[6]،

1: الجرجاني، علي بن عبد العزيز الجرجاني، (329هـ)، (1951م)، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، ص48.

2: السمره، محمود، (1979)، **القاضي الجرجاني الأديب الناقد**، منشورات المكتب التجاري للطباعة- بيروت، الطبعة الثانية، ص182.

3: حسين عطوان، (1987م)، **مقالات في الشعر ونقده**، دار الجيل- بيروت، الطبعة الأولى، ص209.

4: عباس، إحسان، (د.ت)، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن للهجرة**، الطبعة الأولى، بيروت، 32.

5: القرطاجني، أبو الحسن حازم القرطاجني، (ت 684هـ)، (1966م)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تقديم وتحقيق: محمَّد الحبيب ابن الخوجه، دار الكتب الشرقية- تونس، ص286.

6: ابن طباطبا، **عيار الشعر**، ص126.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أنَّ عليه أن يورد في ابتداء كلامه بيتاً، أو قرينة تدلُّ على مراده من القصيدة[1]. وبيَّن القرطاجني أهميّة المطالع وحسن استهلالها، فقال: "من أحسن الأمور في صناعة الشِّعر، لأنَّها الطليعة الدَّالة على ما بعدها، المتنزّلة من القصيدة منزلة الغرّة من الوجه"[2]، وهذا الأمر درج عليه الشُّعراء منذ العصر الجاهلي فلم يهجموا على أغراضهم، بل يمهِّدون ويوطِّئون لها بما يناسبها[3].

واهتمَّ النقَّاد بـ "حسن التخلُّص؛ فالقرطاجني، يقول: "فإنَّ النُّفوس والمسامع إذا كانت مندرجة من فن إلى فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثمَّ انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غيره جامع بين طرفيهما وجدت الأنفس في طباعها نفوراً من ذلك"[4]. وحضَّ ابن الأثير على حسن التخلُّص ورسم للشُّعراء طريقه حين بيَّن معناه، قال: "أن يأخذ مؤلِّف الكلام في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذْ أخذ في معنى غيره، وجعل الأول سبباً له، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير يقطع كلامه وكأنَّه أفرغ إفراغا"[5].

واهتمَّ النقَّاد كذلك بخاتمة القصيدة، وبيَّن هؤلاء النقَّاد أهميّة الخاتمة، فابن رشيق يعلِّل سبب الاهتمام بآخر القصيدة لأنَّها "آخر ما يبقى في الأسماع"[6]، والقرطاجني طلب أن يتحرَّى الشَّاعر في أواخر القصائد "إن يكون منها كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة"[7]، وأشار أحد الدَّارسين المحدثين إلى أنَّه في القرون

1: الشهاب محمود، أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي (ت 725هـ)، (1897م)، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، مطبعة أمين هندية، القاهرة، ص65.

2: القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، ص309.

3: هلال، محمَّد غنيمي، (1997م)، **النقد الأدبي الحديث**، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، القاهرة، ص185.

4: القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، ص319.

5: ابن الأثير، ضياء الدِّين ابو الفتح نصر الله بن محمَّد الجزري، (ت 637هـ)، (1998م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر**، تحقيق: كامل محمَّد محمَّد عويضه، دار الكتب العلمية- بيروت، ج2، ص258، 259.

6: ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر ونقده**، ج1، ص239.

7: القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، ص285.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتزامنة مع الحروب الصليبيّة شاع ظهور الخاتمة بين الشُّعراء بتفاوت في دواوينهم[1].

ولعلَّ اقتصار الباحث دراسته على الشِّعر في كتاب (فوات الوفيات) لم يوفِّر النماذج الكاملة الكثيرة من القصائد لدراستها، ولذلك وقع اختياري على ثلاث قصائد في موضوعات مختلفة لدراستها ممَّا عثر عليه في الكتاب، الأولى في غرض المدح للشَّاعر راجح الحلي، والثانية قصيدة جهاديّة للشَّاعر الشهاب محمود الحلبي، والأخيرة إخوانية للشَّاعر الشهاب محمود بعث بها إلى أحد أصدقائه.

أمَّا قصيدة المدح للشَّاعر راجح الحلي، فقد قالها يمدح فيها الملك الظَّاهر غازي، والقصيدة جاءت في اثنين وخمسين بيتاً، ومطلعها[2]:

صاحَ قَدْ أسْفَرَ الصَّبَاحُ المُنِيرُ وَتَغَنَّتْ على الغُصونِ الطُّيُورُ

ويمكن القول: إنَّ الحلي في قصيدته قد وافق رأي ابن رشيق حين قال: "سبيل الشَّاعر إذا مدح ملكاً أن يسلك طريق الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح[3]".

والقصيدة تقوم على التكثُّر في المبنى والعلاقة الشكليّة، إذْ جاءت على النَّحو الآتي:

1- من البيت الأول حتى البيت السادس، مقدِّمة في وصف الطبيعة.

2- من البيت السابع حتى البيت العشرين، الحديث عن مجلس لهو ومجون وتصويره، وتصوير الخمرة التي أطال في وصفها، وسبب شربها، وبعض الأحداث التي تتمّ في حانات الخمرة، والحديث عن السُّقاة والولدان.

3- البيت الثامن والعشرون والتاسع والعشرون، تخلص فيهما من وصف الخمرة إلى المدح.

4- من البيت الثلاثين وحتى السادس والأربعين، مدح الملك الظاهر غازي.

1: العطوي، مسعد بن عيد، (1995م)، **الاتجاهات الفنية إبان الحروب الصليبية**، الطبعة الأولى، مكتبة التوبة- الرياض، ص459.

2: راجح الحلي، **ديوان راجح الحلي**، ص403؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص9.

3: ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر ونقده**، ج2، ص128.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

5- البيت السابع والأربعون والثامن والأربعون، في الشَّكوى.

6- البيتان الأخيران من القصيدة، يدعو فيهما للمدوح، ويشكِّلان خاتمة القصيدة.

والشَّاعر بدأ قصيدته بمقدِّمة في وصف فصل الرَّبيع، فراح يتغنَّى بالمشاهد الربيعيّة جاعلاً منها استهلالاً لقصيدته المدحيّة، يقول:

صاحِ قَد أسفَرَ الـصَّباحُ المنيـرُ وتَغنَّت على الغصونِ الطُّيورُ
وأعـادَ النَّـسيمُ أنفـاسَ روضٍ كسدَ المسكُ عنـدهُ والعَبِيـرُ
وبرودُ الربيعِ تـضفو فتـصفو غُدُرٌ فـي خلالِهـا ونُهـورُ
وعلى الأرضِ للريـاضِ سـماءٌ مثلَ زُهرِ النُّجومِ فيها الزُّهورُ
وكـأنَّ الغَمـامَ والبـرقَ نَقْـعٌ شُهِرَتَ فيهِ مرهفـاتُ ذكـورُ
أو ستورٌ تُرخى على الأرضِ دُكنٌ كتبتْ بالنضار فيهـا سُـطورُ

ثمَّ يتخلص الشَّاعر من هذه المقدِّمة الطبيعيّة لوصف مجلس اللَّهـو تخلُّـصاً رشيقاً، إذْ جعل هذا الزَّمن فصل الربيع الجميل سبباً لإجابته لداعي الـصبوح، ثـمَّ يسهب الشَّاعر في الحديث عن الخمرة ومجلسها، يقول[1]:

زَمَـنٌ صَـحَّ للنَّـديمِ سُـرُورٌ فِيهِ واعْتَـلَّ للنَّـسيم مُـرُورُ
فأجبْ دَاعي الصبوحِ فَديكُ الـ ـصبُّحِ يَدْعُو إليهِ والعصْفُورُ
وشموسُ المُدامِ في شهبِ الكـا ساتِ يَسْعَى بِهَا عَلَيْنَا بُـدُورُ
كلُّ بَـدْرٍ سَـمُاؤُهُ مِـن قِبـاءٍ وَعليهِ مِـن فَرْعِـهِ دَيْجُـورُ
رشـأ للعيـونِ منْـهُ نَعـيمٌ حِينَ يَبـدُو وللقُلُـوبِ سَـعِيرُ
حاكمٌ جائرُ الكُؤُوسِ عـسوفٌ مُستطيلٌ عَلى النَّـدَامَى أمِيـرُ
جَاءَنَا بالكبـارِ منهـا ونَـادى إنَّما يشربُ الصِّغارَ الـصغيرُ
فَتناوَلـتُ مِـنْ يَدَيْـهِ عِقَـاراً تتركُ الهمَّ وَهْوَ منْهَـا عَقِيـرُ
بنتُ دنّ شَمْطاء من عهدِ عِيْسَى أُودِعتَهـا كَنَـائسٌ وديـورُ
أكلَ الدَّهْرُ مَـا تَكـاثفَ منْهَـا فَهِي فِي لُطْفِهَا تَكَـادُ تَطِيـرُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص9.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتجري الأبيات على هذا النَّسق في الحديث عن الخمرة ومزاياهـــا، وســبب قبول الشَّاعر لدعوة منادي الصبوح، ثمَّ يتخلَّص من هذا الحديث المسهب عن مجلس اللَّهو والخمرة للمدح ببيتين متلطِّفاً في الانتقال، بقرينة لفظيّة دون أن يُشعر القــارئ بهذا الانتقال لشدّة الممازجة والالتئام، يقول:

وإذا أرهقَ الزَّمــانُ بـــــــــنيهِ وغَدَا الخَطْبُ وهو صَعْبٌ عَسيرُ
فبغازي ابن يوسف الملــك الظــا هرُ من جورِ صــرفِهِ أســتجيرُ

ثمَّ يمدح الشَّاعر ممدوحه بصفات تقليديّة ممَّا دأب عليه الشُّعراء، وهذا لــيس مستغرباً إذا ما علمنا أنَّ معاني المديح في هذه الحقبة لم يطرأ عليهــا جديــد، وأنَّ الشُّعراء المدَّاحين كانوا عالة على الأسلاف القدماء من الفحول، ولم يكونوا ناجحين في تقليدهم والإفادة من شكل أدائهم[1]، يقول:

ملكُ كــلُّ ربِ ملــكٍ عــظـــيمٍ خامل ذكــره لديــه حـــــقيرُ
تصدعُ المشكلات منه بـــــراي صبحه في ظلامِهــنَّ مُنِـــــيرُ
غيثٌ جدبٌ يومَ النــوالِ هـــتونُ ليثٌ حربٍ يومَ النِّــزَالِ هــصورُ
في يديهِ من باسهِ وعَطَايَـــــاه يَخافُ الرَّدَى ويُرْجَــى النُّــشُورُ
وَذُو أناة تخــفُ منهــا الرَّوَاسِــي وهباتٌ تقلّ عَنها البُحُـــــورُ
ولهُ الهمــةُ التَّــي كــل صــعبٍ وعـــسيرٍ صعب لديــهِ يَــسِيرُ
وكأنَّ العُلا يَنُــوءُ بِهَــا مِـــــنْهُ شـــمام ويـــستقل ثـــــبيرُ

وإيذاناً بنهاية القصيدة، يشكو الشَّاعر حاله المتردِّية طالباً العطاء من الممــدوح مختتماً القصيدة بالدُّعاء له، لتتوقَّف حركتها عند هذا الدعاء، ليستقرّ معناه في نفــس القارئ فلا تتطلَّع إلى المزيد، يقول:

يَا غيَّاثَ الدِّين الــذي بنـــــداهِ عادَ عُودي اليبيس وهوَ نَضِــيرُ
وبنعماه فكنــى مــن زمـــــانٍ كنـــتَ فِي كَـــفِّهَ أسيراً أسِيرُ
قد تحلَّى الرَّبيعُ يَجْلُــو رُبُـــوعاً راقَ مَنظـــومُهنَّ والمَـــنْثُورُ

1: بكري، شيخ أمين، (1972م)، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، دار الآفاق الجديدة- بيروت، الطبعة الأولى، ص96.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فـــي جنـــانٍ كـــأنَّهنَ جـــــنانٌ كلُّ طـــرفٍ بِمَـــا لَدَيْـــهِ قَرِيـــرُ
فتمتَّع بطيبِ أيَّامـــكَ الغُـــرَّ فَـــلا شَـــــابَ صَـــــــفْوُهَا تَكْـــــدِيرُ
وابقَ ما روق الغمـــام غَواديـــــه ومَـــــــا رَاقَ لحَمَـــــامٍ هَـــــدِيرُ

وثمّة نمط آخر من القصائد يلج فيه الشُّعراء إلى الموضوع ولوجاً مباشـــراً، حيث تكون القصيدة ذات موضوع ومغزى واحد، وينسحب عليهـــا اتجـــاه عـــاطفي واحد، وغالباً ما يكون ذلك في قصائد الجهاد والاخوانيات[1]، وتنبَّه النقَّاد قديماً لهـــذا الأمر، حيث قال أحدهم: "إنَّه يجب على الشَّاعر إذا نظم قصيدة أن ينظر، فإذا كانت مديحاً صرفاً لا يختصّ بحادث من الحوادث فهو مخيَّر في أن يفتتحها بغـــزل أو لا. أمَّا إذا كانت في فتح أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنَّه لا ينبغي الابتداء بالغزل، بل يرتجل المديح ارتجالاً من أولها؛ لأنَّ هذا يدلُّ على ضعف قريحة الشَّاعر، وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه؛ لأنَّ الأسماع تكون متطلِّعة إلى ما يقال في تلك الحوادث"[2]، كما في قصيدة الشهاب محمود الحلبي عند فـــتح قلعـــة الرُّوم سنة (691هـــ)، يمدح فيها الأشرف خليل، ومطلعها[3]:

لكَ الرَّايةُ الصَّفْراءُ يقدِمُها النَّـــصرُ فمَنْ كيقباذٌ إنْ رآها وكيخسرُو

والقصيدة ذات موضوع واحد هو تعظيم الانتصار الذي أحـــرزه المـــسلمون بقيادة السُّلطان الأشرف خليل، وذات مغزى واحد هو تمجيد القوة والإيمان، ويسري فيها شعور واحد هو الانتشاء بالظَّفر، وممَّا كفل لهذه القصيدة التَّرابط والانسجام أنَّ الشَّاعر أكثر من إيراد الصور التي تصوِّر قوة المسلمين وإقدامهم، فقد عمد لإبـــراز قوة المسلمين وأهميّة الفتح الذي تحقَّق منذ مطلع القصيدة، يقول[4]:

إذَا خَفَقَتْ فِي الأرضِ هدبُ بُنُودِها هَوَى الشِّرْكُ واسْتَعْلَى الهُدَى وانْجَلَى الثَّغْـــرُ
وإنْ نشرت مِثلَ الأصَائل في وغىً جَلا النَّقْعَ مِـــن لألاءِ طَلْعَتِهَـــا البَـــــدْرُ

1: الرقب، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس**، ص311.
2: ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر**، ج3، ص96، 97.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص414.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص414.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنْ يَمَّمْتَ زِرقَ العِدا سَارَ تَحْتَــها كَتَائِبُ خُضْرٍ تحتَها البِيضُ والسمـــــرُ
كأنّ مثارَ النّقع ليلٌ؛ وخفقـــــــها بروقٌ، وأنْتَ البَدْرُ، والفُلكُ البَحْـــــــرُ
لهَا كلّ يــومٍ أيْــنَ سَــارَ لواؤهــا هديّــةُ تأيـــــيدٍ يُقَدِّمـــــها الدَّهـــرُ

ومن الأساليب التي توسَّل بها الشَّاعر لتحقيق الوحدة في قصيدته؛ الاسترســال في الوصف، واستقصاء عناصر الصُّورة الموصوفة، كما في الأبيات التاليّــة التــي وصف فيها منعة قلعة الرُّوم، حتَّى كدنا لا نفرِّق بين شهاب الدِّين الشَّاعر، وشــهاب الدِّين النَّاثر؛ لمقاربة هذا الوصف للواقع، يقول[1]:

وما قلعةُ الرُّوم التي حُزْتَ فَتْحَــها وإنْ عظُمَتْ إلاّ إلى غيرها جــسرُ
مُحجّبــةٌ بــين الجبــالِ كأنهــا إذا ما تبدّتْ في ضــمائِرِها ســرُ
تفاوتَ وصــفاها فَلِلْحــوتِ فِيهُمَــا مَجــالٌ وللنّــسرينِ بَيْنَهُمَــا وَكْــرُ
فبعضٌ رَسَا حتَّى جَرَى الماءُ فَوْقَــهُ وبعضٌ سَمَا حتَّى هَمَى دُونه القَطْرُ
يحيطُ بِهــا نَهْــرَانِ تَبْــرزُ فيهُمَــا كمَا لاحَ يَوْماً في قَلائِــدِه النَّحْــرُ
تخاضُ متونُ السُّحبِ فيهــا كأنَّهــا إذا ما اسْتَدَارَتْ حَولَ أبْرَاجها نَهرُ
على هُضُبٍ صمٍّ يكلّم صَخْرها الــ ــحديدَ وفيها عــن إجابتَــهَ وَقْــرُ
لهَا طرقٌ كــالوَهْمِ أعْيَــا سُــلُوكِهِ على الفكرِ حتَّى ما يُخيّلُهُ الفِــكْرُ

وتخلُّصا من تلك النَّزعة النَّثريّة التي سيطرت على الشَّاعر وهو يصف قلعة الرُّوم، فإنَّه يعمد في وصف قوة جيش المسلمين إلى التــصوير الفنــي، مــستوحياً صوره في وصفه له من الطبيعة، وتتابعت هذه الصور في سياق فني جميل يطبــع في النَّفس تأثيراً واحداً يشي بالقوَّة والجمال معاً، يقول:

فصبّحتُها بالجيشِ كــالرّوضِ بهجــةً صَوَارِمُه أنْهَارُهُ والقَنَــــا الزُهْــرُ
وأبدعت بل كالبَحْرِ والبِيضُ مَوجُــهُ وُجْرُدُ المذاكي السُّفنُ والخوذُ الدرُ
وأغربتَ بلْ كاللَّيلِ، عــوجُ سُــيُوفِهِ أهلتــهُ، والنّبْــلُ أنجمُــهُ الزَّهْــرُ
وأخطأتُ لا بــلْ كالنّهــارِ فشمــسهُ جيوشُكَ، والآصالُ رَايَاتُكَ الــصفرُ
ليوثٌ من الأتــراكِ آجَامُهــا القَنَــا لَهَا كلَّ يومٍ في ذَرَى ظفــرٍ ظُفْــرُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**،ج1، ص414.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَلا الرِّيحُ تَسْرِي بَيْـنَهم لاشتباكـــا عليهم ولا ينهِلُ من فَوْقِهم قَطْـــرُ
يَرَى المَوتَ مَعْقُوداً بهدبِ نِبَالـــهِمْ إذا ما رَمَاها القَوْسُ والنظرُ الشزرُ
ففي كلّ سرجٍ غُصْنُ بـانٍ مهفهـف وفي كلِّ قوسٍ مَدَّ ساعـــدَهُ بَـدْرُ
إذا صدمُوا صُمَّ الجبالِ تَزَلْزَلَـــتْ وأصبحَ سهلاً تَحتَ خَيلِهِم الوعـرُ
ولو وردَتْ ماءَ الفراتِ خُيولُهُـــمْ لَقِيلَ هُنا قَدْ كانَ فِيما مَضَى نَهْـرُ

وتشكِّل الخاتمة عند الشَّاعر خلاصة القول، مُشعراً القارئ أنَّه لا مزيد، مـن خلال بيان أهميّة الفتح الذي تحقَّق على يد الأشرف خليل، يقول[1]:

غَدَتْ بِشِعَارِ الأشرف الملكِ الـذي لَهُ الأرضُ دارٌ وهي من حُسنِها قصرُ
وأضحتْ بِحمـدِ اللهِ ثَغْـرَاً مُمَنّعـاً تبيدُ اللّيالي والعِـــدَا وَهْـوَ مُفتـرٌ
وكانَتْ قذىً في ناظرِ الدِّينِ فانْجَلى وَذُخْرَاً لأهلِ الشِّرْكِ فانْعَـكَسَ الأمْرُ

وقد تحمل قصيدة الاخوانيات موضوعات شكليّة متنوِّعة، كما فـي قـصيدة الشهاب محمود التي بعث بها من الدِّيار المصريّة لصديقه تقي الـدِّين ابـن تمَّـام الحنبلي في جبل الصالحيّة، ومطلعها[2]:

هَلْ عِنْدَ مَنْ عِندهم بُرْئِي وأسْقَامِي علمٌ بأنَّ نَواهُم أصلُ آلامِـي

وقصيدة الشهاب هذه لم تكن قالباً جامداً دون روح، وإنَّما أفاض عليها من نفسه، ولونها بمشاعره وانفعالاته، "فإذا ضرب من العاطفة يذيع في القصيدة كلّها، ويبـدو في مقدِّمتها وموضوعها، ويغلب على بقية أجزائها"[3]، ويحقِّق لها ضرباً من الوحـدة والانسجام. فالشَّاعر بدأ قصيدته بمقدِّمة غزليّة صوّر من خلالها الألم الـذي يعانيـه من بعد صديقه عنه، يقول[4]:

وأنَّ قلبيَ وجِفْنِـي بَعـدَ بُعدهـمُ ذَا دائمٌ وجدُهُ فِيهم وذَا دَامِـي
بَانُوا فَبـانَ رُقَـادي يـومَ بينـهمُ فلستُ أطمعُ من طيفٍ بإلمـامِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص415.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص161.
3: عطوان، حسين، (1987م)، **مقالات في الشعر ونقده**، دار الجيل- بيروت، ص11.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص161.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كتمتُ شأنَ الهَوَى يومَ النَّــوَى فَنَمَــا بِسرِّهِ مِن جُفُونِي أيّ نمـــــامِ
كانت ليــالِيَّ بِيــضَــاً فــي دُنُــوهُم فَلا تَسلْ بَعدهمْ عَن حالِ أيَّامِي
ضنيتُ وَجْداً بِهم والنَّاس تَحسبُ بِــي سَقَماً فأبهمْ حَالي عنــدَ لِــوَّامِي

ثمَّ يتخلَّص الشَّاعر من الغزل بثلاثة أبيات تخلُّصاً رشــيقاً بحيــث لا يــشعر السَّامع إلاَّ وقد دلف من المعنى الأول إلى الثاني، يقول[1]:

وليسَ أصلُ ضنَى جِسمِي النَّحِيلُ سِوَى فَرطَ اشتِياقِي إلى لُقْيَا ابن تـــمَّامِ
مولىً متى أخــلُ مــن بــرؤٍ برؤيتِــهِ خَلــوْتُ منــهُ بأشــجانٍ وأســقامِ
نَـــأى وهـــدي أحـــبُّ إلـــى قَلبِي مِنَ الماءِ عندَ الحَائمِ الظامِي

ويعاتب الشَّاعر صديقه عتاباً ممزوجاً بالألم والحسرة، وممَّا زاد في حزنــه وألمه أنَّه لم يكن يتوقَّع أنْ لا يسأل عنه صديقه المقرَّب الذي يراه في منامه بعــد أن استحالت رؤيته الحقيقيّة، يقول[2]:

وصَدَّ عَنِّي ولمْ يَسألْ بِجفوتِــهِ عن هائمٍ دمعُــهُ مــن بعــدهِ هَــامِي
يَا ليتَ شِعرِي ألم يبلغُه أنَّ لَــهُ أخَاً بمصرَ ضَعيفَ الجِسمِ مُــذْ عَــامِ
ما كانَ ظنِّيَ هذا فــي مَودَّتِــهِ ولا الحديث كذا عــن ســاكنِ الــشَّامِ
يَا غائباً، داره قلبي ولو هجعتُ عيني لأدنتَه منِّــي رُسْــلُ أحْلامِــي

وجرى الشَّاعر في حديثه عن همومه وأمنياته على هذا النَّحو إلى أن اقتــرب من النِّهاية التي طلب فيها الدُّعاء من صديقه المرسل إليه، كما دعا فيها بأن يجمعــه به، كما ضمَّنها سلامه وتحيَّاته، عندها يشعر القارئ أنَّ القــصيدة أوشــكت علــى نهايتها، وأنَّها لهذا الحدّ ولا يمكن تجاوزه، يقول[3]:

فاذكُرْ أخاكَ بظهرِ الغيبِ وادعُ لَــهُ فأنتَ في نفــسهِ مــن خيــرِ أقْــوَامِ
لعلَّ يَجمعُنــا فــي دارِ رحمــــتِهِ من عَفُوهُ فوقَ إســرَافِي وإجْرَامِــي
عليكَ منِّي سلامُ اللهِ ما ابْتَــسَــمتْ أزَاهِرُ الرَّوْضِ مِن دَمعِ الحيا الهامي

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص161.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص161.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص162.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويوجد في كتاب (فوات الوفيات) كثيرٍ من المقطوعات الشِّعرية، بعضها مقطوعات أصليّة، وبعضها اختارها المؤلِّف من قصائد كاملة، ولعلَّ كثرة هذه المقطوعات تعود إلى أنَّ الشِّعر صار يعالج موضوعات حياتيّة يوميّة، فيرتجل الشَّاعر أبياتاً ارتجالاً، ونجد أحد الدّارسين يعزو كثرة هذه المقطوعات إلى المقاييس الأدبيّة التي اتَّسمت بالشكليّة والاهتمام بظاهر النظم[1]، والمقطوعات التي جاءت في صورتها الأصليّة، تمتاز بالتَّماسك الفنيّ وتنبثق عن انفعال آني، يثور في نفس الشَّاعر في موقف معيَّن، فتجيش نفسه، ولا ريب أنَّ هذه اللَّقطات كانت تلقى رواجاً لدى العامّة لما تتميَّز به من خفّة ارتجاليّة، وسرعة خاطر[2].

وتأتي هذه المقطوعات من حيث عدد الأبيات في نوعين: الأول؛ تتألَّف فيه المقطوعة من بيتين لا يمكن الفصل بينهما، وتكون الفكرة والمعنى تامين، ولا يمكن تطويره أو تجاوزه بزيادة بيت أو أكثر، أمَّا الثاني فيتألَّف من أكثر من بيتين مشكِّلاً فكرة ما تتطوَّر إلى أن تصل لنهايتها في ثلاثة أبيات أو أكثر[3].

ومن المقطوعات التي جاءت في بيتين فقط، قول ابن المسجف (ت 635هـ) متحدثّاً عن بعض أحداث عصره[4]:

ثلاثــــةُ أشــــياءٍ تُقلــــنَ بِجــــــلّقِ على كلِّ قلــبٍ بالــدليلِ المحقَّــقِ
تَزهدُ قاضينا الخويّي وطرحةُ الـــــ شهابِ وإسلامُ الحـــــــكيمِ الموفّقِ

وكما في قول سيف الدِّين السامري (ت696هـ) حين سافر مع وجيه الدِّين ابن سويد إلى الموصل، فحضر المكّاسة فعفوا عن جمال الوجيه، ومكسوا جمال السَّامريّ وأجحفوا به، فقال[5]:

صحبتُ وجيَهَ الدِّينِ في الدَّهرِ مرةً ليحمــلَ أثقــالَي ويخفُــر أحمــالِي

1: الهيب، **الحركة الشعرية زمن المماليك**، ص409.

2: أمين، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، ص451.

3: الرقب، شفيق، (1998م)، "شعر الهجاء في بلاد الشَّام زمن الحروب الصليبية"، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، عدد55، ص107.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص284.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص135.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فوزّنني عن كــلِّ حَــقٍ وبـــــاطلٍ وعن فرسِي والبغلِ والجملِ الخـــالِي

أمَّا المقطوعات التي جاءت في ثلاثة أبيات أو أكثر، فهذه أكثر عدداً من المقطوعات التي جاءت في بيتين فقط، ومن هذه في كتاب (فوات الوفيات)، أبيات لعرقلة الكلبي، متغزّلاً، شاكياً من حاله مع الهوى، بعبارات رقيقة، لا تعقيد فيها، معبِّراً عن حالته النفسيّة[1]:

كَتَمَ الهَوى فوَشَت عَلَيهِ دُموعُهُ مِن حَرِّ جَمرٍ تَحتَويهِ ضُــلوعُهُ
صَبٌّ تَشاغَلَ بِالرَبيعِ وزَهــرُهُ قَومٌ وَفي وَجهِ الحَبيــبِ رَبيعُــهُ
يَا لائمي فيمَن تَمَنَّــعَ وَصــلُهُ عَن بُغيَتي أَحلى الهوى مَمنوعُهُ
كَيفَ التَخَلُّصُ إِن تَجَنّى أَو جَنى وَالحُسنُ شَيءٌ ما يُــرَدُّ شَــفيعُهُ
شَمسٌ وَلَكِن في فُؤادي حَرُّهــا بَدرٌ وَلَكِن في القَبــاءِ طُلوعُــهُ
قالَ العَواذِلُ ما الَّذي اِستَحسَنَتهُ فيهِ وَما يَــسبيكَ قُلــتُ جَميعُــهُ

فالمقطوعة منذ بدايتها تجري إلى مستقرٍّ لها يتمثَّل في البيت الأخير، لذا صاغها الشَّاعر بطريقة حواريّة بسيطة تتدرَّج لتصل إلى نهايتها المقرَّرة فإذا انتهى القارئ من قراءتها شعر بأنَّ حركتها قد توقَّفت من ناحية، وأعجب بما فيها من تلطّف أسلوبي من ناحية ثانية.

وقد تكتفي المقطوعة بالإشارة إلى المعنى دون ذكره، ممَّا يترك في نفس المتلقِّي أثراً مسترسلاً، كما في قول ابن المسجف يخاطب الملك العادل، وقد أمر بنزح الماء من الخندق لأجل عمارة البرج ملوِّحاً إلى عدم أمانة القاضي[2]:

أرِحْ من نزحِ ماءِ البرجِ قوماً فَقد أفْضَى إلى تعبٍ وعِــيّ
مُرِ القاضِي بوضعِ يديهِ فيــهِ وقد أضحى كَرَأسِ الدولعِيّ

وتمتاز هذه المقطوعات بالإيجاز والتكثيف، ممَّا يمنحها حدّة لاذعة خاصة المقطوعات الهجائيّة، كما في قول سيف الدِّين السَّامري (ت696هـ) غاضباً من أهل دمشق[3]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص314؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص58، 59.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص285.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص135.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبَّحَ اللهُ كلَّ مَن بِدمــشقٍ من أصيحابنا سِوَى ابن سَعيدِ
فهْوَ معْ شُحّهِ وما يتعاطا ه من اللُّؤمِ أصلحُ الموجــودِ

ويصوَّر شهاب الدِّين ابن غانم (ت737هـ) حاله لقاضي القضاة جمال الدِّين ابن واصل، وقد أقعده عاقداً بحماة في مكتب فيه السَّيف ابن المغيزل من خلال أبيات ثلاثة[1]:

مولايَ قاضِي القُضَاةِ يَا مَنْ لهُ على العَبدِ ألــف منَّــهْ
إليكَ أشْــكُو قَــرِينَ سُــوءٍ بليتُ مِنْهُ بِــألفِ محنــهْ
شــــهرته بيننـــــا اعتـــداء أغمِدهُ فالسيفُ سيفُ فتنهْ

وتحمل بعض هذه المقطوعات روح فكاهيّة، فتبدو كنكتة بسيطة يلقيها الشَّاعر على مستمعيه، كقول ابن المسجف فيمن لقبه "بدر الدِّين" [2]:

قالُوا تَلَقَّبْ بَدْرَ الدِّينِ مُفتَخِــراً نجلُ الجنوبي من قَدْ زيَّن الأُمنَا
فقلتُ لا تَعْجَبُوا مِنْهُ فَــذَا لَقَــبٌ وَقفَ على كلِّ نحسٍ والدَّلِيل أنَا

وقد تنتهي المقطوعة بنكتة، فترسم على وجه المتلقِّي ابتسامة خفيفة، كما في قول الشَّاعر المعمار (ت 749هـ)[3]:

لَجَّ العَذُولُ ولامَنِــي فِــيمَنْ أحــبُّ وعنّفَــا
فَهَمْتُ ألطُم رأســهِ ممـــــّا ملئــتُ تأسّــفَا
لكنَّها زلقــتْ يَــدِي وَقعتْ عَلى أصلِ القَفَــا

وتبدو في المقطوعات الغزلية، صدق العاطفة، وتدفُّق المشاعر والأحاسيس، كما في قول البديع الدمشقي، يشكو مرارة الهوى، داعياً على عاذليه[4]:

هكذا في حــبِكم أســتوجبُ كبدٌ حَــرى وقلــبٌ يجــبُ
وجَزَا من ســهِرتْ أجْفَانُــهُ حجَّةٌ تَمْضِي وأخْرَى تعقبُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص130.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص285.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص52.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص132.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زَفَرَاتٌ فِي الحَشَا محرقــةٌ وجفــونٌ دَمْعهــا يَنْــسِكَبُ
قاتلَ اللهُ عــذُولِي مــا درَى أنَ في الأعْيُنِ أسَــداً تثِــبُ
لا أرَى لِي عَن حبيبِي سَلْوَةً فدعُونِي وغَرامِي واذْهبُــوا

وقد تأتي بعض هذه المقطوعات نظماً لحديث نبوي شريف، كما في مقطوعة لأبي شامة، التي ضمَّنها حديث الرَّسول **r** السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه[1]:

إمامٌ مُحِبٌ نَاشِــئٌ مُتَــصَدّقٌ وباكٍ مُصَلٍّ خَائِفٌ سَــطْوَةَ البَــاسِ
يَظِلُّهــمُ اللهُ الجَلِيــلُ بِظِلِّــهِ إذا كانَ يومَ العَرْضِ لا ظلَّ للنَّاسِ
أشَرْتُ بألفَاظٍ تَــدُلُّ عَلَــيهِمْ فيذكرهم بالنَّظْمِ من بعضِهِم نَاسِي

وكثرت المقطوعات التي نظمت ألغازاً، منها ما كان في بيتين أو أكثر، من هذه الألغاز التي جاءت في بيتين، قول ابن نفاذة (ت 601هـ) ملغزاً في محبوب له يُدعى "يوسف"[2]:

يَا سَائِلِي ما اسمُ الَّذِي أحْبَبْتَــهُ إنِّي بِسرِّ هَوَاهُ غَيْرَ مُــصَرِّحِ
لكن إذا فكــرت فيــه وجدتــه معكوسَ سابعِ لفظةٍ في سبــحِ

وصوَّر أصحاب المقطوعات مشاهد يوميّة طارئة تحدث أمامهم، ملتقطين صورهم ممَّا يحيط بهم، بلا جهدٍ يبذل كالقصائد، بل أنَّ هذه المشاهد لا تستدعي قصيدة طويلة، كما في قول الرَّشيد النابلسي، وقد رأى مليحاً بديع الصُّورة بين أسودين قبيحي الصُّورة [3]:

للهِ من عاينتْ عينَــي مَحَاسِــنَهُ يَوْماً فعوذتــه بــالله مــن عينِــي
يختالُ كالغُصنِ تيهاً فِي شَمَائلِهِ مَا بَينَ عَبدينِ لَون اللَّيــلِ علجــينِ
فقلتُ والشَّوقُ يَطْوِينِي ويَنْشُرُنِي لَمْ ألقَ قَبلــكَ صُــبْحَاً بَــيْنَ لَيْلَــيْنِ
قَمَرٌ يضحَكُ من قولِي وقالَ بَلَى كمْ قد رأى النَّاسُ سَعداً بين نحسينِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص271.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص84.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص275.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2.3 لوب واللُّغة:

تحدَّث النقَّاد القدماء عن أساليب الشُّعراء ولغتهم، وبيّنوا ما ينبغي على الشَّاعر القيام به، فالجرجاني، يقول: "ولا آمرك بإجراء الشِّعر كله مجرى واحداً ولا أن تذهب بجميعه مذاهب بعضه، بل أرى أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك، بل ترتب كلا مرتبته وتوفِّيه حقّه فتلطف إذا تغزلت وتفخم إذا افتخرت"[1]، أمَّا القرطاجني فحدَّد كيف يجب أن يكون النَّسيب، فقال: "فأمَّا النَّسيب فيحتاج أن يكون مستعذب الألفاظ حسن السَّبك، حلو المعاني، لطيف المنازل غير متوعر"[2]، ونجد ابن خلدون يجعل لكلِّ كلام أسلوبه، فقال: "لكلِّ من الكلام أساليب تختصُّ به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة"[3]. أمَّا من المحدثين، فقد قال أحمد الشايب: "إنَّ مواقف الحروب تنتج أسلوباً ذا ألفاظاً جزلة والأشواق تنشئ أسلوباً ذا ألفاظاً عذبة رقيقة"[4].

وقسَّم الدَّارسون هذا الشِّعر تبعاً لاتجاهاته أقساماً، فقد قسَّم محمَّد كامل حسين مدارس الشِّعر في العصر الأيوبي إلى مدرسة شعراء العقائد، ومدرسة الرّقة والسُّهولة، ومدرسة الشُّعراء الكتاب[5]، كما قسَّم أيضاً محمَّد زغلول سلام شعراء العصر الأيوبي إلى شعراء تقليديين، وشعراء بديعيين، وشعراء جمعوا بين المذهبين[6]، في حين قسَّم شعراء العصر المملوكي إلى ثلاثة أقسام: شعراء الاتجاه

---

1 الجرجاني، (1945م)، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق: محمَّد أبي الفضل إبراهيم، علي محمَّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباني الحلبي- القاهرة، ص23.

2: القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، ص351.

3: ابن خلدون، ولي الدِّين عبد الرَّحمن بن محمَّد الحضرمي، (ت 808هـ)، (2005م)، **المقدِّمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب- الدار البيضاء، ص570.

4: الشايب، أحمد، (1976م)، **الأسلوب**، دراسة بلاغية تحليلة لأصول الأساليب الأدبية، الطبعة السادسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص76.

5: حسين، **دراسات في الشعر في العصر الأيوبي**، ص185 وما بعدها.

6: سلام، **الأدب في العصر الأيوبي**، ص249 وما بعدها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البديعي، والاتجاه التقليدي، والاتجاه الشعبي[1]، وقسَّم شفيق الرقب أساليب الشِّعر في القرن السادس تقسيماً قريباً من التقسيم السَّابق حين قسمه إلى: أسلوب تقليدي، وأسلوب شعبي، وأسلوب زخرفي[2]، وتوسَّع باحث آخر في تقسيمه للاتجاهات الأسلوبيّة للشُّعراء حين قسَّمهم إلى أربعة أقسام هي: شعراء البديع، شعراء السُّهولة والطَّبع، وشعراء الفخامة والجزالة، والشُّعراء الكتَّاب[3].

وكان من الطبيعي أن يتلوَّن كتاب (فوات الوفيات) بأساليب شعريّة متعدِّدة؛ لأنَّه حوى موضوعات شعرية كثيرة، وشعراء أكثر، عدا عن تضمُّنه لشعراء في فترات زمنية مختلفة، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّه لا يوجد شاعر انفرد باتجاه معيَّن وسار عليه دون الاقتراب من الاتجاهات الأخرى، ولكن طبيعة الغرض الشِّعري تتحكَّم بهذا الأمر، على أنَّ هناك شعراء غلب عليهم اتجاه دون الآخر، وأكثروا من النَّظم فيه، حتى غدا الشَّاعر يعرف به، مع اعتماده على الأساليب الأخرى.

ويمكن لغايات الدِّراسة تقسيم الاتجاهات الأسلوبية للشِّعر في كتاب (فوات الوفيات) إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: الأسلوب التقليدي، والأسلوب الشعبي، والأسلوب البديعي.

1.2.3 الأسلوب التقليديّ:

ويمثِّل هذا الأسلوب الشُّعراء الذين نهجوا نهج الأوائل في بناء القصائد والشكل الفني في جلِّ أشعارهم[4]، ولاسيّما في قصائد المدح، وبعض القصائد الجهاديّة، والمدائح النبويّة، وتمتاز هذه الطريقة من حيث الشّكل، باستهلال القصيدة بالوقوف على الأطلال، أو النَّسيب، ووصف الحبيبة الرَّاحلة، والتغنِّي بالجمال

1: سلام، محمَّد زغول، **الأدب في العصر المملوكي**، ص 121.

2: الرقب، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص339 وما بعدها.

3: أبو الخير، محمود عبدالله، (2003م)، **الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين**، دار الإسراء، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ص6.

4: العطوي، **الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية**، ص236.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البدوي، ووصف الرِّحلة للمدوح، وذكر بعض معالم الجزيرة العربيّة، وتصوير بعض المعالم الصحراويّة[1].

ومن شعراء هذا الاتجاه الشهاب العزازي الذي نجتزئ له المقدِّمة الغزليّة التالية التي قالها في مطلع قصيدة يمدح فيها رسول الله **r**[2]:

دَمِي بِـأَطْلالٍ ذَاتِ الخَـالِ مَطلـولُ وجيشُ صَبْرِي مَهْزُومٌ وَمَفْلُـولُ
وَمَنْ يُلاقِ العُيـونَ الفَاتِكـاتِ بِـلا صَبْرٍ يُدافِعُ عَنْـهُ فَهْـوَ مَخْـذُولُ
لَمْ يَدْرِ مَنْ سَـلَبَ العُـشَّاقَ أَنْفـسهم بأَنَّه عـن دمِ العـشّاقِ مـسئولُ
وبِي أغنّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مُعْتَـدِلُ القَوامِ لدنُ مَهزِّ العَطْفِ مَجْـدُولُ
كأَنَّـــه فِـــي تثنّيـــهِ وخطرتِـــهِ غصنٌ مِنَ البَانِ مَطْلُولٌ وَمَشْمُولُ
ســـلافةٌ مِنْـــهُ تـــسبيني وسَـــالِفَةٌ وعَاسل منه يُـصبُيني وَمَعْـسُولُ
وكلّمـــا مرضـــتْ أجْفَـــانُ مُقْلَتـــهِ يصحُّ إلاّ غَرَامِي فَهْـوَ مَنْحُـولُ
يَا بَرقُ كَيفَ الثَّنَايا الغرُّ مـن إضـمٍ يَا بَرْقُ أَمْ كيفَ لِي مِنْهُنَّ تَقْبِيـلُ

ويذكر الشيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد (ت 702هـ)، بعض المعالم المعروفة في الجزيرة العربيّة، وقد وقع على شيء من الجناس الذي أضفى على أبياتـه موسـيقا شعريّة تطرب لها الأسماع، وتشتدّ لها العقول[3]:

يَا سَايِراً نَحْـوَ الحِجَـازِ مُـشَمِّرَاً اجْهَدْ فَدَيْتُك فِي المَسير وَفِي السُّرى
وإذَا سَهِرْتَ اللَّيلَ فِي طَلَبِ العُـلا فَحذارِ ثُمَّ حَذَارِ من خُـدْعِ الكَـرَى
فالقصْدُ حَيْثُ النورُ يُشرقُ سَـاطِعاً والطرفُ حَيْثُ تَرَى الثَّرى مُتَعطرا
قفْ بِالمَنَازِلِ والمَناهلِ مـن لـدُنْ وادي قِباءَ إِلَـى حِمـى أمّ القُـرَى

ومدح ابن الحلاوي الشَّاعر (ت 656هـ) الملك النَّاصر داود صاحب الكـرك بقصيدة استهلَّها بمقدِّمة غزليّة، تغزَّل فيها على طريقة القدماء، منها هذه الأبيات[4]:

1: الرقب، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص339.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص95.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص444.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص146.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَحيى بِمَوعِـــدِهِ قَتيـــلَ وُعـــودِهِ رَشَأٌ يَشوبُ وِصالَهُ بِـــصُدودِهِ
قَمَرٌ يَفوقُ البَدرَ فـــي أَوصـــافِهِ وَعَلى الغَزالِ بِمُقلَتَيهِ وَجيـــدِهِ
يا لَيتَـــهُ يَعِـــدُ المَـــلالَ فَإِنَّـــهُ ما زالَ ذا لَهَجٍ بِخُلَّفِ وُعـــودِهِ
يَفتَرُّ عَن عَذبِ الرِضا بِحَياتِنـــا في وَردِهِ المَـــوتُ دونَ وُرودِهِ

ويتغنَّى كمال الدِّين ابن الزملكاني (ت727هـ)، بالجمال البدوي الأخَّاذ حين يتغزَّل بمحبوبته التي أضفى عليها من الحسن شيئاً وفيراً[1]:

لِي فِيْهُمُ قَمَرٌ فِي القَلْبِ مَنْزِلُـــهُ لكنَّ طَرْفِـــي لَـــهُ بِالبُعْـــدِ يَرْتَقِـــبُ
لَدْنَّ القوامِ رَشِيقُ القَدِّ ذُو هَيفٍ تَغَارُ مِن لِيْنِهِ الأغْصَانُ والقَـــضَبُ
حُلْوُ المقبَلِ مَعْـــسُولٌ مَرَاشِـــفه يَجُولُ فِيها رِضابُ طَعْمُهُ الضَرَبُ*
لا غرُو إنْ راحَ نشْوَاناً ففِي فَمِهَ خَمْـــرٌ ودرّ ثَنايَـــاهُ لَهَـــا حَبَـــبُ

ويتميَّز هذا الأسلوب بمظهر آخر يتمثَّل في الحرص على الألفاظ القوية، والتعابير المتينة، والنغمة الجزلة، والموسيقى المتدفِّقة، والمدوِّية أحياناً وعدم تكلُّف المحسّنات البديعيّة[2]، كما في قول الملك الأمجد بهرام شاه (ت628هـ):

أمّا هـــواكَ وإنْ تقـــادمَ عهـــدُه فشفيعُ وجهِكَ ما يزالُ يُجِـــدُّهُ
لا تحسبنَّ على التقاطعِ والنَّوَى ينساكَ مشتاقٌ تفـــاقَمَ وجـــدُهُ
يَهْوَاكَ مَا هبَّ النَّـــسِيمُ وحبّـــذا نفحُ النَّسِيمِ الحاجريَّ وبَـــرْدُه
ما كانَ يكلَفُ بالرياحِ صـــبابةً لـــولا تجنُّبـــه ولـــولا بُعـــدُه
تَسْرِي إليهِ بضوعةٍ من عِقْـــدِه انَّ المُنى فيمَا تـــضمَّنَ عِقْـــدُه

أمَّا القصائد الجهاديّة، فتتَّسم بصورة عامة، باستخدام الألفاظ الجزلة القويّة، والعبارات الفخمة الرصينة، واستحياء طرائق الأقدمين في التعبير، والابتعاد عن

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، 4، 11.

* الضرب: العسل.

2: الرقب، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، 339.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحسّنات البديعيّة، كما في قصيدة الشهاب محمود في مدح الأشرف خليل عند فتح عكا، نعرض منها الأبيات التالية[1]:

هذَا الذِي كانَتْ الآمالُ لَوْ طَلَبْـــت رُؤيَاهُ فِي النَّوم لاستحيتْ مِنَ الطَّلَـــبِ
ما بعد عكا وقد هُـــدّتْ قَوَاعِـــدُهَا فِي البَحْرِ للشركِ عِنْدَ البرِ مـــن أربِ
عقيلةٌ ذهبتْ أيْدِي الخطوبِ بِهَـــا دَهْرَاً وشدّت عَليهَا كـــفَّ مُغْتَـــصِبِ
لَمْ يَبْقَ من بعدِهَا للكفرِ مُذْ خربتْ في البرّ والبَحْرِ ما يُنْجِي سِوَى الهَرَبِ

وتستخدم الألفاظ الجزلة القويّة، والعبارات الفخمة الرَّصينة في رثاء العلماء، كما في قصيدة الشيخ صلاح الدِّين الصفدي يرثي جمال الدِّين ابن غانم، ومطلعها[2]:

تَبْكِي الطروسُ عليكَ والأقلامُ وينوحُ فيكَ على الغُصونِ حَمامُ

ومنها هذه الأبيات التي رسم فيها الشَّاعر أثر المصاب الجلل بعبارات قويّة، مبتعداً عن المحسّنات البديعية:

يَا وحشةَ الديوانِ منْك إذَا غَدَتْ فيـــهِ مُهمـــاتُ البريـــدِ تـــرامُ
من ذا يوفيها مقاصـــدَها علـــى ما يقتَضيهِ الـــنقضُ والإبـــرامُ
هيهات كنتَ له جمـــالاً بـــاهراً فعليهِ بعدكَ وحـــشةٌ وظـــلامُ
أسفي على الإنشاءِ وهو بجلَّـــقٍ نـــشاؤهُ قـــدْ مـــاتَ والنظّـــامُ
كم من كتابٍ سارَ عنـــك كأنَّـــهُ بردٌ أجـــادَ طـــرازَهُ الرقَّـــامُ
إنْ كانَ فِي شرٍّ فَقَدْ رَدَّ الـــرَّدَى وبِـــهِ ترفَّـــه ذابِـــلٌ وحُـــسَامُ

2.2.3 الأسلوب الشَّعبي:

وهو الأسلوب الذي يمثِّل حياة العامة، ويمتاز بالسهولة والوضوح، والاقتراب من اللُّغة المحكية، واستخدام اللُّغة العاميّة، والعبارات الجارحة، والإكثار من الألفاظ الأعجميّة، واستمداد الصّور والمعاني من البيئة الاجتماعية، ومخالفة القياس النَّحوي

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص411.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص207.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاشتقاق الصَّرفي أحياناً، والسَّطحيّة في الأفكار[1]، ولعلَّ من أهم أسباب شيوع هذا المذهب، تفشِّي العاميّة وتطوُّر اللُّغة عبر العصور بسبب الاحتكاك الدَّائم مع الأمم الأخرى، وسيطرة الأعاجم على دفّة الحكم، وقلّة اهتمامهم بعامة الشعراء وجهلهم اللغة العربية، الأمر الذي جعل الشُّعراء يسهلون أشعارهم، ويعودون بها إلى الشَّعب[2]، كما ساعد على انتشار هذا النَّوع من الشِّعر وجود طائفة من الشُّعراء كانوا من عامّة النَّاس، وهؤلاء الشُّعراء يصدرون في بعض أشعارهم عن الأوضاع الاجتماعية المحيطة بهم، ويتوجَّهون بهذه الأشعار إلى العامة، لتبصيرهم بهذه الأوضاع حيناً، وللتندُّر حيناً آخر[3].

وفي كتاب (فوات الوفيات)، نجد بعض الشَّواهد الشِّعريّة الدَّالة على هذا اتجاه هذا الشعر، كما في قول عرقلة الكلبي (ت 567هـ) في قوم مدحهم فأعطوه شعيراً، فنجده يردِّد بعض الكلام الذي يرد على ألسنة العامّة[4]:

يقولونَ لمْ أرخصتَ شعركَ في الــوَرَى فَقُلتُ لَهم: إِذْ مَاتَ أَهلُ المَكَارِمِ
أُجَــازُ علــى الــشِعرِ الــشَّعيرَ وإِنّــهُ كثيرٌ إذا خلَّــصته مــن بَهَــائِمِ

ولا يتقيَّد بعض أصحاب هذا الاتجاه بقواعد اللُّغة، فالشَّاعر المعمار (ت 749هـ) حذف نون (يقولون)، ولم تسبق بجازم أو ناصب[5]:

لَثَمْتُ عِذارَ مَحْبُوبِي الشَّرَابِي فقالَ: تَرَكْتَ لَثْمَ الخَدِّ عُجْبَا
حفظتُ اليانسونَ كَمَا يَقُولُــوا ورحتَ تضيّعُ الوَرْدَ المربَّى

ويتغزَّل تقي الدِّين السروجي (ت 693هـ) مستخدماً بعض الكلمات التُّركيّة، ولا ضير في ذلك، إذا علمنا أنَّ الجمال التُّركي قد نافس الجمال العربي في تلك الحقبة[6]:

1: الرقب، شفيق، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص343.
2: الهيب، **الحركة الشعرية في حلب الشهباء زمن المماليك**، ص375.
3: الرقب، شفيق، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص343.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص317؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص94.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص51.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص199.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَلِّمْ وَقُلْ يَخْشَى مُسِنٍّ كَي مُسنٍّ أشت حَـديثاً طَـالَ كتمانِـهِ
كنكلم كزم ساوم إشى أط كبـي فحبـه أنـت وأشـجانِهِ
واسألْ لِي الوَصْلَ فإن قالَ يوقَ فَقُلْ أوات قَدْ طَـالَ هُجْرَانِـهِ

ومن سمات هذا الاتجاه الحوار برشاقة وخفّة، كما في قول الشَّاعر المعمار (ت 749هـ) محاوراً أحد المرد في مهنة يعيش بها[1]:

قلتُ لَهُ هَلْ لَـكَ مِـنْ حِرْفَـةٍ تعشْ بِها بَيْنَ الوَرَى أو سَبَبْ
فقالَ: يغنينـيَ رِدْفـي الـذي أَسْمَوهُ عشاقي تليـلَ الـذهبْ

وكما في قوله شاكياً من الحبِّ وويلاته التي جرَّت عليه الألم والتَّعب[2]:

شَكَوْتُ للحبِّ مُنْتَهـى حرقـي ومَا ألاقيه مِن ضنى جَـسَدِي
قالَ: تَـدَاوَى بريقتـي سِـحْرَاً فقلتُ: يَا بَردَها عَلَـى كَبِـدِي

ويقترب ابن عنين من الكلام المتداول على ألسنة العامّة حين يندب حظه[3]:

ما عايَنَتْ عَيناي في عُطلتـي أفحش مِن حَظِّي ومن بختِـي
قَد بِعتُ عَبدي وَحِصاني وَقَدْ أَصبحتُ لا فوقي ولا تحتِـي

ويستمدّ كذلك صورته من حياته العامّة، والمشاهد التي تحدث فيها، حين دعي على عرس، فقال[4]:

دَعوتني للعـرسِ يـا سَـيِّدي فَكدْتُ أنْ أحضَرَ مـن أمـسِ
وَهَا أنـا الليلـةَ فـي دارِكـم فالكلْبُ ما يهربُ من عُـرْسِ

كما يستمد ناصر الدِّين ابن النَّقيب صوره من عمله بمهنة الجزارة، حتى كاد شعره يفقد خاصيّته الفنيّة [5]:

حَسْبِي حِرافاً بِحرفَتي حَـسْبِي أصبحتُ فيها مُعـذَّب القلـبِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص51.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص51.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص333؛ الصفدي، **المختار من شعر ابن دانيال**، ص92.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص335؛ الصفدي، **المختار من شعر ابن دانيال**، ص123.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص286.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُوَسَّخ الثَّوْبِ والــصَّحيفةِ مــن طولِ اكتسابِي ذَنْبَاً بِلا ذَنْــبِ
خَلا فُؤادي ولِــي فَــمٌ وَسِــخٌ كأنَّني فــي جزارتِــي كَلبِــي

وأسلوب آخر يمتاز بالألفاظ السَّهلة الرَّقيقة، حتى يبدو أسلوب الشَّاعر قريباً من الأساليب التي يصطنعها الشَّعب، لذلك زعم كثير من النَّقاد أنَّ هؤلاء الشُّعراء عاميون والحقيقة ليست كما يزعمون[1]، كما في قول الشَّيخ صدر الدِّين ابن الوكيل (ت716هـ)[2]:

ولَمَّا جَلا فَصْلُ الخَريفِ مَحاسَناً صفِقَ ماءُ النَّهرِ إذْ غَرَّدَ القمري
أتُاهُ النَّسيمُ الرَّطبُ رقَّصَ دَوحَــه فنقَّط وجهَ الماءَ بالذَّهبِ المصرِي

ومن مظاهر الاتجاه للسُّهولة، استخدام بعض الشُّعراء للمقطوعات، والأوزان الخفيفة أو المجزوءة، مثل استخدام ناصر الدِّين ابن النقيب (ت 687هـ) مخلع البسيط في غزله متوسلاً بالتورية اللَّطيفة[3]:

حُــدِّثتَ عــن ثغــرِهِ المحلّــى فمِــلْ إلــى خَــدِّهِ المُــورّدْ
خــــدٌّ وثغــــر فجــــلّ ربّ بِمُبْــدِعِ الخَلْــقِ قَــدْ تَفَــرّدْ
هــذا عــن الواقــديّ يَــروي وذاكَ يَــروي عــن المبــرّدْ

وجرياً وراء السُّهولة والابتعاد عن الإسهاب المفضي للمل، اتَّجه بعض الشُّعراء للدوبيت[4]، الذي اعتبروه فناً مستقلاً[5]، فراحوا ينظمون فيه في بعض أغراض الشِّعر، فابن الوكيل المصري (ت 716هـ) يقول متغزِّلاً:

في خدِكَ خَطٌّ مُشرفُ الصَّدْغِ سطور والشَّاهدِ ناظرٌ على الفتكِ يــدورُ

1: الجمال، **الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي**، ص61.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص17.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص326.

4: الدوبيت: وحدة شعرية ذات أربعة مصاريع يراعي في الأول والثالث منها على الأقل قافية واحدة وكأن كل رباعية عمل فني مستقل، على شكل قصيدة مصغرة، انظر: **ديوان الدوبيت في الشعر العربي**، كامل مصطفى الشيبي، (1972م)، دار الثقافة، بيروت، ص18.

5: عباس، إحسان، (1983م)، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الثقافة، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة، ص 578.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَــا عارضــــةٌ بالــشَّرعِ لا تَقْتُلُنِــي الــشَّاهدُ فاتــكٌ وذَا خطــك زُورُ

ويشرح التلعفري الشَّاعر (ت675) حاله مع الشرب والقمار من خلال دوبيت[1]:

أقلعــتُ إلاَّ عَــنْ العقــــارِ وتبتُ إلاَّ مِــنَ القِمَــارِ

فالكأسُ والفَصُّ لــيسَ يَخْلُــو منهمْ يَمِينِي وَلا يَــسَارِي

وقال شمس الدِّين ابن العفيف التلمساني متغزِّلا في هذا الدوبيت[2]:

قاسَيْتُ بِكَ الغَرامَ والوَجْدَ سِنِينْ ما بينَ بُكاءٍ وحنــين وأنــينْ

أُرْضِيكَ وَمَا تَزْدادُ إلاَ غَــضَباً اللهُ كَمَا أبْلَى بِكَ القَلْب يعــينْ

وقال الشيخ صدر الدِّين ابن الوكيل دوبيت في معشوقه على هذا النحو[3]:

يَا غَايَةُ مَنِيَّتِي ويَــا مَعْــشَوقِي مِن بَعدكَ لمْ أملْ إلــى مَخْلُــوقِ

يَا خيرُ نَديمٍ كانَ لِــي يُؤْنِــسُنِي مِن بَعدكَ صُلِبْتُ عَلى الــرَاوُوقِ

3.2.3 الأسلوب البديعي:

حوى كتاب (فوات الوفيات) دلائل عديدة على هذا الاتجاه، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ استخدام الألوان البديعيّة بشكلٍ مبالغٍ فيه يقود لنتائج عكسيّة على العمل الأدبي، فإذا ما استخدم الشَّاعر المحسِّنات البديعيّة بغير وعي، ولم يوظِّفها في شعره بالشَّكل المناسب، فإنَّ الأمور ستقلب حتماً (رأس على عقب)، وإذا علمنا أنَّه في القرنين الخامس والسادس الهجريين اهتمَّ الدَّارسون بالبديع وفنونه اهتماماً بالغاً، واعتبروه حلية ضرورية لا يكون الشعر جميلاً إلاَّ بها[4]، وألف أسامة بن منقذ كتابه (البديع في نقد الشعر) الذي استقصى فيه فنون البديع وفرع فيه على نحو كبير، وأفرط بعض الشُّعراء في استخدام المحسِّنات البديعيّة، وكأنَّها غدت ميداناً يتنافسون فيه لإظهار

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص63.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص374؛ الشاب الظريف، **ديوانه**، ص428.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص19.

4: سلام، **تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري**، ص313.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مهاراتهم في التصرُّف بالكلمة المفردة [1] علمنا أنَّ ما جاء في كتاب (فوات الوفيات) ما هو إلاَّ قليل إذا ما قُورن بشعر العصر كاملاً.

وأول هذه الفنون البديعيّة وأهمّها "الجناس" الذي شاع استخدامه بين الشُّعراء، خاصّة شعراء الشام[2]، كما كثرت حوله المؤلَّفات من أرباب هذا المذهب، فقد ألَّف خليل بن أيبك الصفدي كتاباً في الجناس سمَّاه (جنان الجناس)، كما ألَّف حسن بن محمَّد كتاباً سمَّاه (الدر النفيس من أجناس التجنيس)[3]، ومن هذا الجناس في كتاب (فوات الوفيات)، قول كمال الدِّين ابن الزملكاني (ت 727هـ)، فقد جانس بين آخر كلمتين[4]:

أهواك يا ربَّة الأستارِ أهواكَ ... وإن تباعدَ عن مغناي مغناكِ
وأُعْمِلُ العيسَ والأشواق ترشدني ... عسى يشاهد مَعْنَاكِ معنَّاكِ

وأكثر ابن الوكيل (ت 716) من استخدام الجناس بأنواعه المختلفة في إحدى قصائده؛ ما أضفى على قصيدة دفقات موسيقيّة معبِّرة، مبرزاً الشَّاعر تمكُّنه وقدرته على التصرُّف في الكلام والإتيان بضروب مختلفة من الجناس[5]:

لِيَذْهَبُوا فِي مَلامِي أيّةً ذَهَبُوا ... في الخَمرِ لا فضةٌ تَبقى ولا ذَهَبُ
لا تَأْسَفَنَّ علَى مَالٍ تُمَزِّقُهُ ... أيدِي سُقاةِ الطَّلا والخَرُّدُ العُرُبُ
فما كَسُوا رَاحَتِي من رَاحِهَا حللاً ... إلا وعرَّوا فؤادي الهمَّ واستلبُوا
رَاحٌ بها راحتي في رَاحتِي حَصلتْ ... فتمَّ عُجْبي بها وازدادَ لِي العَجَبُ
إذْ ينبعُ الدُرُّ من حُلْوٍ مذاقتُهُ ... والتِبْرُ مُنْسَبِكٌ في الكَأسِ مُنْسكِبُ

واستخدم ابن الدجاجية (ت 657هـ) الجناس في كل أبياته، راسماً بذلك إيقاعاً موسيقياً جميلاً، فقد جانس الشَّاعر في البيت الأول بين (غرته، غرته)، وفي

1: الرقب، **اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس**، ص 351.
2: سلام، **الأدب في العصر المملوكي**، ص126.
3: الهيب، **الحركة الشعرية في حلب الشهباء زمن المماليك**، ص441، 442.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص9.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص16.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البيت الثاني بين (خفرا، يخفرا)، والثالث بين (الخطار، الخطر)، والرابع بين (سماره، الاسمرا)، والخامس بين (من نكرا، منكرا)[1]:

غرَّتــــه غُرّتُــــهُ لمّــــا سَــــرَى ظنَّ بأنَّ الــصُّبحَ قَــدْ أسـفرَا
أقْبَــلَ يَــسعَى خفِــراً خَائِفَــاً عَلى ذمامِ الوَعْــدِ أنْ يَخْفَــرَا
يحقُّ يا قومُ لمــن قــدُّه الـــــ خطَّار أن لا يرهبَ الأخطرَا*
ضـــــممتُهُ إذ نـــــام ســـــمَّارُهُ كما يــضمُّ البطــلُ الأســمرَا
بِتْنَا وَمَا فِي لَيْلِنَــا مِــن كَــرَىً كأنَّمــــا النَّــــومَ غَــــدَا مُنْكَــــرَا

وأفرط شرف الدِّين القدسي في إحدى مقطوعاته في استخدامه للجناس، ممَّا أحال مقطوعته للصنعة المتكلِّفة الواضحة، فحشد من الجناس الشيء الكثير في كل بيت منها[2]:

بي فَرْطُ مَيْلٍ إلى الغُــزلانِ والغــزلِ فكيفَ لا يقصرُ العذالُ عن عذلِي
مَالُوا عليَّ ولامُوا في الهَــوَى عَبَثَــاً من لمْ يمل سمعهُ مُذْ كانَ للمَلَــلِ
أضْحَى الغَرَامُ غريمِي في هوى رشإٍ يغنيه عن كُحلهِ ما فيهِ من كَحَــلِ
فالبَدرُ من حُسنهِ قــدْ رَاحَ ذَا كلــفٍ والوردُ من خَدِّهِ قد راحَ في خَجَلِ
تشاغلَ الناسُ في الأسمارِ بِــي وبِــهِ وإنَّني عن حَديثِ الناسِ في شُغُلِ

وتفنَّن ابن النبيه الشَّاعر (ت 619هـ) في إحدى مقطوعاته في الجناس، وحشد فيها ضروباً متنوِّعة منه في محاولة منه لإرضاء الذَّوق العام الذي يبدو أنَّه كان يستسيغ هذا الفن البديعي الذي طغى على سائر الفنون البديعيّة الأخرى[3]:

بَدْرٌ تمٍّ لَهُ مَــن الــشَّعْرِ هَالَــهْ مَنْ رَآهُ مِنَ المُحِبِّــيْنِ هَالَــهْ
قَصُرَ اللَّيْلُ حِيْنَ وَلَّى وَلاَ غَــرْ وَغَزالٌ غارَتْ عَلَيْهِ الغَزالَــهْ
يا نَسيمَ الصَّبَا عَــساكَ تَحَمَّــلْ تَ لَنا مِن سُكَّانِ نَجْدٍ رِســالَهْ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص42.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص43.

*: الخطار: الرمح.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص67؛ ابن النبيه، **ديوانه**، ج1، ص226.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كُلِّ مَعْسُولَةِ المَراشِــفِ بَيْــضا ءَ حَمَتْها سُمْرُ القَنــا العَــسَّالَهْ

واستخدم الشَّاعر عين بصل (إبراهيم الحراني) (ت 709هـ) الجناس، بل أنَّه أكثر منه في إحدى قصائده، على الرّغم من أنَّه كان عاميَّاً أميَّاً لا يجيد القراءة والكتابة، ويكاد لا يخلو بيت من الجناس بأشكاله المختلفة، ما ولَّد في القصيدة جرساً موسيقياً، وإيقاعاً جميلاً تجتذب إليه الأسماع، منها[1]:

ربــوعُ جلّــقَ للأوطــارِ أوطــانُ وَلَيْسَ فِيهَا مِــن النّــدمانِ نــدمانُ
كمْ لِي مع الحبّ في أقطارهــا أربــاً إذْ نَحْنُ فِي سَاحَتِي جيرونَ جيرانُ
أيَّــام تجريــرُ أذْيَــالي بِهَــا طَرَبَــاً وَلِي مَكانُ لَهُ فِــي الــسَعْد إمكــانُ
إذْ بتُّ أنــشدُ فــي غزلانِهــا غَــزَلاً لمّا غَزَتْ كَبِدِي بــاللَّحظِ غُــزْلانُ
سقياً لجامِعهــا كَــمْ قَــدْ جُمعــنَ لَنَــا فيهِ من الغيــدِ أقمــارٌ وأغْــصَانُ
وكَمْ حَوَى الحُسنُ فِي بابِ البَريدِ لَنَــا فهلْ تَرَى عِنْدَ ذَاكَ الحُسْنِ إحْــسَانُ
أغنتْ عَن السُّمْرِ فيهِ السُّمْرُ إذْ خَطُرَتْ وَسُــودُ أجفانِهــا للبِــيضِ أجْفَــانُ
أهلّــةٌ تحــتَ ليــلِ الــشعرِ تحملُهــا لفتنــةِ الــصبِّ قُــضْبَانٌ وَكُثْبَــانُ
جَمالُها وأخُو الأشْــوَاقِ حــينَ بَــدَتْ إليهِ فــي الحــبّ مَفْتُــونٌ وفتــانُ
وبعدَهَا لَيْسَ يَحْلُو فِــي الهَــوَى أبَــدَاً يَوْمَاً لإنسانِهِ فــي الخَلْــقِ إنْــسَانُ
نِوَاحَــهُ فِــي نَــوَاحِي جِلّــق وَلَــهُ بالحُسنِ لا بالنَّقَا والحُــزْنُ أحْــزَانُ

فالابيات تعجُّ بالجناس، فقد جانس الشَّاعر بين (جيرون: جيران)، (مكان: إمكان)، غزلانها: غزلا)، (جامعها: جمعن)، (الحسن: إحسان)، (السمر: السمر)، (أجفانها: أجفان)، (مفتون: فتان)، (إنسانه: إنسان)، (نواحه: نواحي)، (الحزن: أحزان)، ولا ريب في أنّ هذا الاستخدام المكثَّف للجناس يدلّ على أنَّه كان مطلباً فنياً للشَّاعر.

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص37.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومال بعض الشُّعراء للطباق، فزخرفوا شعرهم به وبغيره من الفنون البديعيّة، كما في قول الشيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد (ت 702هـ) مفرطاً في استخدام الطباق[1]:

مقبلٌ مدبرٌ بعيدٌ قريبٌ مُحْسنٌ مذنبٌ عدو حبيبُ
عجبٌ من عجائب البر والبحْـ ـر ونَوْعٌ فَرْدٌ وشكْلٌ غريبُ

ويطابق علاء الدِّين ابن الكلاس (ت 730هـ) بين (الحلو، المر)، (أرق، أقسى) ما يولِّد في الذِّهن معنى التَّضاد، ويقرِّب المعنى[2]:

خَليلَيَّ ما أَحلى الهَوى وَأَمَرَّهُ وَأَعلَمَني بِالحُلوِ مِنهُ وَبِالمُرِّ
بِما بَينَنا مِن حُرمَةٍ هَل رَأَيتُما أَرَقَّ مِنَ الشَكوى وَأَقسى مِنَ الهَجرِ

ويوظِّف أبو الحسين الجزار (ت679هـ) الطباق في بيتين من غير تكلُّف ليوصل فكرته من خلال التَّضاد الذي اصطنعه بخفَّة ورشاقة[3]:

واحْتَجْتُ أنْ أذْكُركُمْ خِيفَةً بالخَيرِ للوارِدِ والصَادرِ
فأنتمُ ألجأتموني إلى كذِبِي في الأوَّلِ والآخرِ

ويميل الحافظ بن البكار (ت671هـ) للطِّباق في غزله، فقد طابق في البيتين التاليين بين: (شطت، قريب)، (لم تلقاكم، يلقاكم)، (البعد، القرب) ليرسخ المعنى في ذهن سامعه[4]:

سَلامٌ عَليكُمْ شَطتِ الدَّارُ بَيْنَنَا على أنَّ ذِكْراكُم قَريبٌ إلى قَلبِي
إذا العَينُ لَمْ تَلقاكُم "وَتَراكُم" فَفِكْرِي يَلقاكُم على البُعْدِ والقُرْبِ

واستخدم الشُّعراء كذلك حسن التعليل وهو أن "يدعي لوصف علَّة مناسبة له باعتبار لطيف"[5]، كما في قول عون الدِّين ابن العجمي (ت 656هـ)[6]:

1:: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص448.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص94.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص289.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص342.
5: شهاب الدِّين محمود الحلبي، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، ص55.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص67.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَهِيبُ الخَدِّ حِـيْنَ بَـدَا لِعَيْنِـي هَوى قَلْبِي عَلَيْـهِ كَـالفَرَاشِ
فأحرقهُ فَـصَارَ عَليـهِ خَـالاً وَذَا أَثَرُ الدُّخَانِ عَلَى الحَوَاشَي

واستخدم الشُّعراء التَّورية لتوليد المعاني وابتكارها، كما في قول عـين بـصل (ت709هـ) مازجاً بين التشبيه الضمني والتورية[1]:

وما كُلُّ وقتٍ فيهِ يَسْمَحُ خَـاطِرِي بِنظمٍ قريضٍ لائِقِ اللَّفْظِ والمَعْنَـى
وَهَلْ يَقتضِي الشَّرْعُ الشَّريفُ تيمُّمَاً بترب وهَذَا البحرُ يَا صَاحِبِي معنَا

واستخدم الشُّعراء كذلك المقابلة، كما في قول الشيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد[2]:

الجسْمُ تذيبـه حُقُـوقُ الخِدمـهْ والقلبُ عَذَابُـهُ علـو الهِمّـهْ
والعُمْرُ بِذَاكَ يَنْقَضى فِي تَعَـب والرَّاحَةُ ماتَتْ فَعَلَيْهَا الرَّحْمه

ويحسن ابن الحلاوي الشَّاعر المقابلة في بيت من شعره، ممَّا يُحدث توازناً فـي المعنى وتنظيماً في الإيقاع[3]:

فإنْ كانَ زَهْرَاً فَهْوَ صُنْعُ سَحَابَةٍ وإنْ كانَ درّاً فَهْوَ مِن لجّةِ البَحْرِ

ومن الفنون البديعيّة الظاهرة في كتاب فوات الوفيات التقسيم، الذي استفاد منه الشُّعراء في تفصيل الأحكام والمعاني، كما في قول الشيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيـد (ت 702هـ)[4]:

أتعبْتَ نفسكَ بَـيْنَ ذلـةِ كَـادِحٍ طَلَبَ الحَيَاةَ وبيْنَ حِرص مؤَمِّلِ
وأَضَعْتَ عُمْرك لا خلاعة ماجن حَصَّلتَ فِيهِ ولا وقـارَ مُبَجَّـل

وفي سياق حديث ابن البققي (ت701هـ) عن مضار الحشيش، يقسِّم مضارها على النَّحو الآتي[5]:

لَحَـا اللهُ الحَـشِيشَ وآكِلِيهـا لَقدْ خبُثتْ كمَا طَـابَ الـسّلافُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص35.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص446؛ صافي، **ابن دقيق العيد، حياته وشعره**، ص110.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص146.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، 3، 445.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص152.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَمَا يُصبْبِي كَذَا تــضني وتــشقي كما يشْفِي وَغَايَتُهَــا الحــرافُ
وأصْــغَرُ دَائِهــا والــدَّاءُ جَــمٌّ بغــاءُ أو جنــونُ أوْ نــشافُ

ويتَّجه شيخ الشُّيوخ عبد العزيز (ت 662هـ)، صوب التقسيم في إيصال إحدى معانيه عن بعض الأمور التي إذا توفَّرت لشخصٍ ما، كانت كافية له في حياته[1]:

سِــتٌّ عُيــونٍ مَــنْ تَأَتَــتْ لــه كانَــتْ لــه شــافيةً كافِيَــهْ
العلْمُ والعَلْيــاءُ والعَفْــوُ والـــ ـــعِزَّةُ والعِفَّــةُ والعافِيَــهْ

ولم تقتصر الصَّنعة على المحسِّنات البديعيّة فقط، بل أخذت مظاهر أخرى تبدو أكثر تكلُّفاً وتعقيداً، ومن هؤلاء الشُّعراء أصحاب هذه الصفة ابن نفاذة (ت 601هـ) الذي كرَّر الكلمة مرتين في نهاية كل بيت ليوهم القارئ أنَّ الكلمة الثانية توكيد، وهي ليست كذلك [2]:

يُثبــتُ تَــأليفُ الهَــوَى حُــسْنَها وقدُها للــصَّبرِ إنْ مــاحَ مــاحْ
وَطَرْفُهَــا مُــسكرةٌ خمــرُهُ إذَا أديرَتْ وَهْوَ يَا صَاحَ صاحْ
أمــدُّ قلبــي نَحــوَ كَاسَــاتها رشفاً إذا مُدّت إلى الرَّاحِ راحْ
واضِحَها موضحُ عُــذْرِي فَمَــا يَلُــومني فِيهَــا إذَا لاحَ لاحْ

كما اتَّجه بعض الشُّعراء إلى التلوين والتصنيع في الأوزان والقوافي، فراحوا ينظمون قصائد تقرأ على غير قافية واحد، مثل الشَّاعر الرَّشيد النابلسي، في قصيدة له بناها على بحر الرجز، وجاء فيها بأنواعه كلها: التام، المجزوء، المشطور، المنهوك[3]:

كم الحشا معذبٌ موجــعٌ على المَدَى صَبٌّ الفُؤَادِ مغــرمُ
بنــارهِ يلتهــبُ ملــذعٌ مَا خمــدا أواره والــضرمُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص359.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص86.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص276؛ شعر الرشيد النابلسي، تحقيق: مــشهور الحبــازي، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، مطبعة المنار الحديثة، الطبعة الأولى، 2003، ص98.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حكـــم فيـــه أشـــنب ممنـــعٌ من الفدا فهو الأسير المـــسلمُ
مبتعـــدٌ مجتنـــب مـــودعٌ تعمـــــدا وهو القريـــب الأمـــمُ
زمانـــــه تعتـــب وولـــعٌ قد أكمدا من عَزَّ فهـــو يحكـــمُ
ما الحبُّ إلا لَهَـــبٌ ومـــدمعٌ تجـــــددا ولوعـــــةُ وســـــقمُ
يا هل إليـــه ســـبب ممتـــعٌ يولي يدا مـــن لبُـــهُ مختـــرمُ
ما أنا إلا أشـــعب وأطمـــعُ فيمـــا عـــدا فمـــا إليـــه ســـلمُ

وتسرَّب للشِّعر مصطلحات العلوم المختلفة، لاسيَّما الدِّينيّة واللُّغوية، والتي يرى شفيق الرقب بأنَّ لهذا آثاراً سلبية على الشِّعر، خاصة إذا حصر الشَّاعر نفسه في مصطلحات علم من العلوم، فيضيق عليه مجال القول حينئذٍ، ولا يستطيع تتمّة المعنى[1]، ومن هذا القبيل في كتاب (فوات الوفيات)، قول الشَّاعر المعروف بحافي راسه (ت680هـــ) وهو نحوي من أئمّة العربيّة[2]:

ومعتقدُ أنَّ الرِّيَاسةَ فِـــي الكبِـــرِ فأصبحْ مَمْقُوتَاً بِها وَهْوَ لا يَـــدْرِي
يَجُرُّ ذُيولَ الكبرِ طالـــبَ رفعـــةٍ ألا فاعْجَبُوا مِن طالبِ الرَّفعِ بالجَرِ

ورثى شرف الدِّين الحصني الشيخ جمال الدِّين ابن مالك النَّحوي بقصيدة عجَّت بألفاظ ومصطلحات النَّحو، منها هذه الأبيات[3]:

عَدَمُ النَّعْـــت والتَّعطـــفُ والتـــو كيـــد مـــستبدلاً مـــن الإبـــدالِ
ألـــمٌ اعتـــراهُ أســـكن منـــه حَركاتٍ كَانَتْ بِغيـــرِ اعْـــتِلالِ
رَفَعُـــوهُ فِـــي نَعْـــشِهِ فَانْتَـــصَبا نَصْبَ تَمييزٍ كَيْفَ سيرُ الجبـــالِ
صَرَفُوهُ يَـــا عُظـــمَ مَـــا فَعَلُـــوه وَهْوَ عَـــدْلٌ مُعَـــرّفٌ بالجَمَـــالِ
أدْغَمُوهُ في التربِ من غيرِ مثـــل ســـالماً مـــن تغيّـــر الانتقـــالِ

1: الرقب، **اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس**، ص358.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص410.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص409.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويهجو قاسم الواسطي (ت 626هـ) أحدهم متَّكئاً على مخزونه النَّحوي، فقد كان أديباً نحوياً لغوياً فاضلاً مصنفاً[1]:

لنَا صَـــديقٌ فيـــهِ انقبـــاضٍ ونحـــنُ بالبـــسطِ نَـــسْتَلذُّ
لا يعرفُ الفتحَ مـــن يديـــهِ إلا إذا مـــا أتـــاهُ أخْـــذُ
فكفه "أيـــنَ" حـــينَ تُعْطِـــي شَيئاً وبعدَ العَطَاءِ " مُنْـــذُ"

ويتغزَّل الشَّاعر الأربلي علي بن عثمان (ت 670هـ) مستمداً ألفاظه من العلوم اللُّغوية، وقد وفق في ذلك[2]:

أضيفَ الدُّجَى مَعنى إلى ليلِ شعرِهِ فطالَ ولولا ذاكَ ما خُـصَّ بـــالجرِ
وحَاجِبِه نونُ الوقايـــةِ مَـــا وقـــتْ على شَرْطِها فِعْلَ الجُفُونِ مِنَ الكَسْرِ

ويرثي السرَّاج الورَّاق (ت 695هـ) أبا الحسين الجزَّار بأبياتٍ أكثر فيها من مصطلحات الشِّعر؛ نظراً لم عُرف وتميَّز به المرثي، فأقام قصيدته الرثائيـــة علـــى مجموعة من المصطلحات اللُّغوية والشِّعريّة، ولم يتحرَّر منها إلا قليلاً، منها[3]:

ألا عزِّ القوافي اليومَ عن من بَكَتْـــهُ البكـــرُ مِنْهَـــا والعـــوانُ
لها إيطاءُ حزنٍ بعـــدَ حُـــزنٍ وإكفـــاءٌ لـــدمعٍ لا يُـــصَانُ
وإقواءٌ برَفـــعٍ فَـــوقَ نَعْـــشٍ وخفضٍ فِي اللُّحُودِ لَـــهُ مَكَـــانُ
وناحَ النَّحْوُ بعدك، والمَعَـــانِي لَهَا مـــع كـــلِّ نَائِحَـــةٍ جَنَـــانُ
فَلا بَدلٌ لخلٍّ عَنْـــكَ يُرْجَـــى وَلا عَطْفٌ لِمَنْ غَدَرُوا وَخَانُوا
وَلَوْ نَزَفَتْ بُحُورُ الشِّعْرِ دَمْعَاً وكَانَ عَلى الخَلِيْلِ لَهَا ضَـــمَانُ

وعمد بعض الشُّعراء إلى صنع قصائد يحتوي كل بيت منها على لون من ألوان البديع، كما عند الشَّاعر الأربلي علي بن عثمان (ت 670هـ)، نجتزئ منها هذه الأبيات، وهي طويلة في ست وثلاثين بيتا[4]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص194.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص40.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص282.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص39 وما بعدها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَعضَ هَذا الدَّلالِ والإدلالِ حالَ بالهجرِ والتجنبِ حَالي. "الجناس اللفظي"
حرِتْ إذَا حُزْتَ ربعَ قَلبِي وإذْلالي صبر أكثرتَ مِن إذْلالِي. "الجناس الخطي"
رِقَّ يَا قَاسِي الفُؤَادِ لأجفانٍ... قصارٍ أسرى ليالٍ طِوَالِ. "الطباق"
شارحاتٍ بدمعها مَجْمَعَ البَحْرينِ فِي حبِّ مجمعِ الأمثالِ. "الاستعارة "
نفتُ النَّومَ في هواك قِصَاصاً... حيثُ أدَّى مِنها خداعِ الخَيالِ. "المقابلة"

3.3 الاستدعاء الأدبي:

ويظهر في كتاب (فوات الوفيات)، استدعاء أشعار القدماء معنىً وأسلوباً، فبعض الشُّعراء لم يجدوا حرجاً في تداول معاني من سبقهم[1]، فاقتدى الشُّعراء بأسلافهم، وكانوا في جملتهم يزعمون في التعبير إلى أن يكون أسلوبهم يضارع الشِّعر في العصر العباسي الزَّاهر، وقد بلغ الشُّعراء من ذلك حظاً كبيراً، حتى لنستطيع أن نضع بعضهم في بعض ما أنشأه إلى جوار كبار الشُّعراء العباسيين[2].

والتفت غير واحد من الدَّارسين إلى هذه القضية وناقشوها، فنجد عبد العزيز الأهواني يرجع هذه القضية إلى عامل نفسي، فقد كان الناس ينظرون إلى العصور الأولى على أنَّها المَثلُ الأعلى للحياة الدِّينية والخُلقيّة، وعامل يتمثَّل في اتِّساع المسافة بين اللُّغة اليوميّة ولغة الأدب، إذا أصبحت لغة الأدب منفصلة عن الشَّاعر، ولم تَعُدْ هي اللُّغة التي يفكِّر ويشعر بها بصورة تلقائية، لذلك فلا بُدَّ للمتأدِّب من أن يعيش في دواوين الشِّعر القديم يتعلَّم منها أساليب التعبير، وبالتَّالي، فإنَّه كان يلتفت أثناء العملية إلى ذلك التُّراث، ويستمد منه، حتى يكتب أدباً بلغة فصيحة[3]، وعلَّل شفيق الرقب هذه الاتباعية لِمَا ردَّده النقَّاد المسلمون من أنَّ الأقدمين قد استغرقوا المعاني، ولم يبقَ للاحقين إلا القليل، لذا، انكبَّ الشُّعراء على التُّراث الشِّعري، ينهلون منه، ويردِّدون معانيه، أو قد يكون للتهديد الذي واجهته الحضارة الإسلامية

1: الصايغ، هنريت، (1980م)، **اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، إشراف حسين نصار، ص400.
2: بدوي، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية**، ص560.
3: الأهواني، عبد العزيز، (1962م)، **ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص17.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في عصر الحروب الصليبيّة دور في ذلك، إذْ اعتبر الشُّعراء نظرهم في التراث، وتقليدهم له، واستمدادهم منه، نوعاً من المحافظة عليه[1].

ولعلَّ يتضافر مع التفسيرات السَّابقة، رغبة الشُّعراء في قرن أنفسهم وشعرهم بأصحاب هذا الشعر؛ لأنَّهم يدركون قيمة الشِّعر المتبع وصاحبه في حينه، وعلو كعبه على غيره، فأراد الشُّعراء أن ينزلوا أنفسهم منزلة هؤلاء الشُّعراء لدى مجتمعاتهم، عدا عن إدراك الشَّاعر أنَّه النَّاطق باسم الجميع، وعليه أن يكون شعره بحجم هذه المسؤولية، فيميل إلى ما يراه أفضل، فيجد نفسه أحياناً مجبراً على أخذ معاني وأساليب سابقيه.

واتَّكأ الشُّعراء زمن الحروب الصليبيّة في مصر وبلاد الشام على الموروث الأدبي اتِّكاءً ملحوظاً، وارتدُّوا بأبصارهم وعقولهم إلى عصور الأدب العربي الزَّاهرة عامة والى العصر العباسي الثاني خاصة، فحاكوا أمراء الشِّعر العربي في معانيهم وصورهم وأساليبهم[2]. وكان محاكاة شعراء الدِّراسة لسابقيهم قد اتخذت صورتي التضمين والمعارضة، أمَّا التضمين فيكون بتوظيف جزء من بيت أحد الشُّعراء السَّابقين، أو للبيت كاملاً في القصيدة، كما في قول ابن الحلاوي الشَّاعر مضمِّناً شعر تأبَّط شرَّاً (ت 530م) [3]:

نهاني والنهى والشيب عن وصلِ مثلها "وكَمْ مثلها فارقتها وهي تصفرُ"

فعجز البيت السابق عجز بيت لتأبط شراً، وهو[4]:

فَأُبْتُ إِلَــى فَهْــمٍ وَلَــمْ أَكُ آيِبــاً وَكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُهَا وَهْيَ تَــصْفِرُ

ويضمن سبط ابن عبد الظاهر (ت 733هـــ) من شعر أبي العلاء المعري عجز أحد أبياته، في قوله[5]:

1: الرقب، **الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، ص368.

2: التميمي، حسام محمَّد عمر، **أثر المتنبي في شعر الحروب الصليبية في مصر وبلاد الشام**، رسالة ماجستير غير منشورة، ص8.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص145.

4: تأبط شراً، ثابت بن جابر بن سفيان، (ت. حو.80.ق.هـــ)، (1984م)، **ديوان تأبط شراً وأخباره**، جمعه، علي ذو الغفار شاكر، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى، ص91.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص95.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا مَرَّ للصَّنائعِ ذِكْرٌ "فاجْعَلانِي مِن بعضِ مَن تذكرانِ"

فعجز البيت مأخوذ من قول أبي العلاء المعري (449هـ)[1]:

إن تَنَاسَـــيْتُما وِدادَ أُنـــاسٍ فاجعَلاني مِن بعضِ مَن تَذكُرانِ

ويضمن مجير الدِّين ابن تميم، عجز بيت للمتنبي في قوله[2]:

لرأيتَ ما يسبيكَ مِنْهُ بقامةٍ "سالَ النُضارُ بِهَا وقامَ المَاءُ"

فعجز البيت السابق هو عجز لبيت المتنبي التالي[3]:

وكَذا الكَريمُ إذا أَقامَ بِبَلدَةٍ سالَ النُضارُ بِها وَقامَ الماءُ

وضمَّن مجير الدِّين ابن تميم أيضاً عجز بيت إحدى مقطوعاتة عجز بيت لأبي تمام، في قوله[4]:

أنابيبُ لَجَّتْ في عُلوٍّ كَأَنَّما "تُحَاوِلُ ثَأراً عِنْدَ بَعضِ الكَواكِبِ"

فعجز البيت السابق هو عجز بيت أبي تمام الآتي[5]:

مَكارِمُ لَجَّت في عُلُوٍّ كَأَنَّها تُحاوِلُ ثَأراً عِندَ بَعضِ الكَواكِبِ

وقد يضمن الشَّاعر لأكثر من شاعر في آن واحد كما في قول المهذب بن الزبير (ت 561هـ)[6]:

من كلِّ طرفٍ مريضِ الجفنِ تُنــشدُنا ألحاظُهُ رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَلِ

إنْ كان فيه لنا وهــو الــسَّقيمُ شِــفاً فَرُبَّمَا صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَــلِ

فالشَّاعر في بيته الأول يشير لبيت لامرئ القيس (ت 565م) التالي[7]:

1: المعري، أبي العلاء أحمد بن عبدالله، (ت 449)، (1957م)، **اللزوميات**: **ديوان سقط الزند**، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ص94.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، 4: 56.

3: المتنبي، **(1930م)**، **ديوان أبي الطيب**، تحقيق: الدكتور عمر فاروق الطباع، المجلد الثاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ج1، ص127.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص 56.

5: المتنبي، **ديوانه**، ج1، ص109.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص338.

7: امرئ القيس، **ديوانه**، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل- بيروت، 2005، ص293.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رُبَّ رامٍ مِن بَني ثُعَلٍ مُتلِجٍ كَفَّيهِ في قُتَرِه

أمَّا البيت الثاني فهو مضمَّن من شعر المتنبي (354هـ)، وهو عجز لبيت المتنبي الآتي [1]:

لَعَلَّ عَتبَكَ مَحمودٌ عَواقِبُهُ فَرُبَّما صَحَّتِ الأَجسامُ بِالعِلَلِ

ونقل صلاح الدِّين الصفدي، في رثاء جمال الدِّين ابن غانم، صدر بيت لأشجع السلمي ليوظفِّه في عجز بيته ذلك في قوله [2]:

وكأنَّ قَبْرَكَ للعُيونِ إذَا بَدَا قَصرٌ عَلَيهِ تَحيَّةٌ وَسَلامُ

فعجز البيت السابق هو صدر بيت لأشجع السلمي (ت 195هـ) التالي:

قَصرٌ عَلَيهِ تَحيَّةٌ وَسَلامُ نَثَرَت عَلَيهِ جَمالَها الأَيّامُ

كما ضمن بيت من شعر أبي تمام (ت 231هـ) في نفس القصيدة [3]:

ثمَّ انقضتْ تلك السنونَ وأهلُها فكأنَّها وكأنَّهُمْ أحلامُ

وقد يجتمع أكثر من شاعر في تضمين شعر أحد الشُّعراء السابقين، كما نجد عند، ابن خلكان في قوله[4]:

أعذاره السَّارِي العَجُــولِ بخــدّهِ مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعةٍ مِنْ باسِ

وقول جمال الدِّين ابن شيث (ت 625هـ) [5]:

واعلمْ إذَا اختَلَفــتْ عَليــكَ بِأنَّــه مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعةٌ مِنْ باسِ

وقول شيخ الشُّيوخ في قوله[6]:

إنْ لم تَزُرْ فإذا مَرَرْتَ فقِفْ بنا مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعةٌ مِنْ باسِ

1: المتنبي، **ديوانه**، ص151.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، 2: 208.

3: أبو تمام (ت 231هـ)، حبيب بن أوس الطائي، (1957م)، **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي**، تحقيق: محمَّد عبده عزام، دار المعارف- القاهرة، ص167.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص114.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص313.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص362.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالشُّعراء الثلاثة قد ضمَّنوا صدر بيت لأبي تمام (ت 231هـ) في قوله[1]:

ما في وقُوفِكَ ساعةً مــن بــاسِ نَقْضِي ذِمامَ الأرْبُعِ الأدْرَاسِ

أمَّا بالنسبة لقصائد الشُّعراء الذين عارضوا من خلالها شعراء سابقين في كتاب (فوات الوفيات)، فقد وجد الباحث في هذا الباب أكثر من قصيدة. غير أنَّ هذه القصائد لم يوردها المؤلِّف كاملة، أو أنَّه اكتفى بذكر مطلعها، ولكن نجد من هذه القصائد التي عارض أصحابها شعراء قدماء قصيدة الشهاب محمود الحلبي التي قالها مدح في الأشرف خليل عند فتح عكا، وعارض فيها قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم عندما فتح عمورية، ومطلع قصيدة الشهاب الحلبي هي[2]:

الحمدُ للهِ دلّت دولةُ الــصُّلبِ وعزَّ بالتُّرْكِ دينُ المُصْطَفَى العَرَبِي

أما مطلع قصيدة أبي تمام فهي [3]:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُــبِ في حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

والقصيدتان تعبِّران عن موضوع واحد، هو تصوير النَّصر ومدح القائد وجنوده، فقصيدة أبي تمَّام مدح من خلالها الخليفة المعتصم وجيشه، وصوَّر المعركة وأهميّة فتح عمورية، وكذلك قصيدة الشهاب محمود، فقد مدح من خلالها الأشرف خليل، وبيَّن أهميّة فتح عكا، كما صوَّر المعركة وجيش الأشرف، كما أنَّ القصيدتين قد اشتركتا في والوزن والقافية.

وسار الشهاب محمود على نهج أبي تمام في كثير من المواطن، مثل وصفه للمدينة المحرَّرة، ومدحه للبطل وجيشه، وتصوير صعوبة وأهمية النَّصر الذي تحقَّق، بل يمكن القول إنَّ الشهاب كان رهين نموذج أبي تمام وراح يستمد منه الكثير من الألفاظ والصيغ والتراكيب وصور أبي تمام؛ فقوله يصف مدينة عكا[4]:

عقيلةٌ ذَهَبَتْ أيْدِي الخُطُوبِ بِهَــا دَهْرَاً وَشدّتْ عَلَيْهَا كَفُّ مُغْتَــصِبِ

كانَــتْ تخيلنــا آمَالنَــا فَنَــرَى أنَّ التَّفَكُّــرَ فِيهــا غَايــةُ العَجَــبِ

1: أبو تمام، **ديوانه**، ص523.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص410.

3: أبو تمام، **ديوانه**، ص45.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص411.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمَّا الحُرُوبُ فكَمْ قَدْ أنْشَأتْ فِتَنَــاً شَابَ الوَليدُ بِها هَوْلاً ولَــمْ تَــشبِ
سورانِ: برٌّ وبحرٌ حَوْلَ سَــاحَتِهَا دار وأدْنَاهُمَا أنْــأى مِــنَ القطــبِ
مــصفّحٌ بِــصفاحٍ حَوْلَهــا أكَــمٌ مِنَ الرِّمَاحِ وأبْــرَاجٌ مِــنَ اليلــبِ
مِثْلُ الغَمَائِمِ تَهْدِي مِنْ صَوَاعِقُها بالنبلِ أضْعَافِ مَا تُهدِي مِنَ السُّحبِ

يكاد يكون مأخوذ من قول أبي تمام في وصف عمورية[1]:

بِكْرٌ فَما افْتَرَعَتْهَا كَــفُّ حَادِثَــةٍ ولا ترقَّتْ إليهــــــا همَّةُ النُّــوبِ
مِنْ عَهْدِ إسْكَنْدَرٍ أَوْ قَبل ذَلِكَ قَــدْ شابتْ نواصي اللَّيالي وهيَ لمْ تشبِ
حَتَّى إذَا مَخَّضَ اللَّهُ السنين لَهَــا مَخْضَ البخِيلَةِ كانَتْ زُبْدَةَ الحقَــبِ
أتتهُمُ الكُربــةُ الــسَّوداءُ ســادرةً منها وكان اسمها فرَّاجــةَ الكُــربِ

وقوله يمدح الأشرف خليل، الذي وصفه بأنَّه غضبان لله تعالى لا لشيءٍ آخر[2]:

فَفَاجَأتُهــا جُنــودُ اللهِ يَقــدمُها غَضْبَانُ للهِ لا للملكِ والنّــشب

فهو يسلخ بيته السابق من قول أبي تمام، في مدحه للمعتصم[3]:

تَــدْبيرُ مُعْتَــصِمٍ باللَّــهِ مُنْــتَقِمٍ للهِ مرتقــبٍ فــي الله مُرتغــبِ

وقوله في وصف الفتح الذي تحقَّق[4]:

لَمْ يَبْلغْ النطقُ حدّ الشُّكْرِ مِنْكَ فَمَا عَسَى يَقُومُ بِهِ ذُو الشِّعر والخُطَبِ

أخذه من قول أبي تمام الآتي[5]:

فَتْحُ الفُتوحِ تَعَالَى أَنْ يُحــيطَ بِــهِ نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

ويستعير أسلوب أبي تمام في تصوير عظمة الفتح الذي تحقق حين قال[6]:

يَا يَوْمَ عَكا لَقَدْ أنسيت مَا سَــبَقَتْ بِهِ الفُتُوحُ وَمَا قَدْ خَطّ فِي الكُتُبِ

1: أبو تمام، **ديوانه**، ص55.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص411.
3: أبو تمام، **ديوانه**، ص53.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص412.
5: أبو تمام، **ديوانه**، ص56.
6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص411.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأسلوب البيت السابق قريب كثيراً لأسلوب بيت أبي تمام، في قوله[1]:

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّوريَّةَ انْــصَرَفَتْ منكَ المُنى حُفَّلاً معسولةَ الحلبِ

وأخذ الشهاب محمود صورته التالية من أبي تمام، فقد شبَّه الشهاب محمود مدينتي صور وعكا أخوات، في قوله[2]:

أختانِ فِي أنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا جَمَعَتْ صليبةُ الكُفْرِ لا أُخْتَانِ فِي النَّسَبِ

ويبدو أنَّه التفت إلى بيت أبي تمام الآتي في تصويره لأيَّام فتح عمورية، وأيَّام بدر بالأقرباء[3]:

فبَيْنَ أيَّامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بِهَا وبَيْنَ أيَّامِ بَدْر أَقْرَبُ النَّسَبِ

ومطلع قصيدة الشهاب محمود مأخوذة فكرته من احد أبيات أبي تمام [4]:

الحمدُ للهِ دلّــت دولــةُ الــصُّلبِ وَعزَّ بالتُّرْكِ دِينُ المُصْطَفَى العَرَبِي

ففكرة هذا البيت مأخوذة من بيت أبي تمَّام في قوله [5]:

أبقيْتَ جدَّ بَنِي الإسْلامِ فِي صعدٍ والمُشْرِكينَ ودَارَ الشرْكِ في صَبَبِ

بل أنَّ الشهاب محمود- إمعانا- في مجاراة قصيدة أبي تمَّام قد ضمَّن بيت منها كما هو، وذلك في وصفه لفتح مدينة صور بعد عكا مباشرة[6]:

لمَّا رَأَتْ أُخْتَها بِالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ كَانَ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى من الجَرَبِ

4.3 الاستدعاء الدِّيني:

ومن الظَّواهر الفنيّة البارزة في الشِّعر في كتاب (فوات الوفيات)، تزيين الشُّعراء أشعارهم ببلاغة القرآن الكريم، وتوظيف محكم آياته للتَّعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وهذا ليس مستغرباً، فأغلب شعراء هذه الدِّراسة هم من شعراء فترة

1: أبو تمام، **ديوانه**، ص63.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص413.

3: أبو تمام، **ديوانه**، ص58.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص410.

5: أبو تمام، **ديوانه**، ص60.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص413.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحروب الصليبيّة وما بعدها، وهو عصر كان الصِّراع فيه صراعاً دينياً عقدياً قبل أن يكون صراعاً للسيطرة على القلاع والحصون وغيرها، وكان الشُّعراء يستشعرون أهميّة الرُّجوع للمصادر الدِّينيّة والنهل من معينها الذي لا ينضب، وكان أول هذه المصادر بروزاً في كتاب (فوات الوفيات) القران الكريم، ثمَّ تلاه القصص القرآني، ثمَّ بعد ذلك الحديث النبوي الشَّريف، على أنَّ هناك مصادر أخرى نهل منها الشُّعراء في فترة الحروب الصليبيّة، لم تظهر بشكل جليّ في كتاب (فوات الوفيات) مثل أقوال السَّلف الصَّالح وغيرها[1].

ومن القران الكريم اقتبس الشُّعراء الألفاظ القرآنية المفردة، مثل قول عرقلة الكلبي[2]:

فَقُــل لِــشانيكَ إن ظَفَــرتَ بِــهِ قَولاً صَحيحاً يُفيدُ مَن سَمِعا

ففي هذا البيت نجد أنَّ كلمة (شانيك) تستدعي كلمة الأبتر التي وردت في قوله تعالى **(**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**)**[3].

واقتبس الشُّعراء التراكيب القرآنية، مثل اقتباس عرقلة الكلبي للتركيب دون تصرّف في قوله[4]:

عاجلتَهُمْ فتركت الخيــلَ خاليــةً مِنْهُم وَقَدْ خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلِ

فالبيت السَّابق اقتباس من قوله تعالى: **(**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**)**[5].

ويقتبس ابن النبيه الشَّاعر من قوله تعالى: **(**كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**)**[6]، في غزله متصرِّفا في دلالة الآية الكريمة حين قال[1]:

1: للاستزادة، انظر: البنوي، منال عطاالله، (2004م)، **الاستدعاء الدِّيني والأدبي في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، ص19 وما بعدها.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص314.

3: القران الكريم، سورة الكوثر، الآية (3).

4:: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص314؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص79.

5: سورة الأنبياء، الآية (37).

6: سورة القمر، الآية (42).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَمَاكَ وَالخَدُّ النَّضِرْ ماءُ الحَياةِ وَالخَصِرْ
أَخَذْتَنِي يا تارِكِيْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرْ

وقد يكون الاقتباس واضحاً، غير انه لا يوافق الدلالة القرآنية، كقول عرقلة الكلبي يتغزل في مجلس بالساقين[2]:

مـــا أَقـــبَلا إلاَّ وَقـــالَ الـــوَرى قَـــد جـــاءَ نَـــصرُ اللهِ وَالفَـــتحُ

فالشَّاعر يستدعي في عجز البيت قوله تعالى: **(**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**)**[3]، غير أنّه يوظِّف الآية الكريمة في معنى مغاير لما وردت في القرآن الكريم.

وينزاح الشهاب التلعفري في غزله حين يقتبس من قوله تعالى: **(**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**)**[4] في قوله[5]:

قَالَتْ مَحاسنُ وَجْهَهَا عَجَباً لَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَـــاهَا

وقد يقتبس بعض الشُّعراء التركيب نفسه بتصرف، فقد تصرَّف الملك الأمجد في قوله تعالى: **(**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)** [6]، حين قال[7]:

رأيتَهمُ وقد نَفَـــروا خِفافـــاً وما شُدَّتْ مِن العَجَلِ الكُلُومُ

واقتبس السرَّاج الوراق بناء بيته التالي[8]:

ثَلاثَةَ أَيَّامٍ قَطعْتَ لِطولِهـــا ثَلاثَ شَدَيداتٍ مِن السَّنَواتِ

من قوله تعالى: **(**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ**)**[1].

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص72.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص314؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص20.
3: سورة النصر، الآية (1).
4: سورة البقرة، الآية (144).
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص63.
6: سورة التوبة، الآية (41).
7: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص227. الملك الأمجد، **ديوانه**، ص297.
8: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص257.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتصرَّف ابن الجنان الشاطبي (ت 675) في بيته التالي [2]:

وَبِمُهْجَتِي مَعْبُودُ حسنٍ مِنْهمْ فَلِذَا عَلى عَرْشِ القُلُوبِ قَدْ اسْتَوَى

بقوله تعالى: **(**الرَّحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**)**[3].

وتصرَّف الرَّشيد بن بدر النابلسي في قوله تعالى: **(**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**)**[4] واستبدل كلمة (مذلة) بكلمة (عذاب) حين قال[5]:

وصَبَّ عَلى الأعداءِ شَوْطَ مَذَلَّـــةٍ وانأ فِيهم رُغْمَ وأوجههم ربد

ويتَّكِئ رشيد الدِّين الفارقي (ت 689)هـ على القرآن الكريم في قوله في ابن خلكان حين قدم من مصر إلى الشام[6]:

أنتَ في الشَّامِ مثلُ يوسفَ في مِصـــ ـــرَ وعندِي أنَّ الكِرَامَ جنـــاسُ

ولكـــلٍّ ســـبعٌ شِـــدَادٌ وبعـــدَ الـــســـ ـــبعِ عامٌ فيهِ يُغاثُ النَّاسِ ثانِي

وممَّا لاشك فيه أنَّ الشَّاعر كان يستحضر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ _ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[7]

كما اقتفى بعض الشُّعراء أساليب الآيات القرآنيّة، فالشَّاعر الشهاب محمود في قوله[8]:

الحمدُ للهِ ذُلَّـــت دَولـــةُ الـــصُّلبِ وَعزَّ بالتُّركِ دينِ المُصطَفَى العربِي

فالشَّاعر يقتفي في افتتاحية قصيدته هذه السُّور القرآنيّة الكريمة، وهي (الفاتحة، الكهف، سبأ، فاطر، الأنعام)، فقد قال تعالى في افتتاحية سور الفاتحة:

1: سورة يوسف، الآية (47).

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص263.

3: سورة طه، الآية (5).

4: سورة الفجر، الآية (13).

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص276؛ شعر الرشيد النابلسي، ص116.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص111.

7: سورة يوسف، الآيتان (48، 49).

8 الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص410.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1]، وفي افتتاح سورة الكهف قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [2]، وفي افتتاحية سورة سبأ يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾[3]، وفي افتتاحية سورة فاطر يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [4]، وفي افتتاحية سورة الأنعام يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[5].

ويختم فخر الدِّين ابن لقمان مقطوعته الغزليّة بخواتيم إحدى السُّور القرآنيّة الكريمة المعروفة [6]:

لَوْ وَشَى فيهِ مَن وَشَى ... مَا تسلّيتْ غلمشَا

أنا قد بحــتُ باســمهِ ... يفعلُ اللهُ ما يــشَا

فعجز بيته الثاني اقتباس شبه حرفي لختام آية من سورة آل عمران، فقد قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [7].

ونجد مثل هذا الأسلوب عند أبي شامة المقدسيّ، فاختار لمقطوعته نهاية آية من آيات سورة آل عمران، وهي ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[8]، حيث قال [9]:

قُلتُ لِمَنْ قالَ أمَا تَــشْتَكِي ... مَا قَدْ جَرى فَهوَ عَظيمٌ جَلِيلُ

يَقــبضُ اللهُ تَعَــالَى لَنَــا ... مَنْ يَأخذُ الحقَّ ويِشْفِي الغَلِيلُ

إذا تَوَكَّلنِــا عَلَيْــهِ كَفَــى ... وَحَسبُنَا اللهُ ونِعْــمَ الوَكِيــلُ

1: سورة الفاتحة، الآية (1).

2: سورة الكهف، الآية (1).

3: سورة سبأ، الآية (1).

4: سورة فاطر، الآية (1).

5: سورة الأنعام، الآية (1).

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص44.

7: سورة آل عمران، الآية (40).

8: سورة آل عمران، الآية (173).

9:: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص271.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتصرَّف ظهير الدِّين البارزي (ت 680هـ) بالآية القرآنية، حين قال في شخص رزق توم، ذكر وأنثى، من جارية سوداء[1]:

وخَصَّكَ ربُّ العرشِ منها بتوأمٍ ومن ظُلماتِ البَّحرِ يُستخْرَجُ الدُّررَ

فبيت ظهير الدِّين السابق اقتباس من قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[2].

ويضمن الشيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد بيته التالي معنى من معاني آيات القران الكريم[3]:

يَأْكلُ بَعضُهمْ لَحْمَ بعضٍ ولا يَحْسِبُ في الغِيبَةِ مِنْ بَأسِ

فالبيت السَّابق أخذ الشَّاعر معناه من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[4].

وقد يشيع الشَّاعر الجو القرآني في القصيدة كاملة، كما في قصيدة لشيخ الشُّيوخ عبد العزيز (ت 662هـ) التي لا يكاد يخلو أحد أبياتها من اقتباس ألفاظ وتراكيب وقصص القرآن الكريم[5]:

شَرَحْتُ لِوَجْدي في مَحَبَّتِكُمْ صَدْرا وصَبَّرَني صَحْبي فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرا
فَيا يُوسُفَ الْحُسْنِ الّذي مُذْ عَلِقْتُهُ بِسَيّارَةٍ مِنْ فِكْرَتي قُلْتُ يا بُشْرى
لَقَدْ حَلَّ مِنْ قَلْبي بِوادٍ مقَدَّسٍ لِيَقْبِسَ مِنْ قَلْبي الْكَلِيمِ بِهِ جَمْراً
لَئِنْ خَوَّفَتْني مِنْ تَجَنّيهِ عُذَّلٌ فإِنَّ مَعَ الْعُسْرُ الّذي زَعَموا يُسْرا
وقُلْتُ لِعُذّالي أَلَمْ تَعْرِفوا الهَوى لَقَدْ جِئْتُمُ شَيْئاً بِعَذْلِكُمُ نُكْرا
وَأَيُّ عَذولٍ كانَ في الْحُبِّ عاذِري فَذاكَ الّذي قَدْ يَسَّرَ اللهُ لِلْيُسْرى

في البيت الأول، يستمدُّ الشَّاعر تركيبه وألفاظه من سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[6]، أمَّا البيت الثاني فيأخذ الشَّاعر من سورة

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص54.
2: سورة النحل، الآية (14).
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص447.
4: سورة الحجرات، الآية (12).
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص360.
6: سورة الكهف، الآية، 78.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوسف، بعض أحداث قصته، من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]، أمَّا البيت الثالث، فقد التفت الشَّاعر إلى بعض أحداث قصة سيدنا موسى **u** في عدد من السور الكريمة، فقد اقتبس من سورة النمل، قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2]، ومن سورة القصص الآيتين ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ _ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3]، ومن سورة طه قوله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[4]، ومن سورة النازعات الآية ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[5]، وفي البيت الرابع يعود الشَّاعر لسورة الشَّرح، من قوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[6]، وفي البيت الخامس يسترفد الشَّاعر من سورة الكهف، من قوله تعالى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾[7]، وفي البيت السادس، يوظِّف الشَّاعر ألفاظ ومعان من سورتين، الأولى، سورة الأعلى، من قوله تعالى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾[8]، والثانية من سورة اللَّيل، من قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[9].

1: سورة يوسف، الآية (19).

2: سورة النمل، الآية (7).

3: سورة القصص، الآيتان (29، 30).

4: سورة طه، الآية (12).

5: سورة النازعات، الآية (16).

6: سورة الشرح، الآية (6).

7: سورة الكهف، الآية (74).

8: سورة الأعلى، الآية(8).

9: سورة الليل، الآية (7).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستدعى الشُّعراء القصص القرآني، فقد استدعوا شخصية يوسف u u ، عند حديثهم عن الجمال، خاصَّةً جمال الغلمان، كما في قول الجعبري (ت732هـ) متغزِّلاً[1]:

لمَّا بَدَا يُوسفُ الحُسنِ الذي تَلَفَّتْ ... في حبِّهِ مُهجتِي استحيتْ لَواحِيهِ

فَقُلْتُ لِلنُّسْوَةِ اللاَّتِي شِغفنَ بِهِ ... فذلكنّ الذي لَمْتُنَّنِي فِيهِ

وقال الرَّشيد النابلسي متغزِّلاً في أحد الغلمان[2]:

طبعت على دينِ الوفاءِ وَشَرْعِهِ ... فَمَا شِيْمَتِي لِلغَدْرِ أنْ تطبعَا

فَيَا يُوسُفِي الحُسنِ لَمَ غُصْنَ قَدّكَ الرَّ ... طِيب بوصلٍ لا يَرَى قَط ممنعَا

ويستدعي ابن النَّبيه الشَّاعر شخصية يوسف u في تغزُّله بأحد الغلمان، كما يستدعي أحداث قصته، حين باعه أحد السيَّارة [3]:

يا مَنْ حَكى فِي الحُسْنِ صُورَةَ يوسُفٍ ... آهٍ لَوَ أَنَّكَ مِثْلَ يُوسُفَ تُشْتَرى

وفي سياق تغزُّله بأحد الغلمان، يستعين محيي الدِّين بن عبد الظاهر (ت 692هـ) بجمال يوسف u لبيان حسن الغلام [4]:

فَيَا حَبِيباً بِهِ قَدْ صرتُ مِن زَمَنِي ... أَشْكُو وَكُنْتُ عَليهِ أَشْكُرُ الزَّمَنَا

أشبهتَ يُوسفَ فِي حُسنٍ وَزِدْتَ عَلى ... شَارِيهِ بالبَخْسِ يَا مَنْ قَدْ غَلا ثَمَنَا

ويستدعي عرقلة الكلبي قصة سيدنا يوسف u ، في سياق مدحه للملك النَّاصر، فالملك النَّاصر يقطع أيدي الرِّجال مثل تقطيع النِّساء لأيدهن بسبب جمال يوسف u [5]:

وإِياكُمُ من سميّ النبيِّ ... يوسُفَ ربِّ الحِجا والجمالِ

فَذَاكَ مُقَطِّعُ أيدِي النِّساءِ ... وَهَذا مُقَطِّعُ أَيْدِي الرِّجَالِ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص41. لم أعثر على هذين البيتين في ديوان الجعبري الذي اطلعت عليه، ديوان الجعبري، المطبعة اليوسفية، القاهرة، بدون محقِّق.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص277، شعر الرشيد النابلسي، ص155.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص71.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص187.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص314؛ عرقلة الكلبي، **ديوانه**، ص87.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي إطار حديث الزكي القوصي (ت 640هـ) عن الكتاب الذي وصله من شهاب الدِّين القوصي، يستغل موقف قميص يوسف u حين ألقوه على أبيهِ، فيوظِّف ذاك المعنى لهذا[1]:

سَيَّدي سَيَّدي كِتابُــكَ أَحْلَــى ... مِنْ زُلالٍ عَلى فُؤادِ الصَّادِي
خِلْتُ فِيهِ قَميصَ يوسُفَ لَمَّــا ... أَلْــصَقَتْهُ أَنــامِلي بِفُــؤَادِي

واستدعى بعض الشُّعراء، بعض أحداث قصة سيدنا سليمان u ، كما في قول الشَّاعر ناصر الدِّين ابن النَّقيب في سياق حديثه عن شخص لا يتفقده[2]:

هذا سُليمانُ على مُلكِــهِ ... وَهْوَ بأخبارٍ لَــهُ يُقْتَــدَى
تفقَّد الطَّيــرَ وأجناسَــها ... فَقالَ مَالي لا أرَى الهُدْهُدَا

ويستدعي ابن الذروي (ت 577هـ) بعض أحداث قصة سليمان u في غزله[3]:

كَمْ طَرَتْ شَوْقَاً إليها فِي الرِّياحِ صنى ... فَظَنَّ بَلْقِيس وَافَاهَا سُلَيْمانُ

كما استدعى بعض الشُّعراء قصة سيدنا إبراهيم u ، لاسيَّما مشهد وضعه في النَّار، التي كانت برداً وسلاماً عليه، كما في قول أيدمر السنائي (ت707هـ) متغزلاً[4]:

مُنذُ أَلقيتُ بنفسِي في لَظَى ... خَدِّهَا ألفيتُ بَرداً وسَلامَا

ويستدعي ابن السنينيرة (ت 626هـ)، من قصة عيسى u ، في مدحه للملك الظَّاهر غازي حين أجرى قناة للماء[5]:

أحْيَا رِفاتِ عَفاتُها فَكأَنَّــهُ ... عيسى بإذنِ اللهِ أحْيَا الأعْظُمَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص305.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص325.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص115. **شعر ابن الذروي المصري**، (2010م) تحقيق: مشهور الحبازي، مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها، يافا الغربية – فلسطين، الطبعة الأولى، ص 190.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص215.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص300.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واقتبس الشُّعراء من الحديث النَّبوي الشَّريف، فقد اقتبس أبو شامة المقدسي في قوله[1]:

وقالَ النَّبيُّ المُصطفَى إنَّ سَــبعةً يُظِلُّهُم اللهُ العَظــيمُ بِظلِّــهِ

مُحِبٌّ عَفيفٌ نَاشِــيء مُتَــصدِّقٌ وباكٍ مصلٍّ والإمامُ بِعدْلِهِ

حديث الرَّسول r "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى الْمَسَاجِدِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِى اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[2].

ويوظِّف الملك الأمجد بعض ألفاظ الحديث النَّبوي في شعره في قوله[3]:

صَبُورٌ على حُكمِ التفرُّقِ والقِلى شكورٌ لتقليدِ الوِصَالِ وعزْلِهِ

فنلحظ استخدام الشَّاعر بعض ألفاظ الحديث النبوي (صبور، وشكور)، فقد وردتا هاتين اللفظتين في قول الرَّسول r: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[4].

وتأثَّر الشُّعراء بالأسلوب النَّبوي، فاخذوا يحاكون الخطاب النَّبوي، خاصةً في بدايات الأبيات، من ذلك قول عرقلة:

يَا مَعْشَرَ النَّاسِ حَالِي بَينكم عَجَبٌ وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلاَّ اللهُ كَيْــفَ أَنَــا

وقول ابن عنين[5]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص271.

2: الإمام، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، (2010م)، **صحيح مسلم**، تحقيق: رائد بن صبري، دار طويق، الرياض، ج3، ص93.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص228؛ الملك الأمجد، **ديوانه**، ص197.

4: صحيح مسلم، 8، ص227.

5: ابن عنين، شرف الدِّين أبي المحاسن محمَّد بن نصر الأنصاري (ت 630هـــ)، (1958م)، **ديوان ابن عنين**، تحقيق: عبد العزيز الميمني، كراتشي، ج1، ص167.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يا مَعْشرَ الناسِ حالي بينكم عَجَبٌ وليسَ لي بينكمْ يا قومُ أنصارَ

ففي البيتين السَّابقين اقتباس من أسلوب الرَّسول **r** في الخطاب: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِى وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِى وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللَّهُ بِى»[1].

وتأثَّر الشهاب محمود في رثائه لابن فضل الله العمري، بأسلوب الخطاب النَّبوي، إذ قال[2]:

إلى اللهِ أشْكُو فَقْدَ صَحْبٍ رَزِئتَهُمْ وفقدُ ابن فضلِ اللهِ قد عَدَلَ الكُلا

كما تأثر كذلك الشيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد بالأسلوب نفسه حين قال[3]:

إلى اللهِ أشكُو من وجودِي فإنَّنِي تَعِبتُ بِهِ مُذْ كُنتُ في مُبْتَدَأ العُمْرِ

فقد تأثَّر الشَّاعران بأسلوب الخطاب النبوي في دعاء الرَّسول **r**: (اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي وهواني على النَّاس يا أرحم الرَّاحمين)[4].

5.3 الصُّورة الشِّعريّة:

تحدَّث غير واحدٍ عن مفهوم الصُّورة الشِّعريّة وأهميَّتها، ودورها في إيصال الأفكار والمعاني، وما تضفيه على الشِّعر من رونقٍ وجمال، فالجاحظ يقول عن الشعر، بأنَّه: "جنس من التصوير"[5]، وهو بذلك يعد الشعر هو الصورة الشعرية بذاتها، وكأنه يقرر أن الشعر بلا صورة ليس بشعر، أما جابر عصفور فالصورة عنده تختص بطريقة عرض المعاني وكيفية تقديمها[6]، ولعل محمَّد غنيمي هلال قدم

1: الإمام مسلم، صحيح مسلم، 3: 108.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، 2: 423.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، 3: 446. علي صافي حسن، **ابن دقيق العيد حياته وشعره**، 113.

4: الإمام مسلم، صحيح مسلم، 1: 104.

5: الجاحظ، عمر بن بحر، **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1948، ج3، ص 132.

6: عصفور، جابر، (د.ت) **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، دار المعارف- القاهرة، ص 282.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفهوما أعمق حين قال عن الصورة الشعرية:" الوسيلة الفنية لنقل التجربة في معناها الجزئي والكلي، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء[1]"، واقترب عبد الجليل عبد المهدي لمفهوم محمَّد غنيمي هلال حين قال: "الصورة الشعرية هي الوسيلة لتجسيد الإحساس والتعبير عن المشاعر والأفكار والموقف من الحياة[2]"، وقدمها أحمد الهيب على الموسيقى في الشعر حين قال: "بل ربما تفوقت على الموسيقى عند أولئك الذين لا يعتمدون على حاسة السمع كما يعتمدون على غيرها[3]".

وفي كتاب (فوات الوفيات) ظهر اهتمام لدى الكثير من الشُّعراء بالصورة الشعرية، وقد اعتمدوا على الأسلوب الفني التصويري في نقل أفكارهم ومشاعرهم، سواء أكان ذلك بالأساليب البيانية المعروفة أم بالأسلوب الوصفي الذي يعتمد على ظلال الكلمات وإيحاءاتها في رسم المشهد، وإشاعة الجو الذي يريده الشَّاعر.

ووجد في هذا الكتاب كثير من الصور التقليدية التي اعتمد فيها الشُّعراء على شعراء سابقين، خاصة الصور المتعلقة بالمرأة، ولكن نجد في ثنايا هذا الكتاب بعض الصور التي يمكن اعتبارها صور مبتكرة، وهنا يظهر لنا أنَّ هناك شعراء قد حاولوا الإتيان بتشبيهات واستعارات جديدة، وإخراج معان لم يسبق إليها، كما في قول شهاب الدِّين محمود الحلبي يصف احدهم بالبدر وهي صورة مستهلكة، لكن التجديد وجمال التخيل هو في استغلال الشَّاعر للموقف وتوظيفه للصورة، فقد استعار صفة الشجر وهي الإثمار وطوعها للتعبير عن جمال ما رآه [4]:

رأيتُ في بستانِ خِـلٍّ لنَـا ... بدرَ دُجَىً يَغرسُ أشـجارَاً

فقلتُ إنْ أنجبَ هَـذَا الـذِي ... يُغرسـهُ أثمـرَ أقْمَـارَا

1: هلال، محمَّد غنيمي، (د.ت)، **النقد الأدبي الحديث**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص443.

2: عبد المهدي، عبد الجليل حسن، (1989م) **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية**، دار البشر للنشر والتوزيع، الجامعة الأردنية، ص 311.

3: الهيب، **الحركة الشعرية في حلب الشهباء زمن المماليك**، ص433، 434.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، 4: 85.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحشد بعض الشُّعراء أكثر من تشبيه في البيت الواحد، رغبة في إظهار المقدرة التصويرية والإتيان بأكثر من تشبيه في البيت الواحد، كما في قول جمال الدِّين الشَّاعر، وقد أبدع في تصويره هذا[1]:

كأنَّ السَّحابَ الغرَّ لمَّا تَجمعــتْ وقد فَرَّقتْ عنها الهُمومُ بجمعِهــا
نياقٌ وَوَجْهُ الأرضِ قَعْبٌ وَثلجُها حَليبٌ ومرُ الرِّيحِ حالبُ ضرعِها

وجاء العفيف التلمساني بالكثير من الصور في سياق وصفه لروضة، فظهر عناء الشَّاعر وتكلفه في صوره، كما ظهر أنَّه قصد قصداً لكثرة الصور وتعدادها التي لم تصدر عن موقف ومشاعر[2]:

كأنَّ بِها للنَّرجسِ الغَــضِّ أعيُنَــاً تَنبه منها الــبعضُ والــبعضُ نــائمُ
كأنَّ ظلالَ القضبِ فوقَ غديرِها إذا اضطربتْ تحتَ الرِّيــاحِ أراقــمُ
كأنَّ غِناء الورقِ ألحــانُ معبــدٍ إذا رقصت تلــكَ القــدودُ النــواعمُ
كأنَّ نثارَ الشَّمسِ تحتَ غُصونِها دنانِيرُ فــي وقــتٍ ووقــتٍ دَراهــمُ
كأنَّ ثماراً في غصونِ توسوستْ لعــارضِ خفــاق النــسيم تمــائمُ
كأنَّ القطوفُ الــدانياتِ مواهِــبٌ ففي كلِّ غصنٍ ماسنٍ في الدَّوحِ حَاتمُ

ومن الصور التي يمكن القول عنها إنَّها صورة مبتكرة، قول الشَّاعر مهمندار العرب واصفاً إحدى لياليه وقد التقى محبوبته، غير أنَّه ظل مطارداً من الصبح[3]:

وليلةٍ مثلُ عينِ الظَّبيِ وهي معِي قطعتها آمنــاً مــن يقظــةِ الرُّقَبــا
أردفته فوقَ دهم الليــلِ مختفيــاً والصبحُ يركضُ خلفِي خيله الشهبَا
حتَّى دَهَانِي وَعَيْنُ الشَّمسِ فَاترةٌ وَقَدْ جذبتُ بِذيلِ اللَّيل مَــا انْجَــذَبَا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص346.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص75.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص349.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستمدَّ الشُّعراء صورهم من العديد من المصادر، أكثر هذه المصادر هي من الحرب وأدواتها، وهذا ليس مستغرباً فالعصر عصر حروب، وكان من الطبيعي انعكاس ظروف العصر في شعره، كما في قول جمال الدِّين بن النجار متغزلاً جاعلاً عيون محبوبته نبلاً[1]:

ما لهذي العيونِ قاتَلَهَـا اللـــــــــــهُ تسمّى لَواحِظاً وهي نُبْـلُ
ولهذا الذي يـسمونَهُ العِـشْـــــــــقَ مَجازاً وفي الحقيقةِ قتلُ

ويحشد عين بصل من الألفاظ الحربية لتتعاضد في إبراز جمال المحبوبة، فعيون المحبوب نبل ترميه بالسهام، وقوام هذا المحبوب كالرمح [2]:

جِسْمي بِسُقم جُفونه قَـدْ أسْـقَمَا رِيمٌ بسهمِ لِحاظهِ قَلبـي رَمَـى
كالرُّمح معتدلُ القـوامِ مُهفهَـفٌ مرُّ الجَفا لكنَّـه حُلـو اللّمَـى

ويصوِّر عين بصل منثور محبوبته جيشاً من الروم [3]:

كـأنَّ منثورهـا إذْ لاحَ مُبتـسِمَاً جيشٌ من الرومِ بانتْ فيهِ صُلبانُ

وينقلنا الشهاب العزازي في سياق مديحه النبوي لصورة استمدها من الحرب، حيث جسد صبره وله جيش، ولكن هذا الجيش هزم أمام ما واجهه من جمال وحسن، كما شخص العيون بالمقاتل الفتاك التي لا يمكن غلبتها دون معين مثل الصبر[4]:

دَمِي بأطلالٍ ذات الخالِ مطلـولُ وجيشُ صَبْرِي مَهْزُومٌ ومفلولُ
ومن يُلاقِ العُيونَ الفاتكاتِ بِـلا صبرٍ يُدَافعُ عَنهُ فَهْوَ مَخـذولُ

ويلجأ شرف الدولة ابن منقذ لإحدى أدوات الحرب، حيث يجعل لمحبوبته دروعا تحميها من ضرب الأيدي، لكنه يتساءل إن كان لها دروع تحميها من أعين الناس[5]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص19.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص36.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص38.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص95.
5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص179.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لها دُروعٌ تقيها مـــن ســـهامِ يـــدٍ فَهَلْ دُرُوعٌ تَقِيها أســـهمَ المُقَـــلِ

وربط سبط ابن عبد الظاهر بين قامة مليح وسطه مشدود ببند أحمر والرُّمح ربطاً جميلاً [1]:

وبِي قامةٌ كالغصنِ حينَ تَمايَلَـــتْ وكالرُّمحِ في طعنٍ تُقَـــدُّ وفِـــي قَـــدِّ

جَرَى من دَمِي بَحرٌ بسهمِ فُراقِهِ فخضَّبَ منهُ ما على الخَصْرِ من بندِ

ونجد لدى تقي الدِّين السروجي صورة منتزعة من البيئة الحربية، فقد جعل لمحبوبته ميدان تسابق فيه الكثير من الفرسان لنيل هذه المحبوبة، لكنه امتطى الصدق فسبق الجميع[2]:

كَمْ جالَ في ميدانِ حبكِ فـــارسٍ بِالصِّدْقِ فِيْكِ إلى رِضَاكِ سبقتُهُ

والصفي الحلي يشبِّه أحد الغلمان بالسيف وقد لاح [3]:

وَلاحَ كَالصارِمِ المَصقولِ أَخلَصَهُ تَتَبُّعُ القَينِ مِن شَينٍ وَمِن كَلَفِ

واستمدَّ الشهاب التلعفري من بعض الأدوات الحربية لتصوير مكانة أحد أصدقائه حين بعث له بأبيات[4]:

بِأبِي أنتَ يَـــا خَلِيلِـــي وأمَّتِـــي أنتَ قَوسِي إذَا رَميت وسَهمِي

أنتَ واللهُ لِـــي حُـــسامُ جِـــرازٍ فيهِ للنَائبـــاتِ أعظـــمُ حـــسمِ

ووجد الشُّعراء في الطبيعة الكثير من مبتغاهم فأخذوا ينهلون صورهم الشعرية منها، فالشَّاعر عين بصل يستمد تصوير لجمال وجه محبوبه من الطبيعة، فيعمد لتشبيه ببستان[5]:

كأنَّما وجهُـــهُ فيـــهِ لِعاشِـــقِهِ بستانُ والخالُ في البستانِ جنّانُ

وقد يستمد الشُّعراء من الطبيعة صورا تمثل الجانب العنيف فيها، فكما أنَّ في الطبيعة صوراً تمثل الجانب الزاهي الزاهر المفرح المحبب للنفوس، فإنَّ فيها جانباً

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص94.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص187.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص342.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص70.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص38.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آخر موازياً لهذا يمثل العنف والقوة، وغالباً ما تستخدم هذه الصور للدِّلالة على الجوانب المخيفة، كما في قول الشهاب محمود، الذي جعل جيش الأشرف خليل في ضخامته واقتلاع كل ما في طريقه كالسيل[1]:

وَجِئْتُهَا بِجيُوشٍ كَالــسُّيُولِ علَــى أمْثَالِها بَيْنَ آجامٍ مَنَ القَضبِ

ويجمع الصفي الحلي في استمداد صوره بين الطبيعة وأدوات الحرب، فالممدوح عطاءه مثل الغيث، وشجاع كالأسد، بهي جميل حازم كالسيف، ويمنح الجواهر والأعطيات كالبحر[2]:

كَالغَيثِ يَبعَثُ مِن عَطاهُ وابِلاً سَبطاً وَيُرسِلُ مِن سَطاهُ حاصِــبَا
كَاللَيثِ يَحمي غابَــهُ بِزَئيــرِهِ طَوراً وَيُنشِبُ في القَنيصِ مَخالِبَا
كَالسَيفِ يُبدي لِلنَواظِرِ مَنظَراً طَلقاً وَيُمضي في الهَياجِ مَضارِبَا
كَالسَيلِ يُحمَدُ مِنهُ عَذباً واصِلاً وَيَعُــدُّهُ قَــومٌ عَــذاباً واصِــبا
كَالبَحرِ يُهدي لِلنُفوسِ نَفائِــساً مِنــهُ وَيُبــدي لِلعُيــونِ عَجائِبــا

ويطلب الزكي بن أبي الإصبع أن ينتخب للقريب ألفاظاً كنسيم الأسحار معتمداً في ذلك حسن التعليل في توليد الصورة[3]:

انتخبْ لِلقَرِيبِ لَفْظَــاً رَقيقــاً كَنَسِيمِ الرِّياضِ فِي الأسْحَارِ
فَإذَا اللَّفظُ رقَّ شَفَّ عَنِ المَعْــ نَى فأبْدَاه مثلَ ضُوءِ النَّهارِ

ويستمد السراج من الظواهر الطبيعية صورة جميلة حيث نقلنا لمشهد البرق وهو يلمع، فجعل هذا المحبوب في تجلده وتصبره كالبرق الذي يبتسم في حين تبكي الغوادي:

يُبدِي التَّجلُّدَ والأجْفَــانُ تفــضحهُ كالبرقِ تَبكِي الغَوادِي وَهْوَ يَبتسمُ

ويلتمس نجم الدِّين ابن إسرائيل من الطبيعة صورة جميلة، عندما صور آثار أقدام الخيل أهلة، وآثار أقدام الجمال بالبدور، فوفق الشَّاعر في رسم هذه الصورة[4]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص413.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص337.
3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص365.
4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص384.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كأنَّ مَوَاطِي الخَيْلِ فِيْهَـــا أهلـــه وآثَارُ أخْفَافِ المطي بُدُوُر

واعتمد الشُّعراء في صورهم على الحياة الاجتماعية، فجلبوا منها الكثير من الصور، فالشَّاعر ابن نفادة يلجأ للعبة الشطرنج للتصوير[1]:

إنَّ أعوزَ الحـــاذِقُ فاســـتبدَلُوا مكانَـــهُ آخـــرَ لـــمْ يحـــذقِ

فلاعبُ الشَّطرنْجِ مـــن شَـــأنِهِ وَضعُ حَصَاةٍ مَوضعُ البيـــذقِ

ويصوِّر ناصر الدِّين ابن النقيب نفسه والجنود الذين معه معتمداً على ما يشاهده في حياته، حيث إنَّهم لا يتعدون "زبالة" جمعت لتحرق[2]:

نحـــنُ إلاّ غـــسالة لمرقـــدا ر قدورٍ تفرغَّتْ وزبَـــادِي

نحنُ إلاّ زبالةً ضمَّها الزبَّـــ ـــالُ مِنْ فَوْقِ الكَوْمِ لِلوِقَادِ

ويرسم سعد الدِّين الفارقي صورة جميلة للعذار الذي نبت في وجه محبوبه عندما شبه هذا الشعر بثوب حداد[3]:

قَدْ فصَّلَ الشِّعرُ على خِـــدِّهِ ثوبَ حِدادٍ حِينَ مَاتَ الجَمَالُ

ويلتفت محي الدِّين ابن عبد الظاهر إلى العملة المستخدمة وقتذاك ليجذب منها تشبيها لوجه محبوبه [4]:

وَجه حكَى الدِّينارَ إلاَّ أنَّـــه عَنْ خَاطِرِي وَنَوَاظِرِي لَمْ يُصرَفِ

وحين تعرَّض جمال الدِّين ابن شيث للضرب من أهله بعد أن عاد من عند السلطان بدون شيء، استمد صوره من مشاهد الأعراس، وضرب النحاس[5]:

وَتَخَالَفَتْ بِيضُ الأكُفِّ كأنَّها الـــ تَصْفِيقُ عِنْدَ مَجَامِعِ الأعْرَاسِ

وَتَطَابَقَتْ سودُ الخِفَـــافِ كأنَّهـــا وَقْعُ المَطَارِقِ مِن يَدِ النَّحاسِ

ويربط زين الدِّين ابن الوردي بين جمال احد الغلمان وقصر فوق الثلج [6]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص84.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص329.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص47.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص189.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص313.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص157.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مليـــحٌ ردفُـــهُ والـــساقُ منـــهُ كبنيانِ القصورِ علـــى الثُّلُـــوجِ

ويستمد الشَّاعر نفسه إحدى صوره من الطعام حيث يقرن بين لون بشرة احد الغلمان والجبن [1]:

مدَّ في السفرةِ كفـــاً ترفـــاً فَحَسِبْنَا أنَّ في السفرةِ جِبْنَا

ويلتقط عين بصل صورة له من بعض الألعاب التي كانوا يعنون بها، فقد جعل الخال كالكرة، والصدغ الجوكان، والخد هو الميدان[2]:

كأنَّما خاله لَمَّا بَـــدَا كـــرةٌ والصَّدغُ جوكانها والخدُّ مِيدانُ

وتظهر في بعض الصور اعتماد الشَّاعر على ثقافته الخاصة به، كما في قول جعفر العلوي في مهندس مليح الصورة[3]:

وَذِي هَيْئَة يَزْهَى بِحُسْنِ وَصَـــنْعة أموتُ بهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَأبْعَـــثُ

مُحِيطُ بأشكالِ الملاحـــةِ وَجْهَـــهُ كـــأنّ بِـــهِ إقليدســـاً يَتَحَـــدَّثُ

فَعارضه خـــطّ اسْـــتِوَاءٍ وَخَالَـــهُ بِهِ نُقْطَةٍ والصَّدْغُ شَكْلُ مُثَلَّثُ

وتنعكس ثقافة عماد الدِّين الدنيسيري الدِّينية في صورته التالية، حيث يصور دمعه بالمقذوف، وقلبه بالمجروح[4]:

وَقُلْتُ شُهُودِي في هَواكَ كَثِيرةٌ وَأصْدَقُها قَلْبِي وَدَمْعِي مَسْفُوحُ

فقالَ شهودٌ ليسَ يُقبلُ قَـــولُهُم فَدَمْعُكَ مقذوفٌ وَقَلْبُكَ مَجْرُوحُ

واعتمد الشُّعراء على حواسهم في بناء الصور، وكانت الصور المرئية التي تعتمد على البصر، مثل اللون، والهيئة، والحركة، هي أكثر الصور حضوراً لدى الشُّعراء في كتاب (فوات الوفيات)، كما وجدت صوراً تعتمد على الحواس الأخرى، مثل الصورة السمعية، والذوقية والشمية.

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص157.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص38.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص285.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص393.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الصور البصريّة الصورة الحركيّة، كما في قول أبي جلنك الشَّاعر الذي صوَّر نمو الشعر في وجه محبوبه بالوحوش التي تحط في مكان ما فيهرب من في هذا المكان[1]:

كأنَّني بوحوشِ الشِّعرِ قَدْ نَزَلَتْ بِوَجْنَتَيْكَ وَبِالعُشَّاقِ قَدْ نَفَرُوا

وشبَّه الشيخ مجد الدِّين ابن الظهير جريان الماء في الجدول بالسهم السريع[2]:

فمن بركة فيحاء يدعج ماؤها ومن جدول ريان كالسهم يمرق

وأمَّا الصور اللَّونيّة فقد كانت كثيرة ومتعدِّدة، ومن هذه الصور ما قاله الشَّاعر عين بصل الذي صور جمال محبوبته معتمداً على الصور اللَّونيّة الطبيعيّة [3]:

كأنَّما حُمرةَ التُّفاحِ خدّ رَشاً لِي فِي هَوَاهُ عَن السِّلوانِ سِلوانُ

كأنَّ نارنجَها نارٌ وَبَاطُنُــهُ ثَلْجٌ وَفِيهِ لُجينَ وَهْــوَ عقيــانُ

وربط ابن الحلاوي الشَّاعر بين لون الجمر وخد محبوبه، مستغلاً لون الجمر الأحمر ليبيِّن حمرة خد محبوبه الذي التي كان لها تأثيرها على قلب الشَّاعر[4]:

عَلى خدّهِ جَمْرٌ مِنَ الحُسنِ مُضرمٌ يَشُبُّ وَلَكنْ فِي فُؤادِي حَرِيقُهُ

وواءم ابن عز القضاة بين لون ضوء الشمعة وهو منتشي من أعلى الشمعة ولون نرجسة منتشية كذلك[5]:

وَخَضْرَاءُ يَبْدُو وَقْدُهَا فَوْقَ قَدَّها كَنَرْجِسَةٍ تَزهَى عَلى الغُصُنِ النَضْرِ

ويبدع ابن النبيه في تصوير العمر، حيث يشبّه العمر بكأس مملوء فيظهر لون سطحه جميلاً، لكن قد يكون قاعه غير مستساغ[6]:

فَالعُمْرُ كَالكَأسِ تُستَحْلى أوائِلُهُ لكِنَّــهُ رُبَّمــا مُجَّــتْ أواخِــرُهُ

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص61.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص308؛ ابن الظهير الأربلي، **ديوانه**، ص57.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص38.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص143.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص181.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص70؛ ابن النبيه، **ديوانه**، ص7.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويستخدم ابن أبي حصينة صورة ذوقيّة في بيان أخلاق ممدوحه، إذ يجعل أخلاقه أشهى من الماء والخمر [1]:

فَتىً وَجهُهُ أَبهى مِنَ البَدرِ مَنظَراً وَأَخلاقُهُ أَشهى مِنَ الماءِ وَالخَمرِ

ويستهجن محي الدِّين ابن عبد الظاهر من يدعون عدم طيب ريق محبوبه متهما إياهم بعدم المعرفة والتمييز [2]:

مَنْ قالَ ريقتَــهُ الــشَّهيةَ قرقــف للرِّيقِ لمْ يعــرفْ ولا للقرقــفِ

وطعم ريق السَّاقي لدى سيف الدِّين ابن المشد يكاد يكون كالمسك [3]:

من يَدِ ساقٍ لهُ رضــابٌ كالمسكُ لا بلْ جناهُ أطيبُ

يعجبني خــالُ وجنتيــهِ والمسكُ في الجلنارِ أعجبُ

وفي سياق تغزُّله يستخدم نجم الدِّين ابن اسرائيل صورة شميّة في بيان أثر محبوبته في الأرض التي تنزل فيها [4]:

وإنْ فَارَقُوا أرْضَاً غَدَتْ وَرِمَالُها مِنَ الطِّيْبِ مسكٌ والتُّرابُ عبيرُ

ويمزج الزكي القوصي بين الصُّورة الذوقيّة واللَّمسيّة والشميّة [5]:

سَيِّدي سيِّدي كِتابُكَ أحْلَــى من زلالٍ على فُؤادِي الصَّادِي

خلتُ فيهِ قميص يوسف لَمَّا ألــصقته أنَــاملِي بِفُــؤَادِي

كررَّ اللَّثْمَ يا فَمِي وترشَّــفْ مِنهُ آثارَ فضلِ تِلــكَ الأيّــادِي

ونجد لدى الشَّيخ مجد ابن الظهير صورة سمعيّة عندما ربط صوت التلاميذ في جامع دمشق بصوت النَّحل [6]:

كأنَّ مجاجَ النَّحلِ فِــي لهــواتِهم إذا رَجعُوا الأصواتَ فِيها وأطلقُوا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص332.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص188.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص52.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص384.

5: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص305.

6: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص308؛ ابن الظهير الاربلي، **ديوانه**، ص57.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذا الكتاب- فوات الوفيات- لم تكن الصور جزئيّة فقط، بل أنَّ هناك صوراً تعدُّ لوحات كبرى رسمها الشُّعراء من خلال التجسيد والتشخيص، ومن التجسيد قول الشَّاعر ابن الحلاوي في رثاء أحد أصدقائه مصوِّراً إظلام الدَّهر، فمثّل الصُّبح وقد أسره الظلام حزناً على الفقيد، واللَّيل يرفل في ثياب الحداد، كما صوَّر توجّسه من فكّ الصَّباح لهذه القيود[1]:

والصُّبْحُ مأسورٌ أجدّ لأسرِهِ جُـــنْحُ الظَّـــلامِ تَأسُّـــفاً لِفَقِيـــدِهِ
واللَّيلُ يَرفلُ في ثيابِ حِدَادِهِ والصُّبحُ يرسفُ في فُضُولِ حَدِيدِهِ
ولذاكَ لم تنمْ الجُفونُ مَخافةً من أن يُعانِي الصُّبحُ فكَّ قُيـــودِهِ

والزَّمان عند ابن المنير يصيبه المرض، وله أبناء يرجون شفاءه، والقضاء شخصاً يرحل وينزل[2]:

إذا اعتلّ الزَّمانُ فمنـــكِ يَرْجُـــو بَنُو الأيّـــامِ عاقبـــةَ الـــشِّفَاءِ
وإنْ يَنـــزِل بِـــساحَتِهِم قَـــضاءُ فأنتَ اللُّطْفُ في ذَاك القضاءِ

والملك الأمجد يجعل من الشَّوق شخصاً يحمل مراسيله لأحد أصدقائه، ويطلب من صديقه أن يسأل النَّسيم كي يهديه تحية لأنَّه يُجيد ذلك[3]:

انّـــا لنُتحِفُنـــا بـــالأُنسِ كتـــبكمُ وإنْ بعدتُمْ فإنَّ الـــشوقَ يُـــدنيها
وكيف نضجرُ منها وهي مُذْهِبَـــةٌ مِن وحشةِ البينِ لوعاتٍ نُعانيها
فإنْ وصفتُمْ لنا فيهـــا اشـــتياقَكُمُ فعندنا منكمُ أضعافُ مـــا فيهـــا
سَلوا نسيمَ الصبَّا تُهـــدي تحيَّتنـــا إليكمُ فَهِي تَدْرِي كَيْفَ نُهْـــدِيهَا

ورسم راجح الحلي لوحة متكاملة حين أضفى على بعض الأشياء صفات حسيّة وحيّة، فالدهر أشرق وجهه بعد العُبوس، بينما أصبح وجه الشّرك أسود، والكون ينادي بأعلى صوته[4]:

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص164.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص149.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص227؛ الملك الأمجد، **ديوانه**، ص330.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص15؛ راجح الحلي، **ديوانه**، ص85.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَهَلَّــلَ وَجْــهُ الــدَّهرِ بعــدَ قطوبِــهِ وأصْبَحَ وجهُ الشِّركِ بالظلمِ أسودَا
ونَادَى لِسانُ الكَوْنِ فِي الأرْضِ رَافِعاً عَقِيرَتَهُ فِــي الخَــافِقِين وَمُنْــشِدَا

كما توسَّل الشُّعراء بالتشخيص فإذا بالأشياء الجامدة تغدو كالكائنات الحية، وهنا لا بد من التنبه لكثرة هذا الأسلوب في كتاب فوات الوفيات، غير أنَّ الباحث يكتفي بعرض بعض الأمثلة التي رآها تشكل النموذج الأفضل لذلك، منها قول علاء الدِّين ابن غانم، الذي جعل من الروض إنساناً زاره، والغصن يرقص، والنسيم يدافع عن الغصن فيكر على كل من يقترب منه، والأشجار والماء ترجلت حين تمشى حولها النسيم، ففرح الورق والغصون، بينما الأرض عرق وجهها من الخجل [1]:

وأسألُ فيها مبسمَ الــرَّوضِ قبلــةً فيبــرزُ مــن أكمامِــه لــي أيــديَا
فللـــهُ روضُ زرتـــهُ متنزهـــاً فأبْدَى لعَينِي حُسْنَ مرأى بلا رَيــا
غَدا الغصنُ فيه راقــصاً ونــسيُمه يكــرَّ علــى مــن زاره متعّــديا
ترجَّلتْ الأشجارُ والمــاءُ خَــرَّ إذْ نسيمُ الصِّبا أضْــحَى بــهِ مُتمــشِيَا
تُغنِي لديهِ الورقُ والغصنُ راقصٍ فيعرقُ وجهُ الأرضِ من كثرةِ الحَيَا

وخلع فتح الدِّين ابن سيد النَّاس صفات آدمية على العديد من الجمادات، فالسحب تبكي، والدَّوحة ترقص، والغُصن منتشٍ كأنه شرب خمرا [2]:

فالسحبُ تبَكيهِ بَلْ تسقيهِ هاميــةً وكيفَ تبكِي مُحباً نالَ ما طَلَـــــبَا
فطوقت جيدَها الورقَاءُ واختضبتْ لهُ وغنَّتْ علــى أعوَادِهــا طَرَبَــا
ومالت الدوحةُ الغنــاءَ راقــصةً تَصبُو وتنثر من أوْرَاقِها ذهَـــــبَا
والغصنُ نشوانُ يثنيهِ الغَرامُ بِــهِ كأنَّهُ من حُمَيّا وجــدِهِ شَـــــــرِبَا

ويصوِّر الشهاب محمود بروج قلعة عكا مثل أبي لهب، وجعل النَّار تجور على كل هذه القلعة، كما صوَّر الدِّين شخصاً زالت مصيبته بفضل هذه النَّار، والبحر يعفو

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص83.
2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص289.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن عدد منهم ليخبروا من يصادفهم بهول الأمر، كما يضفي الشهاب محمود على مدينتي "عكا وصور" صفات أنثويّة، فقد تبعت مدينة صور مدينة عكا في الخراب[1]:

أضحتْ أبَا لَهبٍ تلكَ البُروجُ وَقَدْ ... كَانَتْ بِتَعْلِيقهشا حَمَّالَــةَ الحَطَــبِ
وتمّت النعمةُ العُظمَى وقد كملت ... بِفتحِ صورٍ بِلا حصرٍ ولا نَــصَبِ
وجَارَت النَّارُ في أرْجَائِها وعَلَتْ ... فأطفأتْ مَا بِصَدْرِ الدِّينِ مِن كَــرَبِ
وأفلتَ البَحْرُ مِنْهُم مِن يخبّرُ مَــنْ ... يَلْقَاهُ مِن قَوْمِهِ بِالوَيْــلِ والحَــرْبِ
أختانِ فِي أنَّ كلاًّ مِنهُما جَمعــت ... صَلِيبة الكُفْرِ لا أخْتَانِ فِي النَّــسَبِ
لمَّا رأتْ أختها بالأمسِ قَدْ خَرِبَتْ ... كانَ الخُرابُ لها أعْدَى مِنَ الجَرَبِ

ويدعو مجير الدِّين ابن تميم لوادي النيربين الذي قام بإكرامه، فمدَّ له بساطاً من الزَّهر حين علم بقدومه، وجعل الماء في خدمته، فقام بخدمته على خير وجه[2]:

رَعَى اللهُ وادِي النيربينِ فَــإنَّني ... قَطَعْتُ بِهِ يَوْماً لَذِيذاً مِــنَ العُمْــرِ
دَرَى أنَّني قَــدْ جِئْتَــهُ مُتَنَزِّهــاً ... فَمَدَّ لأقْدَامِي بِــساطَاً مِــنَ الزَّهْــرِ
وأخدمني الماءَ الزُّلالَ فحيثما الــ ... تَفتُّ رأيتُ الماءَ في خِدمتِي يَجرِي

ويستغلّ محي الدِّين ابن عبد الظاهر تعاقب الفصول ليصوِّر حال دمشق، فهي كالبشر تضحك وتبصق، ذلك في فصلي الربيع والشتاء[3]:

لا تلُومُوا دِمــشقَ إن جِئتُمُوهَــا ... فَهِي قد أوضَحَتْ لَكُمِ ما لَــدَيهَا
إنَّها في الوُجُوهِ تَضحكُ بالزَّهْــــ ... ــرِ لِمَنْ مَرَّ فِي الرَّبيعِ عَليهَــا
وتَرَاها بالثَّلجِ تَبصقُ فِــي لحــــ ... يةِ مَنْ جَاءَ فِي الــشِّتَاءِ إليهَــا

ويصوِّر بدر الدِّين الذَّهبي شمعة تبكي طول اللَّيل وحيدة حتى لحقها الشيب [4]:

وشَــمْعَةٍ وَقَفَــتْ تَــشْكُو لَنَــا حَرْقَــاً ... وأدْمُعَاً لَمْ تَزلْ تَهمِي سَــوَاكِبُهَا
وَحِيدَةٌ في الدُّجَى مِن طُولِ مَا مَكَثَــتْ ... تُكَابِدُ اللَّيلَ قدْ شَــابَتْ ذوائِبُهَــا

1: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص413.

2: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص61. مجير الدِّين ابن تميم، **ديوانه**، ص41.

3: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص190.

4: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص380.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة:

في هذه الدِّراسة تبيَّن لنا أنَّ الكتبي لم ينل كثيراً من العلم، غير انه ثقف نفسه من خلال الكتب التي كان ينسخها، مع أنَّه تتلمذ على بعض الشُّيوخ والعلماء، ولكن بشكلٍ غير مثالي، وقد ألَّف ثلاثة كتب، أهمها كتاب (عيون التواريخ)، وكتاب (فوات الوفيات)، وكتاب (روضة الأشعار وحديقة الأزهار)، وسلك الكتبي في ترتيب تراجمه في كتابه (فوات الوفيات) نظام التسلسل الأبجدي، وضمَّ كتابه أعلاماً مختلفين، فمنهم الملك والأمير والشَّاعر والقاضي والمحدث والعالم وغير ذلك، كما أنَّ هذه الأعلام من بيئات مختلفة، إلاَّ أنَّ بيئة مصر وبلاد الشام كان لها النصيب الأكبر في الكتاب، كما أنَّ هؤلاء الأعلام من عصور مختلفة، إلاَّ أنَّ أكثرهم كانوا ممَّن عاشوا وتوفوا في القرنين السادس والسابع الهجريين إضافة للنصف الأول من القرن الثامن الهجري.

وذكر الكتبي أنَّ سبب تأليفه لكتابه هو تدارك ما فات ابن خلكان من تراجم، وظهراعتماد الكتبي في كتابه فوات الوفيات على معاصره صلاح الدِّين الصفدي، إذْ كان عالة عليه، فقد كان ينقل منه كثير من التراجم، أو بعبارة أخرى كان يقوم بتلخيص الكثير من تراجم الصفدي.

وفي ترتيبه لعناصر التراجم لم يلزم الكتبي نفسه منهجاً واحداً واضحاً، فقد كان يذكر اسم المترجم له كاملاً في بعض التراجم، بينما يختصر من الاسم المترجم له في تراجم أخرى، وكذلك مع باقي عناصر الترجمة مثل: مكان وتاريخ الولادة والوفاة والمؤلفات وغيرها، فقد راوح بين ذكرها وإهمالها، ولم يرتسم طريقة واحدة يخضع نفسه لها في كل التراجم، بل تعددت طرائقه في ذلك.

وحوى الكتاب موضوعات شعرية كثيرة، كان في مقدمتها موضوع الغزل الذي استحوذ على نسبة كبيرة من الكتاب، إذ كانت نسبته أكثر من باقي الأغراض الأخرى مجتمعة، وكانت نسبة المقطوعات الشعرية هي الأكثر مقارنة بالقصائد الكاملة، عدا عن القصائد التي لم يصلنا إلا مقدماتها أو أجزاء قليلة منها.

وكان شعر الغزل في الكتاب ثلاثة أقسام هي: الغزل العفيف، وفي هذا الشعر سار الشُّعراء على طرق أسلافهم في كثير من جوانبه، ولم يكن هناك جوانب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تجديدية فيه، أمَّا الغزل الصريح، فقد سار فيه الشُّعراء على نهج عمر بن أبي ربيعة الذي كان يعدُّ نفسه مطلوباً لا طالباً، ومعشوقاً لا عاشقاً، والنوع الأخير الغزل الغلماني الذي كان امتداد للتغزُّل بالغلمان منذ زمن أبي نوَّاس وغيره، وكان لدخول العناصر الجديدة على المجتمع العربي دور في إشاعة هذا اللون، كما أنَّه ارتبط لحد كبير بمجالس اللهو، غير أنَّ هناك من هذا الغزل قيل بقصد المتعة والإطراف، ولم يكن نابعاً من عاطفة صادقة.

والغرض الثاني في الكتاب، كان شعر المدح الذي لم يكن كثيراً، فقد كان يذكر الكتبي المقدِّمة الغزلية لكثير من قصائد المدح ولا يذكر من مدحتها شيء، أو يكتفي بذكر القليل منه، وبقي المدح كما عهدناه، يعرج صاحبه على الصِّفات المعروفة والمستهلكة، من أجل العطاء، غير أنَّ بعض شعر المدح سجَّل أصحابه بعض الحوادث التاريخية.

وعبّر الشِّعر الاجتماعي عن ظروف العصر وهموم النَّاس في ذلك العصر، كما بيَّن التجاوزات التي عانت منها المجتمعات، وساعد على ذلك وجود طائفة من هؤلاء الشُّعراء من عامة الناس، وظهر في شعر الاخوانيات المتبادل ما بين أفراد العائلة الواحدة، أو الأصدقاء الشوق والحنين، وأحياناً العتاب والشكوى من الوحدة والزمن، أَّما شعر الوصف فقد كان قليلاً، صوّر من خلالها بعض الشُّعراء بعض المظاهر الطبيعية والأدوات المستخدمة في ذلك العصر، أمَّا المدائح النبوية فقد تبين لنا كيف شعر الشُّعراء بحاجتهم لشخص الرَّسول r ، فهرعوا لمدحه وذكر معجزاته وسيرته، طالبين شفاعته.

ومن خلال دراسة شعر القرنين السادس والسابع الهجريين والنصف الأول من القرن الثامن تبين للدارس تأثر الشُّعراء بظروف العصر لاسيَّما الحروب الصليبية التي كان لها عظيم الأثر في نفوس المسلمين، والتي انعكست في شعرهم من بعد ذلك.

وبقي عدد من الشُّعراء محافظاً على الشكل الفني لبناء القصيدة، فتبيَّن لنا كيف أنَّ الشُّعراء استفتحوا قصائدهم بالغزل، لاسيَّما القصائد المدحية، وارتسموا خطا الأقدمين في استخدام الألفاظ والتراكيب الجزلة القوية، ولاسيما في موضوعات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرِّثاء والمديح النبوي، كما تبيَّن التزام الشُّعراء بالأسس التي وضعها النقاد، فكانوا يهتمون ببراعة الاستهلال وحسن التخلص والخاتمة.

وتبين لنا أن الشعر الذي احتواه كتاب فوات الوفيات يغلب عليه أحد الاتجاهات التالية: اتجاه تقليدي؛ وفيه يهتم أصحابه باستخدام العبارات الجزلة والتراكيب المتينة، والرجوع للمعاني القديمة ومحاكاتها، والسير على نهج القدماء في البناء الفني للقصيدة، ثم أسلوب زخرفي؛ وفيه اهتمَّ الشُّعراء اهتماماً واضحاً بالمحسنات البديعية، وأكثروا من أستخدامها، وأغرقوا في الصنعة، وتلاعبوا ببناء القصيدة، وأسلوب شعبي؛ وفيه التقط الشُّعراء الفاظهم وعباراتهم من السنة العامة ومالوا للبساطة في صورهم التي جلبوها في الغالب من الحياة العامة، مع عدم الاهتمام بقواعد اللُّغة أحياناً.

وظهرت بعض الصور التي يمكن القول عنها أنها مبتكرة لدى بعض الشُّعراء، على أنها قليلة قياساً بالصور المكرَّرة، ونوّع الشُّعراء في مصادر صورهم، فأخذوا من الطبيعة والحياة العامة والحروب وادواتها، وغيرها، ولم يعتمدوا في تصويرهم على التشبيه، بل استعانوا بالتجسيد والتشخيص. وظهر استفادة الشُّعراء من أسلافهم الشُّعراء السابقين معنى وأسلوباً، كما استفاد الشُّعراء من المصادر الدِّينية، ولاسيما القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والقصص القرآني.

ولله الحمد من قبل ومن بعد،،،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المراجع:

ابن الأثير، ضياء الدِّين أبو الفتح نصر الله بن محمَّـد الجـزري، (ت 637هـــ)، (1998). **المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر**، تحقيق: كامل محمَّد محمَّد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2.

ابن الأثير، عز الدِّين أبي الحسن علي بن محمَّد بن عبد الكريم الجزري، (ت630هـ)، (1966). **الكامل في التاريخ**، دار صادر – بيروت.

ابن الذروي، المصري، (2010). **شعر ابن الذروي المصري**، تحقيق: مشهور الحبازي، مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها، يافا الغربية – فلسطين، الطبعة الأولى.

ابن العراقي، ولي الدِّين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، (ت826هـ)، (1989). **الذَّيل على العبر في خبر من عبر**، القسم الأول تحقيق: صـالح مهدي عباس، مؤسسة الرِّسالة، بيروت.

ابن تغري بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف، (ت 874هـ)، (1992) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن تغري بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف، (ت 874هـ)، (2002). **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمَّد محمَّد أمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج2.

ابن تميم، مجير الدِّين (ت 684هـ)، (1999). **ديوان مجير الدِّين بن تميم**. تحقيق: هلال ناجي، ناظم رشيد، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى.

ابن حجر العسقلاني، شيخ الإسلام شهاب الدِّين أحمـد، (ت852هـ)، (1980). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمَّد سيد جـاد الحـق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، ج4.

ابن خلدون، ولي الدِّين عبد الرَّحمن بن محمَّد الحضرمي، (ت 808هـ)، (2005). **المقدمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن رافع السلامي، تقي الدِّين أبي المعالي محمَّد بن رافع السلامي، (ت774هـ)، (1982). **الوفيات**، المجلد الثاني، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، ط1.

ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني (ت 463هـ)، (1964). **العمدة في محاسن الشعر ونقده**، تحقيق محمَّد محي الدِّين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 2.

ابن طباطبا، محمَّد بن أحمد بن طباطبا العلوي، (322هـ) (1982). **عيار الشعر**، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

ابن عنين، شرف الدِّين أبي المحاسن محمَّد بن نصر الأنصاري، (ت 630هـ)، (1958). **ديوان ابن عنين**، تحقيق: خليل مردم، دار صادر، بيروت، ط2.

ابن قاضي شهبة، تقي الدِّين أبي بكر بن احمد بن قاضي شهبة الأسدي، (ت851هـ)، (1977). **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق عدنان درويش، الناشر المعهد العلمي الفرنسي، دمشق.

ابن قسيم، الحموي، (1995). **ديوان ابن قسيم الحموي من شعراء نور الدِّين زنكي**. تحقيق: سعود محمود عبد الجابر، دار البشير، الطبعة الأولى، عمان– الأردن.

ابن كثير، عماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت744هـ)، (1992). **البداية والنهاية**، دار الحديث، القاهرة، المجلد السابع، ج13، 14.

ابن منظور، جمال أبو الفضل محمَّد بن مكرم بن علي، (ت 711)، (2003). **لسان العرب**، ج4، دار الحديث. القاهرة.

ابن نباته، الشيخ جمال الدِّين ابو بكر ابن نباته المصري الفرقي، (ت 786هـ)، (د.ت). **ديوان ابن نباته**، الطبعة اللبنانية، بيروت.

أبو الخير، محمود عبدالله، (2003). **الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين**، دار الإسراء، عمان – الأردن، الطبعة الأولى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبو المظفر الأبيوردي، محمَّد بن اسحق،(1974). **ديوانه**، تحقيق: عمر الأسعد، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ج2.

أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، (ت 231هـ) (1957). **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي**، تحقيق محمَّد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة.

إحسان سعيد خلوصي، (1994). **أعلام الفكر في دمشق**، دار يعرب، الطبعة الاولى، دمشق.

الأربلي، ابن الظهير مجد الدِّين محمَّد بن أحمد، (ت 677هـ) (1988). **ديوان ابن الظهير الاربلي**، تحقيق: ناظم رشيد،. جامعة الموصل، الموصل.

الإمام، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، (2010). **صحيح مسلم**، تحقيق رائد بن صبري، دار طويق، الرياض، 8.

امرئ القيس، (2005). **ديوانه**، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت.

الاهواني، عبد العزيز،(1962). **ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر**، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة.

أيدمر المحيوي، علم الدِّين بن عبدالله التركي، (ت674هـ)، (1931)، **مختار ديوان علم الدِّين أيدمر المحيوي**، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

باشا، عمر موسى، (1972). الأدب في بلاد الشام – **عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك**- المكتبية العباسية، دمشق – سوريا،الطبعة الثانية.

بدوي، أحمد، (1977). **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

البغدادي:إسماعيل باشا، (ت 1399)، (1982). **هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**،المجلد السادس، دار الفكر، بيروت.

بكري شيخ أمين، (1972). **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى.

البنوي، منال عطاالله، (2004). **الاستدعاء الدِّيني والأدبي في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البوصيري، شرف الدِّين أبو عبدالله محمَّد بن سعيد الصنهاجي، (ت696هـ)، (1973). ديوان البوصيري. تحقيق محمَّد سيد كيلاني. (ط2)، الناشر: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، مصر.

تأبط شراً، ثابت بن جابر بن سفيان (ت. حو.80.ق.هـ)، (1984). **ديوان تأبط شراً وأخباره**، جمعه، علي ذو الغفار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.

التميمي، حسام محمَّد عمر، (1996). **أثر المتنبي في شعر الحروب الصليبية في مصر وبلاد الشام**، رسالة ماجستير – غير منشورة.

الجاحظ، عمر بن بحر، (ت 255)، (1948). **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ج3.

الجاحظ، عمر بن بحر، (ت 255هـ) (1968). **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.

الجرجاني، علي عبدالعزيز. (329هـ)، (1945). **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق محمَّد أبي الفضل إبراهيم، علي محمَّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباني الحلبي، القاهرة.

الجرجاني، علي عبدالعزيز، (329هـ)، (1951). علي بن عبد العزيز الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية.

الجعبري، برهان الدِّين أبو إسحق ابراهيم بن عمر، (732هـ)، (1906). **ديوان الجعبري**، المطبعة اليوسفية، القاهرة، بدون محقق.

جكلي، زينب بيره، (2004). **الشعر العربي في عصر الدول المتتابعة**، الطبعة الأولى، عمان – دار الضياء.

الجلياني، عبد المنعم، (ت 602)، (2009). **ديوان المبشرات والقدسيات**، تحقيق: عبد الجليل حسن عبد المهدي، وزارة الثقافة.

الجّمال، أحمد صادق، (1966). **الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي**، القاهرة، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاجي، خليفة، (المتوفى 1067هـ)، (1994). مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر، بيروت.

الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، (ت779هـ)، (1986). **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق دكتور محمَّد محمَّد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج3.

حسين عطوان، (1987). **مقالات في الشعر ونقده**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.

حسين، علي صافي، (1960). **ابن دقيق العيد، حياته وشعره**، دار المعارف، مصر، القاهرة.

حسين، محمَّد كامل، (1957). **دراسات في الشعر في العصر الأيوبيين**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

الحموي، ياقوت شهاب الدِّين أبي عبدالله، (ت625)، (1993). **معجم البلدان**، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2.

الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، (ت1089هـ)، (1998). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5.

خليل، ياسين عايش، (1993). **الشعر في بلاد الشام والجزيرة منذ قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري**. مؤسسة الرِّسالة، بيروت.

الدقاق، عمر، (1995). **من أعلام الشعر والأدب العربي**، الطبعة الثالثة، دار العلوم الجديدة، بيروت – لبنان.

الدويهي، أسطفان، (1976). **تاريخ الأزمنة**، مطابع الكريم الحديثة، جونية، (د.ط).

رشيد، ناظم، (2002). **المدائح النبويّة في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة**، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد.

الرقب، شفيق محمَّد، (1993). **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، دار الصفاء للطباعة والنشر، عمان – الأردن، الطبعة الأولى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرقب، شفيق، (1998). شعر الهجاء في بلاد لشام زمن الحروب الصليبية، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد (55)، ص107.

الرقب، شفيق، (2008). **دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبي والمملوكي**. (ط1)، دار يافا العلمية، عمان، الاردن.

الزركلي: خير الدِّين الزركلي،(1984). **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ج6.

زيدان، جرجي، (1983). **تاريخ آداب اللغة العربية**،ج3، دار مكتبة الحياة،بيروت، لبنان.

السبكي، تاج الدِّين أبي نصر عبد الوهاب بـــن علـــي، (ت 771هـــــ)، (1964) ، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: عبد الفتاح محمَّد الحلو و الطناجي، محمود محمَّد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ج10.

السبكي، تاج الدِّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي،(1948). **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق: محمَّد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمَّد أبو العيون، دار الكتاب العربي، القاهرة.

السخاوي: الحافظ المؤرخ الحجة شمس الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحمن، (ت902 هـــ) (1349 هـــ). **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، دمشق، مطبعـــة الترقـــي عام، الطبعة الأولى.

سلام، محمَّد زغلول، (1967)، **الأدب في العصر الأيوبي**، دار المعارف – القاهرة.

سلام، محمَّد زغلول، **تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري**.

سلام، محمَّد زغول، (1971). **الأدب في الدولة الأولى (648-783) العصر المملوكي**، دار المعارف- القاهرة، مصر.

السمره، محمود، (1979). **القاضي الجرجاني الأديب الناقد**، منـــشورات المكتـــب التجاري للطباعة، بيروت، الطبعة الثانية.

الشاب الظريف، شمس الدِّين محمَّد ابن العفيف التلمساني، (ت 688هـــ)، (1995). **ديوان الشاب الظريف**، تحقيق: شاكر هادي شاكر، مكتبة النهضة العربية – دار عالم الكتب، الطبعة الأولى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشايب، أحمد، (1976). **الأسلوب**، دراسة بلاغية تحليلة لأصول الأساليب الأدبية، الطبعة السادسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

الشايب، أحمد، (د.ت). **الغزل في تاريخ الأدب العربي**، الطبعة الأولى، دار المعارف للطباعة والنشر بسوسة- الجمهورية التونسية.

شرف الدِّين الحلي: أبي الوفاء راجح الحلـــي (ت 627) (1994). **ديـــوان راجـــح الحلي**، تحقيق ودراسة: الدكتور الدوكالي محمَّد نـــصر، منـــشورات كليـــة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.

الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى، (ت436) (1955). **طيف الخيال**، تحقيق: محمَّد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابي الحلبـــي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى.

الشهاب محمود، أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبـــي، (ت 725هـــ)، (1897). **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، مطبعة أمين هندية.

الشيبي، كامل مصطفى، (1972). **ديوان الدوبيت في الشعر العربي**، دار الثقافة، بيروت.

صالح، عادل جابر؛ الرقب، شفيق محمَّد، (1990). **كتاب خاص في تاريخ الأدب العربي القديم**، دار صفاء، الطبعة الأولى.

صالح، مخيمر، (1986). **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري**، الطبعة الأولى، الدار العربية – عمان.

الصايغ، هنرييت، (1980). **اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام**، رسالة دكتوراه – غير منشورة-، جامعة القاهرة.

الصرصري، أبي زكريا جمال الدِّين يحيى بن يوسف البغدادي الحنبلي، (ت 656هـــ)، (1990). **ديوان الصرصري**، تحقيق: مخيمر صالح، جامعة اليرموك، إربد.

الصفدي، صلاح الدِّين أبو الصَّفاء خليل بن أيبـــك، (ت764)، (2001). **الـــوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مـــصطفى، دار إحيـــاء التـــراث العربي، بيروت، ج4.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن ايبك، (ت 764هـ)، (1979). **المختار من شعر ابن دانيال**، تحقيق: محمَّد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل.

الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن ايبك، (ت 764هـ)، (1998). **أعيان العصر وأعوان النصر**، دار الفكر المعاصر، بيروت.

الصفي الحلي، عبدالعزيز بن سرايا، (2000). **الديوان**، تحقيق الدكتور محمَّد حوّر، دار الفارس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، ج1.

ضيف، شوقي، (1955). **الرثاء**، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي، (1971). **فصول في الشعر ونقده**. دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي، (1984). **تاريخ الأدب العربي** – عصر الدول والإمارات، مصر والشام، دار المعارف، القاهرة، مصر.

عباس، إحسان، (1981). **تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن للهجرة** ، دار الثقافة، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة.

عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن، (2003). **فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي** الأول، الطبعة الأولى، دار الرازي، عمان.

عبد العظيم علي قناوي، (1949). **الوصف في الشعر العربي**، شركة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، ج1.

عبد المهدي، عبد الجليل حسن، (1989). **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية**، دار البشر للنشر والتوزيع، الجامعة الأردنية.

عرقلة الكلبي، أبو الندى حسان بن نمير، (ت 567هـ)، (1970). **ديوان عرقلة الكلبي** ، تحقيق: أحمد الجندي، مطبع دار الحياة – دمشق.

العزازي، الشهاب احمد بن عبد الملك المعروف، (د. ت). **ديوان الشهاب العزازي**، مخطوط.

العزاوي، عباس، (1957). **التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان**، بغداد، الناشر شركة التجارة.

عصفور، جابر، (1992). **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، (ط3)، المركز الثقافي العربي، بيروت،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عطوان، حسين، (1987). **مقالات في الشعر ونقده**، دار الجيل، بيروت.

العطوي، مسعد بن عيد، (1995). **الاتجاهات الفنية إبان الحروب الصليبية**، الطبعة الأولى، مكتبة التوبة، الرياض.

الفاخوري، حنا،(1953). **تاريخ الأدب العربي**، بيروت، الطبعة الثانية، المطبعة البولسية.

الفقي، محمَّد كامل، (1984). **الأدب العربي في العصر المملوكي**، دار الموقف العربي- جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة.

فوزي محمَّد أمين، (1982). **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، دار المعارف، مطابع جريدة السفير.

القرطاجني، أبو الحسن حازم القرطاجني، (ت 684هـ)، (1966). **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تقديم وتحقيق: محمَّد الحبيب ابن الخوجه، دار الكتب الشرقية، تونس.

قصي الحسين، (2006). **الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني**، المؤسسة الحديثة، طرابلس، لبنان.

الكتبي، محمَّد بن شاكر بن احمد الكتبي، (ت764هـ)، (1973). **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج1.

كحالة، عمر رضا، (1993). **معجم المؤلفين**، ج3، مؤسسة الرِّسالة، ط1.

الكفراوي، محمَّد عبدالعزيز (1968)، **تاريخ الشعر العربي**، مكتبة نهضة – القاهرة، ج4.

مبارك، زكي، (1935). **المدائح النبوية في الأدب العربي**، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر.

المتنبي، (1930). **ديوان أبي الطيب**، تحقيق: الدكتور عمر فاروق الطباع، المجلد الثاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

محمَّد، محمود سالم، (1996). **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي**، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعري، أبي العلاء أحمد بن عبدالله، (ت 449)، (1957). **اللزوميات: ديوان سقط الزند، دار صادر، ودار بيروت، بيروت.**

الملك الأمجد، بهرام شاه الأيوبي، (1991). **ديوان الملك الأمجد**، تحقيق: غريب محمَّد علي احمد، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

النابلسي، الرشيد. (2003). **شعر الرشيد النابلسي**، تحقيق مشهور الحبازي، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، مطبعة المنار الحديثة، الطبعة الأولى.

هلال، محمَّد غنيمي، (1997). **النقد الأدبي الحديث**، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، القاهرة.

الهيب، أحمد فوزي، (1986). **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**. (د. ط)، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، لبنان.

الهيب، أحمد فوزي، (1987). **الحركة الشعرية زمن اليوبيين في حلب الشهباء**، مكتبة المعلا، الكويت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعلومات الشخصيّة

الاسم: مهنا هايل محمَّد الرجيلات

الكلية: الآداب

التخصص: الأدب والنقد

السنة: 2013م

هاتف رقم: 0796412191

العنوان الإلكتروني: mhnasal@yahoo.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com